ERICA BAUERMEISTER

إيريكا باورميستر

حاملة العبير

The SCENT KEEPER

رواية

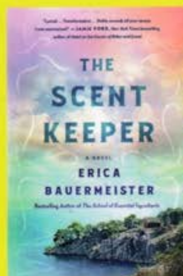
ترجمة: أبرار أحمد قنديل

مكتبة ياسمين

عصير الكتب

حاملة العبير

تعيش إيميلين طفولةً ساحرةً في جزيرة نائية مع والدها الذي يُعرفها على الطبيعة مِن حولها عَبرَ الحواس، في كنف سرٍّ أوراق العبير الغامضة القابعة في الأدراج التي تزين جدران كوخهم والآلة التي تصنعها. تكبر إيميلين ويكبر معها فضولها حتى يحدث يومًا أمرٌ غير مُتوقع، فتهبط إيميلين إلى أرض الواقع وتتعرف على الحب والخيانة والطموح والانتقام. لكشف ألغاز ماضيها، يجب على إيميلين جمع الأدلة للتعرف على هويتها في تحدٍّ يفوق حدود عواطفها وخيالها.



مكتبة ياسمين

غلاف: عبد الرحمن الصواف









حاملة العبير



للجُزر

مقدمة

كتب علينا أن نعيش مثقلين بأسرار آبائنا، أن نحصد ثمار ما لم نزرع. إن أغمضت عيني وأسلمت نفسي للهواء فسأشم العبير الهش اللامع للحظة التي خان فيها أبي ثقتي به وحطم فيها فؤاده، وسأشم شذا العسل من وعود أمي.

ومن يدري، فقد تشمها أنت أيضًا وتشم غيرها الكثير. قد تسري إلى أنفك حرارة طفل ألجمه الغضب، أو توقف الزمان بفتاة قامرت بكل ما تملك في لحظة بطولة، أو رائحة المطر والملح، وقد تأتيك رائحة دخان الغليون على استحياء. كلها أمور حدثت قبل أن تأتي إليَّ.

ها أنا أشعر بك يا جنيني الصغير، تأوي إلى دمي وأنفاسي. أجسادنا أشبه بخفة الماء إلا ما حوت من ثقل الأسرار التي تخفيها، وها أنا أدعوك لتكون أسراري لك جسرًا تعبر به بين ضفتي حياتك، أن تصبح ملاذًا يأويك لا أثقالًا تضنيك. ها هي هديتي لك، فانتصت.

الجزء الأول

الجزيرة



البداية

كان ياما كان، في طي الزمان، عشت مع أبي في جزيرة نائية في أرخبيل ممتد، ارتفع عن الماء عطشًا للهواء، كبُرت حيث المطر والمستنقعات والأشجار العتيقة الراسخة. كان من السهل نسيان أن أغلب مساحة الجزيرة التي نعيش فيها ضاربة بعمقها تحت الماء، عمق قد يصل إلى نصف متر أو متر أو ربما متر ونصف المتر، تقشعر لها الأبدان، بل بدا أن عمقها أبدي، لا تستطيع حبس أنفاسك بما يكفي لتصل إلى قاعه.

ما لم أفهمه في ذلك الوقت، أن تلك الجزر كانت ملاذنا، فلم يكن هناك ما أهرب منه إليها أو أنأى به عنها. كان أبي كل شيء لي، وقد سمعت أناسًا يقولون بأعين لامعة أن شخصًا ما هو كل حياتهم، لكن أبي كان حقًّا كل حياتي، لدرجة تعصف بأفكاري وتفتك بها كما تفتك الريح بالهشيم في يوم عاصف.

بُنِي كوخنا في فسحة وسط الجزيرة، لكننا لم نكن أول ساكنيه؛ فقد كانت الجزيرة مأوى لكثير من الفارين. قرابة قرن مضى، عاش في الجزيرة تجار الفراء الفرنسيين الذين تحدثوا بلهجة أشبه بأنغام الموسيقى، وحطَّابون أقوياء البنيان، وصيادو السلمون الفضي. ثم أوت الجزيرة الهاربين من

العسكرية خوفًا من الحرب، ومجموعات الهبيز[1] الهاربين من القوانين. أوت الجزيرة هؤلاء كلهم، وتعاقب عليهم الشتاء تلو الشتاء بليله الطويل. وكان جمال الجزيرة صارخًا، يذيب المرء سحرًا ودهشة.

بَنى كوخنا أبرع الفارين؛ فقد بنى مكانًا يصعب إيجاده، بناه من أشجار قطعها بنفسه، وأمضى أربعين عامًا في الجزيرة يعد مكانًا لحديقة ويزرع بستانًا. وفي خريف إحدى السنوات، اختفى ببساطة، وقيل إنه مات غرقًا. وصلنا إلى الكوخ، حيث أشجار التفاح، وفتحنا بابه بعد أن كان خاويًا لأعوام، وأصبحنا اثنين على متن الجزيرة.

لا أتذكر بوضوح وصولنا إلى الجزيرة فقد كنت صغيرة السن، لكنني أتذكر ببساطة أننا عشنا هناك. وأتذكر الدروب بين الأشجار الشاهقة ورائحة التراب القاتم تحت أقدامنا غامضًا كالقصص الخيالية. وأتذكر كوخنا الذي يحتوي غرفة واحدة بكرسيه الكبير قرب موقد الخشب، والمجموعة التي امتلكناها من القصص والكتب العلمية. كما أتذكر رائحة الخشب المحترق ولب الصنوبر التي غمرت لحية أبي عندما كان يقرأ لي ليلًا، وطيف رائحة تبغ غليون الرجل الذي سكن قبلنا، عالقة في الجدران لا تمحى. وأتذكر كما لو أن المطر كان يتجاذب أطراف الحديث مع السقف حين خلدت للنوم، وكيف هبت النار آمرة إياهما بالسكوت.

كما أتذكر الأدراج أكثر من أي شيء.

شرع أبي في بناء تلك الأدراج بعد وصولنا إلى الكوخ، وعندما انتهى زينت الأدراج الحوائط من أعلاها إلى أسفلها. كان حجم الأدراج صغيرًا، وواجهتها الخشبية اللامعة أقرب إلى حجم إصبع طفل صغير. أحاطتنا الأدراج من الداخل كما كانت الغابة والجزر تحيط بنا من الخارج.

احتوى كل درج على زجاجة صغيرة بداخلها ورقة صغيرة ملتفة تطوي ما بداخلها كما يُطوى السر. وكانت أغطية الزجاجات مختومة بألوان مختلفة من الشمع، وزينت زجاجات الشمع الأحمر الرفوف العليا، كما زينت زجاجات الشمع الأخضر الرفوف السفلى. ولم يفتح أبي الزجاجات قط.

---

(1) ظاهرة اجتماعية كانت بالأصل حركة شبابية نشأت في الولايات المتحدة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، ثم ما لبثت أن انتشرت في باقي الدول الغربية.

كان أبي يقول: يجب أن نحافظ عليها.

لكني كدت أسمع همس الأوراق داخل الأدراج.

تعالي إليَّ.

وبت أرجوه من فضلك مرارًا وتكرارًا.

في نهاية المطاف، وافق أبي، وتناول كتابًا جلديًّا مليئًا بالأرقام وأضاف رقمًا للقائمة، ومن ثم التفت إلى الجدار المملوء بالأدراج وفكر مليًّا بقراره.

قلت له: هناك في الأعلى.

مشيرة إلى الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر، فشمس القصة دائمًا تشرق في أعلى الصفحة.

شاهدت أبي يصعد السلم الذي بناه، ليتحرك بمحاذاة الجدار حتى قارب على الوصول إلى السقف، ممسكًا بأحد الأدراج ومخرجًا الزجاجة منه، أزال بعناية الختم عندما نزل من السلم. أحسست بصوت احتكاك الزجاج عند إزالته الغطاء وحفيف الورقة البيضاء المربعة عند فرده لها. اقترب أبي مستنشقًا ثم كتب رقمًا آخر في الكتاب.

اقتربت أنا أيضًا رغمًا عني. رفع أبي بصره مبتسمًا وممسكًا بالورقة.

قال أبي: ها هي ذي، لا تستنشقي الكثير، ولكن دعي العبير يكشف عن نفسه.

فعلت ما قاله أبي، فلم أملأ أنفي بالهواء وأبقيت تنفسي بطيئًا وشعرت بأجزاء العبير تدغدغ أنفي وتنفذ إلى شعري الأسود المموج. شممت رائحة نيران تخييم تسري من غابة لم أعرفها، وطين جاف لم أعهده من قبل، وسحبًا محملة بالماء لم يقع بصري عليها قط، كلها تسري برائحة الانتظار.

- الآن، استنشقي بقوة.

استنشقت وغمرني العبير كسقوط أليس[1] في جحر الأرنب.

***

بعد ذلك، نظرت إلى أبي عندما أحكم غطاء الزجاجة وختمها ووضعها في الدرج. ورائحة العبير ما زالت تعبق في الهواء.

---

(1) أليس بطلة رواية مغامرات أليس في بلاد العجائب للكاتب لويس كارول.

طلبتُ منه: قص عليَّ قصتها، من فضلك.

- حسنًا يا عصفورتي.

جلس أبي على الكرسي الكبير وجلست بجانبه والنار تطقطق في موقد الخشب والعالم خارج الكوخ في سكون.

بدأ أبي الحديث، مطوعًا صوته ليناسب قافية الكلمات: كان ياما كان، يا إيميلين...

كما لو كانت الكلمات تنسج من الشكولاتة.

كان ياما كان يا إيميلين، كان هناك ملكة جميلة حبيسة في قلعة بيضاء كبيرة، ولم يستطع أي من الفرسان الأقوياء الشجعان إنقاذها. قالت الأميرة يومًا لفتى شجاع يدعى جاك: أحضر لي رائحة تزلزل الجدران...

استمعت والروائح تسري لتختبئ في شقوق ألواح الأرضية وفي كلمات القصة وفي حياتي بأسرها.

صائد العبير

بعد ذلك كررت طلبي كل يوم: هل يمكننا فتح زجاجة أخرى، رجاءً؟

كان أبي عادة يستسلم في نهاية الأمر، لكن ليس دائمًا.

- إن الزجاجات تحمي الأوراق، وإن أكثرنا فتحها فإن الروائح ستختفي.

بدا ذلك غير منطقي، فالروائح كما المطر والطيور، تغدو وتروح، تروي حكايتها، معلنة انخفاض المد أو انتهاء طهي الشوفان أو قرب إزهار شجر التفاح، لكنها لم تبقَ قط.

فهمت حتى عندما كنت طفلة أن أوراق العبير تلك كانت مختلفة، يغمرها السحر، فقد حوت عوالمَ بأكملها بداخلها. استطعت تمييز بعض ما حوت مثل رائحة فاكهة ما، لكن الفاكهة التي حوت كانت أكبر وأكثر حلاوة من أي شيء ذقته، أو حيوان أكثر كسلًا من أي حيوان رأيته. كانت الكثير من الروائح غريبة تمامًا عني، تملأها الحدة، والسرعة، والخفة، والرشاقة.

أردت النفاذ إلى تلك العوالم ومعرفة كيف أتت تلك الروائح. كما أردت أن أصبح جاك صائد العبير، بطل القصص التي كان يقصها عليَّ أبي أكثر من أي شيء، أن أتجول في ظلال الأدغال الوارفة وأن أتسلق أعالي الجبال لأقتنص عبير زهرة صغيرة.

سألت أبي: كيف استطاع جاك فعل ذلك؟ كيف استطاع إيجاد تلك الروائح؟

قال أبي مداعبًا قصبة أنفي: باتباع هذا.

توقفت ثم قلت: كيف؟

ابتسم أبي وقال: أظن أن عليكِ أن تدعيه يدلكِ.

لم أفهم ما قاله أبي، لكن من ذلك الحين بذلت قصارى جهدي في أن أجعل أنفي يدلني، لقد ملأت أنفي بكل تغيير في الطقس، وبرائحة الطين لأرى ما سيحدث، وكان الهواء دائمًا عابقًا برائحة ملح البحر، لكنني لاحظت أن رائحته تصبح أقوى عندما تتلاطم الأمواج. كما استطعت التقاط رائحة خضراء زاهية تتساقط من أشجار الصنوبر كما يتساقط الماء من الشلال وتعقبتها حتى وصلت للنسيم والطريقة التي سرى بها إلى أعلى الأشجار محركًا الأغصان الإبرية معًا.

نزلت من حجرتي كل يوم بطلوع الصباح عازمة على العثور على ما أستطيع من الروائح.

وكان أبي يقول وأنا أنزل على السلم: أنتِ نداء استيقاظي، وعصفورة صباحي.

***

أمضينا معظم الوقت في الخارج، نربي الدجاج لنحصل على البيض ونعتني بأشجار الفاكهة وحديقة الخضراوات. ورغم ذلك، جمعنا معظم طعامنا من أطراف الجزيرة غير المأهولة، لقد كنت دائمًا حاضرة في مهمة الجمع، وبعمر الثامنة اعتبرت نفسي عنصرًا أساسيًّا فيها إن لم أكن على قدم المساواة في رحلة صراعنا للبقاء.

اعتاد أبي أن ينادي: جامعو الطعام، هيًّا! لننطلق في الغابة ممسكين بسلال لحاء الأرز.

جمعنا في الصيف التوت البري الأحمر وصلال التوت الزرقاء الداكنة كقطع الليل، وفي الخريف عثرنا على الفطر مختبئًا تحت الأشجار وسحرني منظر فطر الغوشنة[1] الملتف الأشبه بمتاهة من الزوايا والثقوب.

---

(1) جنس من الفطريات له رائحة مميزة يشبه الإسفنج الطبيعي يتبع الفصيلة الغوشنية من رتبة الفنجانيات.

طلبت من أبي يومًا وأنا أدفع بيدي تموجات شعري عن وجهي رافعة بصري إليه: قص عليَّ قصتها، من فضلك.

نظر إليَّ أبي مفكرًا وممعنًا النظر بالفطر الذي أحمله بيدي، وبدأ حديثه.

كان ياما كان يا إيميلين، ذهب جاك إلى غابة مسحورة تناطح فيها الأشجار عنان السماء. سكنت الغابة ساحرة جميلة تعيش في قصر مصنوع من العبير. أحبها جاك عندما رآها وأخذته الساحرة معها إلى بيتها الخلاب، لكن بمجرد دخوله منزلها استحال عليه الخروج.

قلت وأنا أقشعر من هول الموقف: يا إلهي.

سألني أبي: أتودين مني الاستمرار؟

- نعم، رجاءً.

قالت الساحرة لن أدعك تذهب وقادته إلى غرفة مليئة بعبير أنساه العالم في الخارج، وكلما هم بالتذكر، قادته الساحرة إلى غرفة أخرى آسرة أكثر مما قبلها.

طاف جاك في القصر لسنوات حتى اكتشف يومًا غرفة لم يرها من قبل، وعندما دخل جاك الغرفة شم عبيرًا ذكره بأماني ماضيه وأحلام مستقبله، ثم رأى مفتاحًا معلقًا في شريط أزرق في علَّاقة قرب الباب.

انتظرت في حماس، فقد أحببت المفاتيح السحرية.

قال أبي: وبعد *ذلك، أخذ جاك المفتاح وفتح الباب* وذهب بلا رجعة.

انتظرت نهاية القصة لكن أبي اكتفى بوضع الفطر في سلتي.

- هذا ليس كافيًا يا أبي. فقد علمت أن النهايات أعقد من ذلك.

قال أبي طابعًا قبلة على جبيني: لكنها النهاية يا عصفورتي الصغيرة، هيًا لنكمل ما نفعله فلن تملأ تلك السلال نفسها.

***

كانت البحيرة البيضاوية المحفوفة بالصخور من جميع الجوانب، والتي تغذيها قناة ضيقة ترتفع مع المد أفضل مكان نجمع منه طعامنا. قضينا عادة معظم يومنا نجمع طعامنا هناك، فعلى طول الشاطئ وجدنا البصل البري

والهليون البحري[1] وثمار نبات لسان الحمل البحري[2] العشبية، كما وجدنا أسفل الصخور على الشاطئ صغار السلطعون السوداء بحجم عقلة الإصبع، كما كانت الصخور على طول الشاطئ غنية بمحار البرنقيل[3] وبلح البحر وأصناف عديدة من أعشاب البحر، وكان عشب الفوقس الحويصلي[4] وثماره الأشبه بالبالونات التي تفرقع في الفم معبئة برائحة الملح نوعي المفضل.

ومع ذلك، كان المحار الصدفي أكثر ما أحببت اصطياده.

قال أبي مشيرًا إلى الماء المتدفق من الشاطئ: هناك.

جريت مسرعة نحوه محاولة الوصول بأسرع ما يمكن لأشعر بزخات الماء تدغدغ بناني، لكن رغم صغر حجمي وسني فإنني وصلت لأجد رائحة الملح وفجوة صغيرة في الرمال. غرزت عصا صغيرة في قرب الفجوة لأميزها. صرخت قائلة وأنا أجري بطول الشاطئ في الاتجاه المعاكس: يوجد غيرها.

قال أبي وهو يقتفي أثر عصاي الصغيرة حاملًا مجرفة صغيرة بيده: أحسنتِ.

وبنهاية ساعة من الجري والجرف عدنا غانمين بسلة ممتلئة.

عادة كنا نجفف المحار الصدفي لنحفظه حتى يخيم علينا الشتاء بستاره. لكنني لم أحب الشتاء؛ فالمطر لم ينقطع وبهتت ألوان أصناف الطعام في أطباقنا، ولم يتبقَّ لنا غير التفاح والمحار الصدفي المجفف وأعشاب البحر الخشنة. كذلك ذبل أبي وشحت قصصه، بل واختفت تمامًا.

سألت أبي: هل يجب علينا تجفيف المحار الصدفي؟

لكن أبي ابتسم ابتسامته المشرقة التي غزت وجهه في الصيف ووافق على التحضير لنزهة. أشعلنا نارًا وطهونا المحار الصدفي ونكهناه بالبصل

---

(1) نبتة معمرة رفيعة السيقان لها أوراق إبرية طويلة وأزهار جرسية تنتج ثمارًا عنبية حمراء زاهية.

(2) نبات عشبي معمر يزهر بأزهار صغيرة بنية مخضرة.

(3) محار يعيش في المياه المالحة، يلتصق بالأشياء تحت الماء. ويوجد على دعامات أرصفة الموانئ والصخور والسلاحف والحيتان وقيعان السفن.

(4) عشبة بحرية تقذفها الأمواج إلى الشاطئ، وهي عبارة عن شريط مستطيل يتفرع إلى فروع متعددة وبداخله أكياس صغيرة على أبعاد متفاوتة مملوءة بالهواء.

البري والهليون البحري، وتناولنا الطعام في أطباق من الأصداف وملاعق من أصداف بلح البحر وتناولنا التوت في التحلية. جلسنا بعد ذلك على الرمال والسماء شديدة الصفاء وأبي يشاهد الماء يشق طريقه للقناة الضيقة.

لطالما كانت تشعرني تلك القناة بالضيق، فالمد تغير في اليوم أربع مرات، والماء اندفع إلى داخل البحيرة أو خارجها عبر الممر المتعرج الممتلئ بالصخور. لقد كانت القناة توحي بالغضب والخطر، على استعداد بسحق أي شيء يقترب منها.

أحس أبي بالطريقة التي أتجنب بها النظر إلى القناة ورفع صدفة ملح البحر التي يحملها كملعقة ليقول نخبًا: في صحة القناة التي تبقينا آمنين.

صدق أبي فيما قال، فبغض النظر عن البحيرة كانت الجزيرة بأكملها شديدة الانحدار، حوافها مغروسة عموديًّا بعمق الماء، وأشجارها دائمة الخضرة تتشبث بجدرانها الصخرية المنحدرة وعلامة ارتفاع المد تظهر في خط أفقي مثالي على فروعها القصيرة المقطوعة، وكانت القناة المعبر الوحيد للجزيرة. كنت قد شاهدت صورًا لقلاع وأجسام شاهقة تستعصي على كل شيء أسفل منها، وبدت جزيرتنا أشبه بالقلعة وقناتها الغاضبة جسرها المتحرك.

قلت: إنها مخيفة.

- لكنها تحمينا من القراصنة والدببة.

كنت قد شاهدت صورًا لها في الكتب ولم تكن لدي أدنى رغبة في مقابلة أي منهما.

رفعت ملعقتي وقلت: في صحة القناة.

***

من آن إلى آخر، كنا نصل إلى البحيرة لنجد الأعشاب البحرية مبعثرة على الشاطئ بكمية كبيرة وصولًا إلى علامة المد المرتفع.

كان أبي يقول: إنها حفلة حوريات البحر. وهو ما صدقته، فالرمال تزينت بطريقة لا يقوى عليها إلا أكثر المخلوقات سحرًا.

قال أبي: لنرَ إن كانوا قد تركوا لنا أي شيء.

كنا نبحث خلف الصخور وشجيرات التوت البري بطول الشاطئ، فمن المؤكد أننا سنعثر على الكنز. عثرنا على صناديق سوداء بلاستيكية محكمة الإغلاق أكثر من زجاجات العبير، وحوت داخلها أجمل الهدايا مثل الأُرز، والطحين، والشكولاتة، والقهوة. وعثرنا أحيانًا على الكتب أو الأحذية أو الملابس.

عثرنا في أحد الأيام، عندما كنت في التاسعة أو ما شابه على كنز دفين رائع في صندوقين أسودين، يحتوي أحدهما على زوجين من الأحذية ومعطفٍ واقٍ من المطر يناسب مقاسي تمامًا.

سألت أبي: كيف تعرف الحوريات ما نحب؟

قال أبي: إنها مخلوقات سحرية.

وفهمت ما يقصد فالسحر وحده هو ما يستطيع أن يعبر قناتنا.

رفعنا الصناديق احتفالًا بنصرنا عائدين إلى الكوخ، فحتى وإن استطاع جاك العثور على الأزهار الصغيرة إلا أننا حققنا نصرًا لا يستهان به. أقمنا وليمة تلك الليلة لكننا خزنًّا أغلب غنائمنا في حجرة المؤن، فالمحيط لا أمان له وأسراره تستعصي على التوقع ويأخذ بقدر ما يمنح، ورائحة تبغ الغليون التي لا تُمحى للرجل الذي سكن الكوخ قبلنا شاهد على ذلك.

بعد العشاء، قرأ لي أبي وقرأت له كما جرت العادة. أحب أبي كتب العلوم وشرح لي عن الطقس أو النجوم أو أسماء الأشجار حولنا، وأمضينا ساعات نتأمل في صور لمخلوقات بحرية وزهور وحيوانات بدت من نسج الخيال.

سألت أبي مشيرة إلى صورة حيوان بني بأرجل نحيلة ولحية تكسو ذقنه الطويل: ما هذا؟

- إنها عنزة.

- هل هذه المخلوقات حقيقية؟

أومأ أبي برأسه.

- هل تستطيع حوريات البحر أن تجلب لي واحدة؟ بدت العنزة سريعة وذكية وربما مرحة، وظننت أنني قد أتخذها صديقة.

سكت أبي للحظة ثم قال أخيرًا: ومن يدري ربما تستطيع الحوريات فعل ذلك.

- إذن هل نسألهم؟

كنا دائمًا نعيد الصناديق الفارغة إلى الشاطئ بداخلها بطاقة شكر، فقد كان أبي يردد دائمًا: *عاملي حوريات البحر بلطف*.

هز أبي كتفيه قائلًا: من يدري، لنجرب ونرَ ما سيحدث.

كعادة أبي وصل الحديث نقطة النهاية. رغم أنه كان أحيانًا يقضي ساعات يشرح لي أسرار الأشجار أو الطقس، فإنه في أحيان أخرى يتوقف عن الحديث فحسب.

قلت منتهزةً فرصة صمته: ما رأيك بقصة؟

لأستبدل بكتاب العلوم مجموعة القصص الخيالية الثقيلة. كان الغلاف المدهش مزينًا بكلمات مذهبة وصورة لأميرة وقزم. كانت أساطير الكتاب خيالية وشديدة التعقيد لفتيات نمن إلى الأبد، ولبيوت مصنوعة من الحلوى ومنسوجة من الكذب.

أخبرني أبي أن أشياء كثيرة في الكتب الخيالية لم تكن حقيقية، لكنني لم أستطع التفرقة بين الحقيقة والخيال، فالغابات حقيقة بالطبع، ولكن صورة لطفلين يمسكان بأيدي بعضهما لطفلة مثلي تعيش في جزيرة بصحبة أبيها فقط كانت مدهشة كتحوُّل قشة إلى ذهب. فكرت في شعور الإمساك بيد تقارب حجم يدي، والتعرف على شخص يسأل أكثر مما يجيب، وتأملت معاني العديد من الأشياء حينها.

سألت أبي وأنا أحدق إلى رسمة لامرأة ذات شعر أشقر طويل تحمل طفلًا في حضنها: لِمَ لا أمَّ لي؟

- لأنني معكِ. طوى أبي الصفحة، ورأيت صورة المرأة الشريرة شديدة البياض ذات الشعر الأسود تحدق في المرآة. لم يجب أبي حقًّا على سؤالي، ولكنه منحني تفسيرًا معقولًا، ففي كتب الخيال تظهر الساحرات دائمًا عندما توجد الأمهات.

قلَّبت بين القصص شاعرة بنسيم طي الصفحات، تاركة صورة المرأة، وقرب نصف الكتاب وجدت فراغًا، كان يأسر تفكيري كل مرة، كسنٍّ خُلِعَت من مكانها. أحببت أن أمرر إصبعي على تلك المساحة الفارغة شاعرة بالحواف الممزقة المتشبثة بظهر الكتاب.

سألت أبي: هل كان هذا مكانًا لقصة؟

- لم تكن قصة لطيفة.

رفعت نظري إليه وأمارات السؤال بادية على وجهي لكنه أجاب كعادته بطبع قبلة على جبيني.

- يكفي هذا الليلة يا إيميلين، حان وقت نوم العصافير الصغيرة.

صعدت السلم إلى حجرتي في الأعلى واستلقيت حيث الأغطية وأنا أفكر بحوريات البحر والعنز والأمهات والصفح المفقودة والساحرات، وعن الآباء الذين لا يبوحون بكل شيء تود معرفته. لكن اليوم كان طويلًا وكانت الصناديق ثقيلة وكانت محبة أبي أمرًا لا يحتمل الجدال لهذا كله لم أسأل عن المزيد. لكن لربما كان كل شيء سيصبح مختلفًا لو فعلت.

الآلة

امتلك أبي آلة أكثر غرابة من حوريات البحر الغامضات أو العنز. يستعملها مرة واحدة في الموسم لصنع ورقة عبير جديدة. انتظرت في شوق بين المرة والأخرى ليفتح أبي حجرة المؤن ويخرج الآلة من الرف العلوي ويزيل عنها القماشة الرمادية الناعمة الطويلة التي تحفظها. احتوت الآلة على صندوق فضي لامع بحجم نصف رغيف تقريبًا، ولها غطاء ذو مفاصل يظهر لوحة ذات فتحات صغيرة تفوق الحصر حين يُرفع.

اعتاد أبي حمل الآلة ووضعها على موقد الخشب والضغط على الزر الأسود بجانبها. كنت أسمع صوت الهواء ينفذ إلى الفتحات كما لو كانت الآلة تتنفس ومن ثم صوت العديد من النقرات المتتابعة. في نهاية المطاف، وبعد الطنين والأزيز تدحرجت ورقة مربعة ببطء من فتحة في قاعدة الآلة.

جريت متجهة إلى الورقة قبل أن تُزج في الزجاجة قائلة: دعني أشمها. تمنيت كل مرة أن أجد السحر، أن أجد عالمًا جديدًا لم أعرفه، وأن أستنشق عبيرًا كعبير الأوراق في الرفوف العليا. استنشقت العبير آملة أن أثمل برحيق زهرة مجهولة أو بغموض توابل غير مألوفة، ووددت لو كان عبيرًا مدهشًا أعزوه إلى لون أو إحساس ما. أن أسميه الأزرق الهامس، أو البرتقالي الخطر، أو الغضب، أو البهجة. لكن انتابتني خيبة الأمل كل مرة، فلم تحمل الأوراق عبيرًا جديدًا.

سألت أبي: لمَ لا رائحة لها؟

نظر باستغراب وقال وهو يخط بيده سلسلة من الأرقام على ظهر الورقة ثم يلفها ويضعها في الزجاجة: لها رائحة بالطبع.

ختمها أبي بالشمع الأخضر المذاب ووضعها في درج فارغ في أحد الرفوف السفلى.

لم ترضني إجابته، ومع ذلك لم أستطع تصور أن أبي سيستمر في صنع أوراق عبير لا رائحة لها. وتساءلت كيف لهذه الأوراق الخالية من العبير أن تتحول لتصبح شيئًا مليئًا بالسحر؟ شعرت بالزجاجات المختومة بالشمع الأحمر في الأعلى تلمع وعصية على اللمس، وظللت أفكر، هل تنشر سحرها في الرفوف أسفل منها باعثة لهم عبيرها السحري؟ لكن ذلك لم يبدُ محتملًا. ربما كانت أوراق العبير الجديدة أشبه باليرقات التي تحبس أجسادها الرخوة الغريبة في شرنقتها لتصبح شيئًا آخر، أو لربما كانت عملية تعتيقها ببساطة لمدة طويلة هي ما أثرت فيها كزهور العتمة. كان كل شيء محتملًا.

***

كنت في العاشرة عندما عزمت على الحصول على ورقة عبير تخصني لأحرسها وأراقبها. لكن أبي كان حريصًا على آلته معتنيًا بها. استمر أبي في تذكيري - بالقول والفعل - باستخدام الآلة مرة واحدة في الموسم، فقد شاهدته في كثير من الليالي من حجرتي في العلية منحنيًا على الطاولة منظفًا لأجزاء الآلة اللامعة ومصلحًا لها. ربما يبدو سلوكه مضطربًا لشخص آخر. لكن مفهوم الحرص والعناية لدى شخص يعيش في جزيرة تحتم عليك زراعة ما تتناوله أو جمع طعامك ووقودك ومائك، في طقس يتغير كل يوم فيصبح صديقًا ويغدو عدوًا كان شديد المنطقية.

لذلك لم أستغرب قط عناية أبي بالآلة لكنني انتظرت في ترقب متزايد الفرصة المثلى لألتمس طلبي. سارع الخريف سيره نحو الشتاء وبدأ الشعور بالبرد يحيط بالأجواء، كما أحسست بأبي ينطوي على نفسه كما تختبئ السناجب في جحورها. ثم في صباح أحد الأيام نظرت إلى الخارج لأرى عالمًا يكسوه الصقيع.

سألت أبي وهو يعي ما أقول ببساطة: اليوم؟

كان صبري قد نفد بعد انقضاء خمسة أيام من المطر الذي حجب عن الأشجار نورها والذي جعلنا حبيسي الكوخ، لكن السماء ذلك اليوم كانت صافية وكسا الصقيع عروق أوراق النبات المتساقطة وخطوط العشب العمودية: *حان الوقت*.

أحضر أبي الآلة من مكانها في حجرة المؤن.

- هلا صنعتَ لي واحدة هذه المرة، من فضلك؟

- هذه ليست لعبة يا عصفورتي الصغيرة.

- يمكن أن تصبح هذه هدية عيد ميلادي.

- يفصلنا عن عيد ميلادك الكثير من الوقت.

لكنني استطعت تمييز الضحك في صوته، وعرفت أنني أوشكت على نيل مرادي.

- إذن لتكن هدية بمناسبة قرب عيد ميلادي. أعدك أنني سأعتني بها.

نظر أبي نحو كتابه الجلدي حيث يدون ملاحظاته، وأحضر الآلة ليفعل ما يفعله دائمًا. توجه أبي وحملها لمكانها المعتاد وضغط على الزر، أمسك بالورقة الخارجة من الآلة ووضعها في زجاجة وأنا أشاهده بكثير من خيبة الأمل، فقد أعياني الانتظار.

لكنه حمل الآلة مجددًا. ظننته سيعيدها إلى مكانها لكنه ضغط على الزر مرة أخرى. تنفست الفتحات وخرجت ورقة بعد الطنين والأزيز المعتاد. لوح أبي بالورقة برفق في الهواء ثم أعطاها لي.

نظرت إليه في ذهول. كانت البسمة تغزو وجهه حتى عينيه الزرقاوين شديدتيِّ الصفاء.

- في أي الأدراج تودين أن نضعها؟ يمكننا أن نكتب اسمكِ عليها.

حملت الورقة إلى أنفي وشممتها، وكان كل ما استطعت استنشاقه هو رائحة دخان موقدنا المألوفة وما تبقى من رائحة الشوفان الذي أعددناه في الصباح.

لكنني امتلكت ورقة عبير تخصني وأصبحت على أتم استعداد لأن أصبر، فزجاجات العبير المختومة بالشمع الأحمر أوحت بما قد تؤول إليه الأمور ودب الحماس في جسدي. عزمت على ألا تُزج ورقتي في زجاجة أو أن تُخبأ في الجدار وأن أحتفظ بها آمنة في عتمة جيب معطفي وأن أحميها لكن وهي في يدي.

جالت الأفكار في خاطري. ترى ما العالم الجديد الذي سأحصل عليه؟ هل تنفذُ الأوراق إلى عوالم أخرى بشكل عشوائي؟ أم أنها تختار ما يناسبك؟ ترى ماذا ستظن بي الورقة؟

اندفع أبي بالسؤال: إيميلين؟

- لا أدراج.

- هل أنتِ متأكدة؟

تحركت يدا والدي بعصبية وهو يشاهدني أدس الورقة في جيب معطفي، ثم قال: سيكون عمرها أطول إذا وضعت في زجاجة.

- لكنني أرغب في أن أشمها وهي تتغير.

بدا الحزن على قسمات وجهه لكنني لم أدرِ ما السبب. ربما كان من الأجدر عدم محاولة العثور على السحر كما قصت القصص الخيالية دائمًا.

لكن هذا كان أمرًا مختلفًا، فقد أخبرت نفسي أن هذا في سبيل العلم. وقد تعلمت كشف الغموض باتباع المبادئ التي علمها لي أبي ونحن نسير في الغابة.

قيمي الوضع يا إيميلين، واحذفي المتغيرات، وحددي القرار الأمثل.

وحتى وإن كنت في العاشرة، فلم يكن العلم السبب الوحيد لاحتفاظي بالورقة.

***

كان صباح هذا اليوم باردًا، وظننت أن الهواء قد يوقظ العبير في ورقتي مبكرًا. لم أمتلك أدنى فكرة عن مدة تكوُّن العالم الجديد داخل الورقة، وما إذا كانت الروائح تسافر إليها من أماكن بعيدة؟ أم أنها كانت كامنة في الورقة بالفعل في انتظار الوقت المناسب للخروج؟

طقطق الصقيع تحت قدمي وأنا أهم بالانطلاق لرؤية ازدهار شجرة التنوب السيتكي[1] التي وقعت قبل عدة سنوات بسبب العاصفة، لتصبح محل ولادة عشرات من الشتلات الأفقية الرفيعة التي نبتت كعلامات تعجب بطول ساق الشجرة المتحللة. اتجهت صوب الشجرة رغم كون الغابة موحلة بفعل مطر اليوم السابق وبللت ركبتيّ سروالي. ظننت أنني إن صعدت أعلى فستلتقط الورقة العبير بسهولة أكثر.

وقفت على أطراف أصابعي وسط الحشائش الكثيفة بحذر لأتفادى الشتلات الصغيرة، ودسست يدي في جيبي. شعرت بحواف الورقة الحادة وجازفت بإخراجها في الضوء لكنني أقنعت نفسي أن الأشجار الكثيفة في هذا الطرف من الغابة ستحجبه عنها.

زفرت دافعة كل ما علق بأنفاسي من رائحة الغابة لأماثل نقاء الورقة العطشة للعبير الجديد. أحكمت قبضتي على الورقة لأحميها قدر ما أستطيع ثم سحبتها وقربتها إلى أنفي وشممتها.

لم أجد شيئًا ولم أشم غير رائحة الكوخ. دسست الورقة مجددًا في جيبي شاعرة بخيبة الأمل.

توقفت. وأدركت أنني لم أكن في الكوخ وإنما في الغابة. وهممت بشم طوق معطفي وشعري والجلد على يدي وذراعي لأتأكد أن الرائحة لم تنبع منها. بالطبع حملت هذه الأشياء ما تبقى من رائحة الحطب والدخان والقهوة، ولكن هذه الرائحة العالقة كانت ضعيفة وملتصقة بي علامة على المكان الذي أتيت منه، لكن العبير على الورقة كان مختلفًا ومتفردًا. أخرجت الورقة مجددًا وأغمضت عيني وشممتها بقوة هذه المرة.

بدأ عالم الغابة حولي في التلاشي وشعرت بأني في الكوخ وعادت رائحته إلى الحياة، حيث التفاح المجفف في حجرة المؤن، وسلة البصل في جانبه ورائحة دخان الغليون التي لا تمحى.

---

(1) نوع شجري يتبع الفصيلة الصنوبرية.

رفعت رأسي عن الورقة لتعود إليَّ رائحة الغابة المحملة بشجرة التنوب السيتكي العتيقة والحشائش المبتلة والشتاء. ثم عدت لأشم رائحة الورقة فإذا برائحة الكوخ.

وعلمت حينها أن ورقة العبير لم تكن خالية من الرائحة على الإطلاق.

***

جريت إلى فناء الكوخ وأنا أخرج الورقة من جيبي وحين وصلت الكوخ وجدته فارغًا. لحسن الحظ بدا أن أبي ذهب في إحدى رحلات بحثه عن الطعام.

فكرت في استغلال الوضع واختبار نظريتي قبل أن أخبره. لذلك، رفعت ورقة العبير إلى أنفي. وجدت رائحة الكوخ تمامًا كما كانت في الغابة. وسار كل شيء على ما يرام. أعدت الورقة مجددًا إلى جيبي وأخذت نفسًا عميقًا.

اهتديت إلى أن رائحة الكوخ قد أصبحت مختلفة عن رائحة ورقة العبير. كنا قد فقدنا إحدى أشجار التفاح العام الماضي وأصبحت أخشابها جافة بالقدر الذي يمكننا فيه استخدامها كحطب. استحال عليَّ أن أُخطئ رائحة خشب التفاح الحلوة العطرة. لم نكن قد أشعلنا بها النار حين خرجتْ، لكنها كانت الآن في الموقد، تعزف روائحها ألحانًا لا مثيل لها. أخذت نفسًا عميقًا ثم زفرت وحملت الورقة إلى أنفي وتأكدت حينها من اختلاف رائحة الورقة عن الكوخ.

توجهت إلى أرفف الأدراج السفلى وفتحت أحدها جزافًا. كانت يدي تهتز ثم أزلت ختم الشمع الأخضر عن الزجاجة في داخله.

أخبرت نفسي أن هذا في *سبيل العلم*.

قبضت على ورقة العبير بكل قوتي حتى لا تتطاير رائحتها. وجدت رائحة الورقة مختلفة نوعًا ما، ثم هممت بفتح زجاجة تلو الأخرى وأنا أشم أصنافًا مختلفة من رائحة الحطب وعبق المحار الصدفي الطازج والمجفف وقطوف التفاح اليانع والطين على حذائي وأوراق الخريف حين المطر. بالطبع كانت روائح العبير مختلفة طوال هذا الوقت لكنني كنت مشغولة بالبحث عن عالم جديد لم أعرفه من قبل. لكن عبير تلك الأوراق لم يكن غريبًا قط عني.

فقد حملتْ عبير الذكريات.

***

أعدت ختم الزجاجات بإذابة الشمع الأخضر، كما اعتدت رؤية أبي يفعل، وبالطبع لم أماثل مهارته لكنني أمُلت ألا يُخرِج أيًّا من تلك الزجاجات قريبًا.

عندما عاد أبي كنت في انتظاره جالسة على المقعد قرب الموقد الخشبي.

قلت بانتصار: أعلم ما هي.

- عمَّ تتحدثين؟

- عن أوراق العبير.

هم أبي بخلع قبعته ومعطفه فلم أستطع رؤية ملامحه.

- إنها ذكريات.

توقف أبي ومعطفه معلق بالكاد على حمالة الملابس.

وسأل بنبرة العالم الفضولي: ما الذي دفعكِ لتعتقدي ذلك؟

قلت: حسنًا.

وبدأت بالشرح وهو يستمع ووجهه خالٍ من الانفعالات ثم بدا عليه الاهتمام، ثم أومأ برأسه بانتباه حين هممت بشرح كل خطوة من خطوات نظريتي.

عندما انتهيت هنأني قائلًا: أحسنتِ صنعًا يا عصفورتي الصغيرة، أنا فخور بكِ.

أحسست بشذا كلماته يسري إلى أنفي، ووددت لو حملتها معي إلى الأبد... أن أوقف الزمان عند هذه اللحظة الحانية. لكن استرعى انتباهي سؤال آخر شغل بالي منذ أن عرفت حقيقة أوراق العبير.

قلت مشيرة إلى الروائح السحرية في الرفوف العليا: هل هذه خاصة بجاك إذن؟

أجفل أبي ثم أومأ برأسه قائلًا: نعم.

- هل سيعود يومًا لأخذها؟

التفت أبي لينظر إلى جدار الأدراج ثم قال: لا، ومهمتنا الآن حمايتها.

فكرت: مم يجدر *بنا حمايتها؟* فلم يكن على الجزيرة غيرنا. هممت لأسأل أبي عما يعني لكنه عاد إلى الخارج مجددًا ليجمع مزيدًا من الخشب لإشعال النار.

الهدية

لم أستطع التفكير في شيء سوى أن أصبح إحدى صيادي العبير، فإن كانت ذكريات جاك محفوظة في أوراق العبير المختومة بالشمع الأحمر، فلا بد وأنها قد أتت من عوالم عجيبة خارج حدود جزيرتنا، فصيادو العبير وحدهم هم من يستطيعون اكتشاف تلك العوالم. لم أعلم على وجه اليقين ما إذا كنت أستطيع الذهاب إليها لكنني أردت أن أكون مستعدة.

طلبت من أبي: علمني أن أصبح مثل جاك.

توقف أبي للحظة وشعرت بنظرة الحزن في عينيه لكنه مسح على رأسي وقال: حسنًا يا عصفورتي الصغيرة، أحضري معطفكِ.

ذهبنا إلى منتصف فناء الكوخ، حيث حديقة الخضراوات قبالتنا تسكن في وداعة في انتظار الشتاء، والدجاج ينقنق بهدوء في القن على مقربة. وعلى مرمى البصر، بدت الغابة خلف القن بكل سحرها. وقف أبي ساكنًا للحظة.

- حسنًا، اعثري لي على بيضة طازجة لكن وعيناك مغمضتان.

قلت وأنا كلي أمل أنظر نحو الأشجار: في قن الدجاج؟

ابتسم أبي وقال: بالطبع فهناك يوجد البيض.

بدا قن الدجاج مكانًا عاديًا جدًا ليكتشفه صياد العبير لكنني أغمضت عيني وأسلمت نفسي لصوت نقنقة الدجاج ولحديثها معًا ولصوت اصطكاك مخالب

سنجاب بإحدى الأشجار ولأغاني طائر نمنمة الشتاء[1] الصافية العذبة. ثم سمعت صوت قفل قن الدجاج يُفتح ووجهني أبي إلى الداخل.

- خذي نفسًا، ولا تنسي أن يكون تنفسكِ بطيئًا في البداية.

دخل الهواء إلى أنفي كالتيار المنخفض وشممت الرائحة النفاذة لسماد الدجاج والعشب الجاف العبق بذكرى الصيف.

- الآن، لا تركزي على أنفكِ وأطلقي لخيالكِ العنان واستمعي إلى القصة.

استنشقت مجددًا ببطء وبقوة وشعرت بالروائح تغزو رأسي بحدة وكأنني أراها رؤيا العين وأطوف بينها. شممت رائحة الماء العطن في الإناء وروائح الدجاج الكريهة وهو يتحرك باحثًا عن مكان يقف به. انتظرت وأنا أفكر ماذا تشبه رائحة البيض الطازج وأذنت لرائحة الأرض الرطبة خارج القن والدخان المتصاعد من مدخنتنا أن تسري إلى عقلي. ثم صببت تركيزي مجددًا على المهمة كما يفعل جاك.

ها هي ذي. بدت رائحة جديدة ناعمة صغيرة وسط كل الروائح الكريهة. كان عبيرها ثابتًا بعكس رائحة الدجاج كصخرة تقف بشموخ في وجه الشمس.

مشيت بحذر وعيناي مغمضتان في أنحاء القن والرائحة تدعوني إليها كمنارة في وسط الظلام. حركت يدي في أنحاء العشب الجاف بينما اصطدمت إحدى الدجاجات بركبتي فحركتها بلطف جانبًا وخفضت يدي بحثًا. *ها هي ذي*.

خرجت من القن وأنا أحمل البيضة وابتسامتي تغمر وجهي فقد أصبحت صائدة عبير تمامًا مثل جاك.

قال أبي مبتسمًا: هذه هي الطريقة.

وجدت بيضة أخرى أسرع هذه المرة، ثم طهونا البيض على الفطور.

سألت أبي بعد الأكل: ما مهمتي التالية؟ لقد كانت هذه المهمة سهلة جدًا.

صوب أبي وجهه نحوي وقال: اعثري على أول أيام الربيع.

***

---

(1) طائر مغرِّد صغير.

تطلبت هذه المهمة الصبر أكثر من غيرها فالشتاء كان في أوله وبدا الربيع ضربًا من الخيال. أثَّر الشتاء بنهاره المظلم ومطره على مزاجنا وأصبح الجو باردًا والأرض مبتلة، وحضرت العواصف وعوت الرياح وألقت الأشجار أغصانها على سقف الكوخ. لم يكن الشتاء مناسبًا لاصطياد العبير فروائحه كانت حزينة تعصف بها النار أو تختبئ تحت ظلال الأشجار. ومع ذلك، ارتديت معطفي كل يوم وذهبت للاصطياد وقلت لنفسي إن جاك كان سيفعل المثل.

وبالفعل وجدت العديد من الروائح أكثر مما تخيلت؛ فالمطر والضباب حملها لكل مَن يأتي بحثًا. لم يتساقط الثلج على جزيرتنا، لكنني شعرت بشوق عودة الحياة في كل مرة ذهب فيها البرد وأتى المطر كما يأتي المد ويذهب الجزر. شعرت بالأشجار تهمس: هل حان الوقت بعد؟

أصبحت الأيام أقصر فأقصر حتى استقام المنسم[1] وعاد الأمر إلى ما كان. شممت رائحة التغيير أشبه بتقلب النائم قبل الاستيقاظ في الصباح وكشد أوتار الجاذبية ليغير المد اتجاهه ويجذب السابح نحو البحر.

***

في أحد الأيام أيقظتني رائحة جديدة مألوفة تأتي من الباب الأمامي. كان أبي يخبرني دائمًا بأن يوم ميلادي يوافق أول يوم من الربيع. لم يوافق يومًا بعينه في السنة، وإنما وافق شعور الدفء الذي يحيي الأرض بعد سبات، عندما يفوح عبق زهرة البنفسج اليانعة في الهواء كما أسماه. أخبرني أبي ألا أكترث إن عاد الشتاء يطرق الأبواب، فهذا أمر يحدث طوال الوقت. فلم يكن هناك ضير من الاحتفال أكثر من مرة، لكنني دائمًا حسبت عمري وفقًا لأول قدوم للربيع. سأصبح في الحادية عشرة إذن.

دلني أنفي أن أبي لم يكن في الكوخ لكنني سمعت وقع أقدامه تقترب من ممر الكوخ يخالطها صوت آخر أوضح وأسرع. اندفعت نزولًا على السلم واجتمعت الأصوات معًا على عتبة الباب، ثم رأيت أبي يقف بالباب ممسكًا طوقًا عُقد باتساع حول رقبة عنزة سوداء جميلة لها حافر أبيض.

---

(1) تبيُّن الطريق، يقال: رأيت منسمًا من الأمر أعرف به وجهه: أي أثرًا منه وعلامة.

قال أبي كما لو كان العثور على عنزة أمرًا معتاد الحدوث: انظري ماذا وجدت. لقد كنا نعيش في جزيرة يحيطها الماء وكانت الأشياء الجديدة الوحيدة التي تصلنا تظهر سحريًّا في صناديق بلاستيكية سوداء، لكنني رأيت أبي يمسك طوقًا يلف رقبة عنزة بلا اكتراث.

- عيد ميلاد سعيد.

نظرت إليَّ العنزة بعينيها الصفراء اللامعة الذكية.

خطوت نحو العتبة وقلت: أنا إيميلين.

رفعت العنزة حافرها الأبيض في الهواء كما لو كانت تأمرنا أن ننحني لها. دنوت منها فخفضت حافرها واقتربت مني واضعة أنفها على شعري لأربت عليها.

قال أبي: إنها كليوباترا بحق.

نظرت العنزة إليه وهي تميل رأسها.

سألته وأنا أمرر يدي على شعر العنزة المشدود القصير على ظهرها: من؟

حكى لنا أبي عن ملكة في قديم الزمان لبلد بعيد ارتحلت في قوارب مفروشة بأوراق الورد وحمامات المسك.

***

بمرور الوقت، أطلقنا على العنزة كليوباترا لقب كليو. ناسبها الاسمان؛ فقد استحقت أحدهما لصغر سنها والثاني لتطلعها للمجد كما قال أبي؛ فقد أصبحنا رعاياها من أول لحظة.

همَّ أبي بصنع حظيرةٍ لكليو أو قصرٍ كما أسماه.

- إن مهمتكِ أن تكوني مرشدتها في الجزيرة.

- وحدي؟

قال أبي مبتسمًا: لقد كبُرت سنكِ ولن تكوني وحدكِ، أليس كذلك؟

ثم قال بنبرة حازمة: ليس هناك ما يؤذيكِ هنا، لكن عديني بعدم الذهاب إلى الشاطئ.

قلت بصدق: أعدك.

كانت فكرة الطواف بحرية بالجزيرة وكليو معي أفضل مما تخيلت، وكنت على أتم استعداد للالتزام بأي قيود تفرض عليَّ.

بمرور الأيام، كنت أنطلق أنا وكليو حال انتهاء جمعي للطعام أو البستنة أو انتهاء دروسي. في البداية أبقيت الطوق حول عنقها ومع مرور الوقت أصبح من الواضح أنها ستتبعني حيث ذهبت، لكن الحقيقة هي أنني اتبعتها هي حيث ذهبت. سارت كليو دائمًا في الطليعة لكن ليس أكثر من أربع خطوات لتتأكد من وجودي خلفها.

اعتدنا اقتفاء كل دروب الجزيرة حتى أن بعضها كان شديد الاستتار فلم أره من قبل، وكنت قد ظننت أننا اكتشفناها كلها حتى وجدت فراغًا صغيرًا بين بحر من حشائش شجيرات الصلال التي نبتت بين الأشجار. عادة يستحيل اجتياز الفروع القوية دون منجل، لكن أحدًا قد شق طريقًا وبدا واضحًا في فجوة من الطريق أمامنا. شقت كليو طريقها بثقة وجلدها الكثيف غير عابئ بالحواف الحادة للأوراق وبدا الممر مفتوحًا خلفها. اتبعتها بتوجس خوفًا من أن تطبق خلفنا الشجيرات ولا نستطيع العودة إلى المنزل لكن كليو كانت عازمة على المسير ولم أستطع العودة دونها.

بعد مضي الوقت سمعت صوت ارتطام الماء بالصخور عن بعد. كانت الأمواج أقوى لا تشبه الحركة اللطيفة للمد نحو بحيرتنا. مضيت أنا وكليو نحو آخر بقعة من الخضار لنصبح على حافة من الصخور التي نحتتها الرياح على اتساع عشرة أقدام، والسماء لا تنتهي في الأفق. اقتربنا قليلًا من حافتها وحدقنا إلى البحر الجزر الذي لا ينتهي ثم إلى الماء أسفل.

لم أقطع قط مسافة كهذه. لم أدرِ فيما أفكر بشأن هذه المساحة، وشعرت بقدرتها على التهامي. عدت أدراجي خطوة تلو الأخرى حتى وطئت بقدمي أرض الغابة المبللة. نظرت خلفي لأجد مقعدًا شبه متداعٍ أعياه المطر والوقت مثبت بنهاية الغابة.

فكرت، *لقد صنعه الرجل الذي سكن الكوخ قبلنا.*

انحنيت ولمست سطحه المتداعي وتأملت سبب جلوس ذلك الرجل في هذا المكان الفسيح ناظرًا إلى ما قد فر منه. ترى ماذا يوجد هناك؟

بقيت أنا وكليو على الجرف طويلًا ثم عدنا أدراجنا إلى الكوخ. لم أخبر أبي ما اكتشفت خوفًا من أن يمنعني من العودة. لم أكن متأكدة من شعوري إزاء المكان، لكنني تأكدت أن أبي لم يُرني المكان قط، وبدا لي جهله به مستحيلًا، فأبي يعرف كل شيء. بعد ذلك اعتدت أنا وكليو الذهاب إلى الجرف يوميًّا، وبمرور الوقت تحول خوفي إلى فضول. اعتدت إحضار غداء لي ولكليو والجلوس معًا قرب الحافة نشاهد سطح الماء مترامي الأطراف. شاهدنا أحيانًا حوتًا أو سربًا من الدلافين أو قطعًا من الخشب تسبح على مرمى البصر. كما شاهدنا أحيانًا عبور قارب بمحرك يصدر طنينًا كحشرة عملاقة غاضبة. على الجرف أضعت الخيط الفاصل بين الحقيقة والخيال؛ فقد شاهدت هذه الأشياء في الصور التي كانت في كتب أبي العلمية أو مجموعة القصص الخيالية. واختبأْت من القوارب أكيدة من أنها حملت القراصنة.

لكن في إحدى المرات شاهدت فتى، بدا في مثل سني، ذا شعر أصهب، يقف على ظهر قارب صيد. عدت أنا وكليو كل يوم في الأسبوع التالي، لكننا لم نره مجددًا، وهو ما جعلني أفكر *ترى أين يقع منزله*؟

في ذلك المساء على العشاء سألت أبي: لماذا نحن هنا يا أبي؟ لِمَ لا يوجد غيرنا على متن جزيرتنا؟

ترك أبي الشوكة من يده وأجاب بقول ظن أنه يفسر كل شيء: لأن الناس يكذبون يا إيميلين والعبير لا يكذب أبدًا.

ألححت في سؤالي وقلت: جميع الناس؟ ماذا عن جاك؟

قال أبي وعلى وجهه أمارات الغضب: وحتى جاك كذلك.

لم أسأل عن المزيد لكنني تأكدت حينها بأنني سأُبقي ممر الجرف سرًّا عن أبي، فقد كان سري كما كان لأبي أسراره.

***

مر الوقت واقترب ربيع آخر. بلغت الثانية عشرة وصارت رجلاي ويداي أكثر قوة مثل الشتلات القوية النحيفة. استطعت حينها عند الذهاب إلى البحيرة الإمساك بالمحار في الماء وهو يتطاير، وكذلك الحفر بعمق في الرمال لإيجاد

الأصداف بنفسي. كما تمكنت من إشعال النار باستخدام المثقاب القوسي[1] وحفنة من الأعشاب الجافة، وكذلك إخراج البرنقيل من الصدفة باستخدام سكين وأنا أعد حتى اثنين. أصبحت سلة طعامي دائمًا ممتلئة كسلة أبي، وبمرور المزيد من الوقت استطعت أحيانًا ملأها وحدي أثناء عودتي من مغامراتي في الغابة مع كليو.

اعتدت أنا وكليو الجري على سطح الأشجار المتساقطة ويداي مبسوطتان على جانبيَّ، بينما كانت حوافرها تقودها بثبات وثقة. لكنني أردت أن أكون على ارتفاع أكبر. بدأتُ تسلق الأشجار فرعًا تلو الآخر كأنني جاك صائد العبير. ميزت أحيانًا -وأنا أتشبث بأعلى فروع الأشجار دائمة الخضرة وإبرها تشوكني بلطف- رائحة خبز ضعيفة على بعد، أو ما تبقى من رائحة العوادم السوداء التي خلفتها القوارب كقصص لم يروها أبي لي قط من عالم لم أره مطلقًا. اعتدت رفع جسدي في الهواء وأنا أحس بالفروع تنثني تحتي، ولم يزدني ذلك إلا اضطرابًا ووحدة أكثر مما مضى، لكن كليو بقيت هناك لأجلي دائمًا كلما نزلت.

علَّمني أبي تقليم حوافر كليو وتفريشها، وأحببت إيقاع يدي وهي تتحرك على ظهرها القوي وقرضها لي في أثناء ذلك. في المساء اعتدت سماع ثغائها في الحظيرة. فالعنز يحب الاجتماع معًا مهما كان الطقس كما قال لي أبي. لذلك اعتدت الانتظار حتى ينام ثم أتسلل نزولًا على السلم ذهابًا إليها لأضمها إليَّ حتى تهدأ. كنت أغط أحيانًا في النوم فلا أستيقظ حتى يشرق الصباح.

كان يؤرقني أحيانًا في تلك الليالي وجود الكثير من الأسرار التي تحول بيني وبين أبي. لكن الاستلقاء ورأسي على خاصرة كليو بجسدها الدافئ المكتنز أشعرني بالرضى، وأن الحياة لا تقتصر على شخصين فقط. لذلك لم أُحدث أبي عن شيء.

(1) أداة عتيقة كانت تستخدم عادة في إشعالِ النار.

العبير

أصبح أبي أكثر هدوءًا في الصيف الذي بلغت فيه الثانية عشرة، واختفت قصصه، حتى وإن كان يفصلنا وقت طويل عن قدوم الشتاء. لم يعد يسألني عما اكتشفته أنا وكليو، ولم يُصرح قط بما كان يفعله حال غيابي. أدركت أحد الأيام أنني لم أعد أجد سلة ممتلئة بالطعام على الطاولة منذ وقت طويل.

لكنني كنت مغتبطة بكليو، وفكرت أن أبي لن يخبرني بشيء حتى وإن سألت. وفي أحد الأيام، دخلت إلى الكوخ لأجد أبي يحمل إحدى أوراق العبير بيده واقفًا قبالة موقد الخشب وبابه مفتوح. رأيت زجاجة فارغة على الطاولة وحلقة من الشمع الأحمر تتشبث بغطائها.

- ماذا تفعل؟

أغلق أبي باب الموقد وجلس بثقل على دكة الطاولة وقال: إنه يختفي.

- ماذا؟

- العبير، إنه يختفي.

قلت وأنا أفكر أن العيب قد يكون في حاسة شمه: دعني أشم.

لكن العيب لم يكن في حاسة شمه فلم تكن هناك رائحة عندما رفع أبي الورقة إلى أنفي.

سألته محاولة تطبيق المبادئ العلمية التي علمها لي: كم مضى على اختفائه؟

- لا يهم، لن يغير هذا شيئًا، لقد كنت أتفقده منذ أسابيع، لقد اختفى العبير من الرف الأعلى تقريبًا.

أحسست بالخيانة في البداية، لأنه كان يفتح الزجاجات دوني، ثم أجفلت لاختفاء العبير.

فكرت في الزجاجات في الأدراج العليا والعوالم التي تحويها والتي بعثت في نفسي شعور الطيران أو السباحة أو الضم لحضن دافئ لا مثيل له. كنت دائمًا أشعر أنني أسمعها تتهامس فيما بينها حين خلدت للنوم. ترى متى سمعتها آخر مرة؟ فقد اعتدت مؤخرًا قضاء الليالي كلها تقريبًا في حظيرة كليو. ربما بدأ عبير الأوراق في الاختفاء منذ وقت طويل، وربما قد كان يتساءل إلى أين ذهبتُ ولهذا اختفى.

سألت أبي مشيرة إلى موقد الخشب: ماذا تنوي أن تفعل؟

قال وهو ما زال يحمل ورقة العبير في يده: سوف أحرقها.

صدمني عنف الفكرة: لماذا؟

- إن بعض أول العطور الذي صنعها الإنسان، صنعت لتُحرق. «بير *فوماري*» (*Per fumare*) - عبر الدخان. لقد كانت طريقة للتواصل مع الإله، وأنا أردت أن أرسل العبير من حيث أتى.

- لكن ماذا إن وجدنا طريقة لاستعادته؟ ألن يود جاك منا أن نحاول؟

أدار أبي رأسه نافيًا: هذا مستحيل.

قرأت الاستسلام في وجهه، وأنه قد تخلى عن شيء ما، وإن لم تكن لدي أدنى فكرة عن شكله أو أصله. لكن كل ما عرفته هو أن أبي كان يشعر بالألم.

قلت: لنحرقها إذن.

ذهبنا إلى موقد الخشب وفتحنا بابه ووقفنا ننظر إلى النار. توقف أبي وبدا منطويًا على نفسه للحظة ثم ألقى بالورقة إلى النار. شاهدنا ألسنة اللهب تلتهم حوافها ثم تقبض عليها باعثة الضوء، ثم استحال لونها إلى السواد. انبعث دخان أزرق صافٍ فاق صفاء السماء والماء وعيني أبي. ثم شممنا العطر.

كانت الرائحة قوية ونفاذة ولامعة بدرجة لم تماثلها ورقة العبير. لم تفتح لي تلك الرائحة نافذة على العالم الذي أتت منه وإنما بعثت عبير عالمها بأسره. أغمضت عيني، واختفى الكوخ بجدرانه، وأحسست بالمذاق الحلو للعشب المقطوع

للتو، المتوهج للزهور المورقة البيضاء، الحادة السريعة، المغبرة الناعمة كنعومة الذكرى نفسها وامتزجا معًا كألحان الطيور. رأيت نور الشمس يغدق على العبير بدفئه وأحسست به على جلدي وأحاطني بطريقة تفوق تمامًا حرارة الموقد. وقفت أستنشق ذلك كله... ولم أشعر قط بالرضا بقدر ما شعرت وقتها.

لم أشعر بمرور الوقت، ولكنني شعرت بالعبير يخفت شيئًا فشيئًا حتى لم يتبقَّ سوى المطر في الخارج ورائحة التبغ العالقة.

قال أبي وعيناه ممتلئتان بالدموع: آه.

ثم توجه نحو النار كما لو كان يود استعادة الورقة. لكنها ذهبت بلا رجعة.

***

تغيَّر أبي بعدها؛ كان دائمًا مأخوذًا بالزجاجات، وأثَّر فقدانها فيه. زاد التوتر داخل الكوخ حتى بدت رائحته كثيفة وحارة. راقبت عيني أبي، اللتين كانتا مثبتتين على الأدراج العليا مهما كان الشيء الذي نفعله. وعندما كنا نخرج لجمع الطعام، يسارع أبي عائدًا إلى الكوخ أبكر وأبكر تاركًا نصف ما قد نجمع من الطعام على الشاطئ. في ظهر أحد الأيام، أدرك أبي أن الإنكار لن يجدي نفعًا أكثر من ذلك، فأحضر إحدى الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر وأزال الختم من عليها ثم فتح باب موقد الخشب.

- حسنًا.

***

بدا أبي مرتاحًا في بعض الأيام التي تلت إحراق أوراق العبير، لكن الكرة عادت من جديد وتسارعت وتيرتها في كل مرة واختفى السكون الذي أعقبها أسرع وأسرع، وزاد التوتر أكثر. قبل أن ألاحظ، خسرنا الرف العلوي بأكمله. كنت قلقة مما سيحدث إذا لم يتبقَّ له سوى تلك الزجاجات التي لم تحوِ سوى صور أقدم من حياتنا.

- لِمَ لا نصنع أوراق عبير جديدة؟ يمكننا أخذ الآلة إلى الخارج، ويمكنني أنا وكليو أن نريك الأشياء التي اكتشفناها.

لقد كنت مستعدة أن أبوح له بأسراري كلها وأن أخبره حتى عن الجرف المطل على العالم، لكن أبي أدار رأسه نافيًا.

قلت وأنا أشير إلى الرف الثالث من الأعلى: ماذا لو صنعنا أوراق عبير جديدة منها؟ أن نبدأ من جديد.

نظر أبي إليَّ والأمل يتراقص في عينيه. وللحظة أصبحت أنا ابنته إيميلين التي أحب أكثر من أي شيء.

- حسنًا، لنجرب.

أخذ أبي إحدى الزجاجات وأمسك بها للحظة ثم أزال ختمها الأحمر بالطريقة التي حفظتها عن ظهر قلب، ثم أخرج الورقة من داخلها. لم نستطع شم الرائحة كما ظننا، لكن كان لدينا خطة الآن. وخطونا معًا إلى الموقد.

قال لي أبي مناولًا الورقة: أمسكي بها.

وضعت الورقة الخفيفة ذات الأسرار المكتومة في راحة يدي. كانت هذه فرصة الورقة الأخيرة لتعبر عما في داخلها إلا لو نجحنا في التقاطها مجددًا.

أحضر أبي الآلة وفتح الغطاء كاشفًا عن الفتحات.

- الآن.

ألقيت الورقة في النار فتفجَّر عبير الورقة الغض بحلاوة الزهور والغني بالدفء الندي وتصاعد الدخان من حوافها والحرارة تلتهمها. ضغط أبي على زر الآلة وانتظر بقلق خروج الورقة الجديدة من الفتحة. هز أبي الورقة كما يفعل دائمًا ثم حملها فاردًا ذراعه حتى تطاير الدخان، ثم فتح النوافذ ليدخل الهواء المنعش فعاد إلى الكوخ رائحته المعتادة. أخيرًا، رفع أبي الورقة إلى أنفه واستنشقها.

قرأت الأمل يتحول إلى حنق في قسمات وجهه.

قال وهو يناولني الورقة: لا.

شممتها وهممت بالانغماس في العبير الزهري، لكن أتت رائحة التبغ ممزوجة به، وكذلك دخان خشب الأرز وعشاء الليلة الماضية ورائحة جسدي.

- لا يصح هذا.

هممت بسؤاله عما يضير بعبير يحمل رائحتي معه لكنني أدركت أنني لن أود سماع الإجابة، إن هو أجاب أصلًا.

وبعد ذلك، ظلت الآلة على الرف.

الشاطئ

أعاد أبي الزجاجات الفارغة ثانية إلى الأدراج لتبقى في انتظار المجهول. قضيت وقتي في الخارج قدر استطاعتي. فلم أحتمل إطباق جدران الكوخ عليَّ.

أردت الذهاب إلى البحيرة أكثر من أي مكان آخر، لكنني كنت قد وعدت أبي عندما وصلتْ كليو ألا أفعل. وقد علمتني القصص الخيالية أن إخلاف الوعد عواقبه وخيمة.

ولكن بعد مرور أسبوع بدأت أفكر في جدوى ذلك الوعد، فقد كان أبي ينطوي على نفسه وبالكاد يترك الكوخ، حتى إنني احتجت إلى تذكيره بضرورة الاعتناء بالحديقة والدجاج. كما اقترب حلول الخريف وكنا في حاجة إلى جمع السمك والمحار وأعشاب البحر التي وجدت على الشاطئ وتجفيفها حتى نستطيع مجابهة الشتاء. لكن أبي لم يُبدِ أي استعداد للذهاب بنفسه.

قلت لأبي في ذات صباح وأنا أمسك بالسلة: جامعو الطعام، هيًّا! أليس ذلك يا أبي.

لكنه لم يقل شيئًا ثم أدار رأسه رويدًا نافيًا. فهمت أن أبي لم يستطع ترك الزجاجات.

حينها قررت أن أرعى أنا شؤوننا إن لم يفعل هو. وحملت السلة وانطلقت وأنا أصفر لكليو التي تبعتني فورًا. وعندما وصلت إلى مفترق الطرق البعيد عن مرأى الكوخ، اتجهت إلى البحيرة.

لقد كان يومًا جميلًا. شممت رائحة الطين والأشجار اليانعة حولي بعد مضي صيف من النمو المزدهر. كان بإمكاني جمع التوت بوفرة، لكنني ركزت أنظاري على الشاطئ وتجاهلت الطنين المزعج في أذني الذي لا يتوانى فضول أنفي عن إصداره، وذكَّرت نفسي بوضوح أننا بحاجة الطعام وأنني وحدي من سيجمعه الآن.

ومع ذلك، توقفت عندما وصلت إلى الحد الفاصل بين الأشجار والرمال. لقد كانت البحيرة غزيرة وكبيرة والسماء تكسوها في الأفق. شعرت بانكشاف ما أفعله ولم أستطع حتى أن أتوارى عن أنظار السماء. ترددت للحظة ثم هممت بالعودة لكن كليو لم تشعر بتأنيب الضمير الذي انتابني وسارعتْ إلى الرمال.

- كليو، عودي إلى هنا.

لم تستمع كليو إليَّ، وكلها سعادة بالرمال والماء وبالجري في المكان الفسيح، كان الشاطئ مكانها المفضل على الجزيرة، الذي لم تمضِ فيه قدر ما تتمنى من الوقت. لذا، تراقصتْ فرحًا تاركة آثار حوافرها الصغيرة على الرمال المبتلة. تراقصت المياه خلفها في وهج الشمس عاكسة صورة مماثلة لسعادتها. كانت القناة غزيرة ومزبدة، إيذانًا برفع جسر القلعة.

ذكرت نفسي أن لا شيء يستحق الخوف، وأن أبي كان قلقًا أكثر من اللازم. وطئت الرمال بقدمي وتركتها تنسل بين أصابعي. مر علينا قبلها طقس كان يكسوه الضباب، لذا حولت زرقة السماء فوقي ترددي إلى نشوة. أخذت قضمة من الهليون البحري ومضغتها بأسناني، ثم استلقيت على صخرتي المفضلة، والتي غدت دافئة بفعل حرارة الشمس. وأحسست بصلابتها على ظهري. أغمضت عيني وشعرت بضوء الشمس يتراقص على جفوني. حدثت نفسي أن باستطاعتي جمع الطعام بسرعة من الأعشاب البحرية الوفيرة على الشاطئ.

لم أدرِ كم مر من الوقت عندما أيقظتني زمجرة صوت رخيم، فانتفضت ناظرة حولي. بدا كل شيء هادئًا كما كان لكنني رأيت شيئًا لم أرَ مثيلًا له من

قبل. لم أستطع سوى التحديق بملأ جفوني وبدا الصوت أقرب فأقرب وهو يمخر عباب القناة.

- كليو!

أجابتني هذه المرة. وجرينا بسرعة إلى الغابة في تمام الوقت الذي دخل فيه القارب إلى البحيرة.

كنت قد شاهدت قاربًا من قبل، خلال الوقت الذي أمضيته على الجرف، وبدا عن بعد أشبه بالطيور التي تتقافز بود على صفحة الماء. لكن ضجيج هذا القارب القريب كان هائلًا. امتلأت الأجواء بعبق القارب، كثيفًا وناعمًا، طاغيًا على رائحة الملح والرمال. استطعت من مخبئي رؤية رجل في مقدمة القارب.

ظننته *قرصانًا* وسرت في جسدي القشعريرة.

زمجر القارب حال عبوره القناة وسكن الصوت عند وصوله إلى المياه الضحلة. ارتجفت الأشجار حولي إثر السكون المفاجئ. ووقف الرجل باعتدال كما لو كان يستمع هو أيضًا. راقبته من وراء شجرتي وأنا أحاول أن أختفي عن الأنظار. بدا رجلًا صغيرًا نحيلًا قوي البنيان وظهر شعره الأبيض من تحت قبعته الحمراء اللامعة. حين ركزت، استطعت أن أميز رائحة جسده المختلفة عن رائحة أبي ورائحة شيء يشبه عجينة الخبز.

قفز الرجل إلى الماء من على جانب القارب وأمسك حبلًا من مقدمته وشده حول إحدى الصخور الكبيرة ثم ربط القارب بسهولة وجدارة، ثم ربت على سطح الصخرة المتجعد. لم يشبه القراصنة الذين قرأت عنهم على الأقل.

ارتعدت إلى جانبي كليو من فرط الحماس، فأمسكت مؤخرة رأسها بإحكام محاولة تهدئة كل منا، لكنها استطاعت أن تفلت مني بحركة سريعة من رأسها ووثبت إلى الشاطئ نحو الرجل.

قال لها فاتحًا ذراعه: ديزي!

جرت كليو نحوه وشاهدت باندهاش انحناء الرجل مربتًا على مقدمة رأسها.

- انظري إليكِ، لقد أصبحت فتاة كبيرة الآن، لا بد أنهم يطعمونكِ جيدًا.

ثغت كليو فرحًا بتربيت الرجل على مقدمة رأسها بقوة أكبر وقال لها: اخفضي صوتكِ الآن فهناك دب يسبح في المياه العميقة ولا نريد أن ندله على مكانك.

تفحص الرجل محيط الشاطئ باحثًا عن شيء ما، عني مثلًا. *إنه* يبحث عني. تجمدت في مكاني كالأشجار الواقفة، ثم بدا وكأن الرجل يستمع إلى شيء ما خلفه فألقى نظرة على القناة. عادت الحركة إلى القناة مجددًا وظهرت أولى الأمواج على سطحها فوقف الرجل في مكانه.

- يجدر بيَ الذهاب، فالمد يتغير.

ذهب الرجل إلى القارب وأخرج شيئًا منه. أدار ظهره لي فلم أستطع رؤية ما يحمله لكنني عرفت من ميل أكتافه أنه لم يكن خفيفًا.

شاهدته وهو يفرغ حمولته أعلى من علامة ارتفاع المد بقليل حيث امتدت خيوط أعشاب البحر بجنون. اعتدل واقفًا ثم فحص الشاطئ مرة أخرى. ثم زفر مربتًا على ردف كليو: اذهبي إلى المنزل الآن.

وفك الحبل وشغل القارب متجهًا نحو الماء المزبد في القناة.

انتظرت حتى لم يعد بإمكاني سماع المحرك، قبل خروجي من مخبئي. جرت كليو نحوي وهي تحك يدي لكنني لم أربت عليها. وقفت في مكاني محدقة بعلامة ارتفاع المد وبالصندوق البلاستيكي الأسود القابع بين الأعشاب البحرية.

كان هذا أمرًا يفوق التصور فلم يكن الرجل من حوريات البحر ولم يكن هناك حفل.

لم أستطع فهم ما جرى.

وفجأة بدا كل شيء واضحًا. وتغيَّر كل شيء ببساطة.

الكذبة

أتعجب أحيانًا كيف صدقت بوجود حوريات البحر. فأنا لم أصدق قط مثلًا في شيء مثل أرنب الفصح. فأنا أعرف الكثير عن الدجاج ولمن يسمحون بأخذ بيضهم منهم. ومع ذلك، فقد رأيت الزهور تتحول إلى ثمار يانعة كتحول القش إلى ذهب. وكيف تموت شقائق النعمان ثم تحيا بعد موتها مع كل دفقة للمد. كما أخبرني أبي أن تلك الأصداف أنيقة الشكل الملتفة حول نفسها كانت يومًا بيتًا لحيوانات ما. ولذلك، لم يبدُ وجود حوريات البحر غريبًا في عالم كهذا.

علاوة على ذلك، فقد عشت أنا وأبي حياة بدائية. وكانت طفولتي ملأى بالدهشة - كما أنني وعيت الحقيقة الثابتة باعتمادنا على ما قد نصنعه أو نجده أو نزرعه. لذلك، مثلت لي صناديق حوريات البحر تلك أمرًا أكبر بكثير من مجرد العثور على الطعام، فقد أشعرتني أن كائنًا سحريًّا ما يعلم بوجودنا ويعتني بنا. كائنٌ أكبر مما يمثله أبي وحتى من الجزيرة نفسها. وأردت بشدة، بطبيعتي البشرية، تصديق ذلك.

لكن كل ما سيطر على تفكيري ذلك اليوم على الشاطئ هو أن أبي أحياني في كذبة. لم أتريث لأفكر هل كذب لأجلي، أم لأجله، أم لأجلنا نحن الاثنين. وهل كانت قصصه تقربني إلى الوهم أم إلى الحقيقة. لكن كل ما أدركته

حينها هو أن لا وجود لحوريات البحر. وصار كل شيء موضع شك كذلك. استدرت وتوجهت نحو الكوخ وقدماي تدكان التراب.

***

- لقد كذبت يا أبي.

أجفل أبي، محمر العينين، جالسًا قبالة الموقد.

- أين ذهبتِ؟ لقد فتشت عنكِ في كل مكان. لقد ظننت أنني فقدتكِ.

كنت أنتفض من الغضب: حوريات البحر لا وجود لها.

نظر إليَّ والصدمة تكسو وجهه تمامًا.

- لقد ذهبتِ إلى الشاطئ.

أحسست بالأرض تتصدع من وقع كلماته. وبهتُّ لأن ثقته بي كانت عمياء، حتى في ظل ما كان يحدث وفي ظل ما كان يتغير، لدرجة أنه لم يفكر حتى بذهابي إلى هناك.

وقفت هناك مصدومة من الألم البادي على وجهه. لم أكن أفكر سوى في الانتقام لكن كل شيء فيَّ الآن غدا مضطربًا كما لو كنت أصارع التيار في القناة. لقد كنت مستاءة من خداع أبي لكن الخزي مما فعلته كان يأكلني. نعم فعل أبي شيئًا فظيعًا، لكنني فعلت شيئًا فظيعًا أيضًا في المقابل. لم أستطع استيعاب ذلك كله. فأنا وإن كنت ناضجة بما يكفي في بعض النواحي إلا أنني كنت طفلة أيضًا في كثير غيرها. لم أرد أن أفكر بما فعلته وأردت فقط أن أشعر بمطلق غضبي وبالطريقة التي شعرت بها عندما سرت أدبدب بقدمي على ممر الكوخ ونفسي تصور لي أن هدفي إحقاق الحق.

قلت بحدة: ألذلك لم ترد مني الذهاب؟ لأنني قد أكتشف الحقيقة؟

قال أبي بهدوء: لا.

انتظرت المزيد من التبرير لكنه لم يتكلم وبدت رائحة الحزن الضعيفة تصدر منه على استحياء كأمواج لبحر لا قرار له وليس له مثيل.

أردت الخروج وأن أخلو بنفسي وهممت بالخروج لأوصل كليو إلى حظيرتها لتمضي بها الليل.

قال أبي واضعًا يده على ذراعي: لا، ابقي بالداخل.

لم أرد فعل ذلك، لكن الخزي كان قد أعياني كما أعياني الكذب. توجه أبي نحو الباب وسمعته يتمتم بوداعة إلى كليو ثم سمعت صوت قفل الحظيرة. عندما عاد إلى المنزل كنت في حجرتي.

قال أبي: ما رأيكِ بعشاء؟

لم أجب، ولم أدرِ على من أصب غضبي الآن. استمعت إلى أبي وهو يتجول في المطبخ لكنني لم أجد رائحة لطعام في النهاية ولم أرَ إلا ضوء الشمعة عند حلول الظلام. ثم لا شيء.

استلقيت في سريري وأنا أسمع ثغاء كليو. أردت الذهاب إلى الحظيرة لأكون معها لكنني علمت أنني لا أستطيع، فلم يجدر بي زيادة آلام أبي مهما كان ما يحدث. لذلك، بقيت مستيقظة أستمع إلى صراخ كليو وهو يتحول من خيبة أمل إلى حسرة حتى هدأتْ في النهاية وخلوت بأفكاري التي عصفت بي حتى غلبني النوم من الإعياء.

***

قطعت أحلامي صرخة تأتي من بعيد، جلست ورأسي يدور. كان الصوت مرتفعًا، لم يشبه صوت أبي ولا صوت البومة. تردد الصوت ثانية باعثًا معه الرعب.

كليو.

صرخت أنادي وأنا أرمي غطائي جانبًا: أبي!

تواصل الصراخ الممزوج بزمجرة قوية لصوت خشن أجش لم أسمع مثيلًا له من قبل.

أمسك بي أبي عندما وصلت إلى نهاية السلم: ماذا يحدث؟

جرينا نحو النافذة فرأينا البدر يضيء فناء الكوخ وظهر شيء أشعث ضخم يدور في محيطه كما لو كانت الروح قد دبت في الظلام الذي يلف الأشجار فأصبحت جسدًا يتحرك. تحرك هذا الشيء بين الحين والحين ناشرًا قطرات الماء بينما كليو تضرب جدران الحظيرة بحوافرها كما انتشر الذعر في قن الدجاج وتطاير الريش وعلا الصراخ.

سألت أبي: ما هذا؟

أجاب أبي بوجه هرب منه الدم: إنه دب.

وصل الدب إلى الفناء وتمكنت من رؤية حركة عضلاته تحت فروه الكث. مر الدب بجانب قن الدجاج ملقيًا عليه نظرة عادية كما لو يثمنه لوقت لاحق، ثم اتجه نحو الحظيرة ودار حولها مرة تلو الأخرى وكليو مذعورة تضرب الجدران بحوافرها مع كل حركة من حركاته. وقف الدب على أقدامه الخلفية ثم سمعت انشطار الخشب وصراخ كليو يعلو أكثر مما مضى وهي تقفز من على السياج.

صرخت أنادي: أبي!

جرت كليو يمنة ويسرة تحاول الوصول إلى الكوخ أو الذهاب إلى الغابة أو الهرب بأي شكل لكن الدب كان يقطع عليها الطريق كل مرة بلا هوادة مقتربًا أكثر فأكثر. أصاب كليو الهلع واتسعت عيناها بحثًا عن ملاذ. أوشكت كليو على الوصول إلى الكوخ لكن الدب تحرك يمنة بخفة قاطعًا عليها الطريق. انتصبت كليو وحوافرها مرفوعة في الهواء وانتصب الدب كذلك ضاربًا إياها بمخالبه. أحالت الضربة الأولى صراخ كليو إلى سكون ثم لم يكن هناك سوى الدب وصوت الأكل الرطب الناعم.

وقفت مشدوهة عند النافذة.

- أبي، لما لم تفعل شيئًا؟

في الخارج، زمجر الدب فرحًا بانتصاره.

سأل أبي كما لو كان يحدث الهواء: كيف تمكن من العثور علينا؟

لكنني عرفت الإجابة، فأنا السبب، أنا من أخذت كليو إلى الشاطئ داعية الدب للقدوم والعثور علينا. لكنني لم أقوَ على احتمال هذه الحقيقة.

الدخيل

لم يرحل الدب فورًا فقد كانت جزيرتنا بمنزلة مأدبة لا يشاركه فيها أحد. أمضى الدب اليوم التالي يتلذذ بما بقي من اللحم على عظام كليو ثم سلك طريقه إلى الدجاج والبيض فقضى عليها واحدة تلو الأخرى. ولم يتبقَّ سوى رائحته الكريهة. نفذت الرائحة عبر الباب، وجوانب النوافذ كلها، ومن كل شق في الجدران. ولم أقوَ على تناول الطعام.

بقي أبي قرب النافذة قابضًا يديه، وبدا أنه لم يتزحزح من مكانه لأيام. لم نملك أي أسلحة فلم نكن قط بحاجة إليها. كنت قد شاهدت صورًا لبنادق في الكتب. بدت غريبة كالساحرات أو الأقزام الذين يعيشون تحت الجسر[1]. كما امتلكنا فأسًا لقطع الأخشاب، ولكنني جريت ووقفت أمام الباب عندما وقع نظر أبي عليه إحدى المرات.

قلت بذعر: لا.

استسلم أبي وعاد ثانية لمراقبة الدب. تحدث أبي ثانية بعد فترة بصوت جاف صريح.

- إنها أنثى. إن حالفنا الحظ فستقضي بياتها الشتوي في عرين في مكان آخر. وإن كان لديها صغار فستبقى معهم ولن تعود مجددًا لسنوات.

(1) كائنات خرافية مصدرها القصص الشعبية الإسكندنافية، تترصد من يعبرون الجسور.

حينها، لم يكن أمامنا سوى الانتظار.

***

أصبحت كليو ضربًا من الماضي وبغتني هذا الشعور. كان البوم يغرز مخالبه في الفئران بالطريقة نفسها التي قضت بها كليو حتفها، وكان صراخها يعلو صامًّا الآذان في الليل. لكنني لم أكن أحبها قدر ما أحببت كليو. انقلب عالمي رأسًا على عقب كما لو أنني تلقيت صفعة خاطفة.

في إحدى المرات حينما كنت أتعلم التسلق، وقعت من علو شجرة. لم يكن الارتفاع كبيرًا، ولكن ظهري ارتطم بالأرض طاردًا الهواء من رئتي. جمدت فيَّ مكاني مشوشة لا أدري شيئًا للحظة بدت طويلة. أسرعت إليَّ كليو تلعق وجهي حتى استطعت أخيرًا استنشاق الهواء ودبت فيَّ الحياة مرة أخرى بسرعة. لكن كليو لم تعد على قيد الحياة.

أردت الصراخ والنحيب، وأردت أن أضرب أبي والجدران ونفسي. أردت فعل شيء، أي شيء يفرغ الألم لكن لم يكن هناك ما أفعله.

***

بعد أن فتكت بالدجاج، اتجهت الدبة إلى شجر التفاح. ثم دفعت السياج بقبضة من مخالبها حتى وصلت إلى حديقة الخضراوات واستأصلت البطاطس والجزر. شاهدناها وهي تقضي على مؤن الشتاء بنهم لا ينتهي.

وعندما بدا الفناء خاليًا تمامًا، سلكتِ الدبة الطريق إلى عتبة بابنا. استطعت من حجرتي في العلية سماعها تشمشم صدع الباب فتسمرت في مكاني. بدا عليها بعد ذلك عدم الاكتراث، فلم يكن الدخول يستحق كل ذلك العناء فقد كان الطعام زاخرًا في الغابة والشاطئ. اختفت الدبة بين الأشجار ولم نستطع رؤيتها بعد لكنني استطعت شم رائحتها كلما فتحت الباب.

قال أبي: ستذهب الدبة عندما لا تعثر على شيء تأكله. قد يستغرق هذا وقتًا.

حتم علينا الوضع الانتظار يومًا تلو الآخر، ونحن ندور حول بعضنا في مساحة ضيقة، والضرورة تدفعنا للاقتراب من بعضنا بينما كان كل شيء آخر يدفعنا للافتراق.

عزمت كل صباح إخبار أبي والاعتذار لأنني سبب قدوم الدبة. لكن شيئًا ما بداخلي أراد إلقاء اللوم عليه بمجرد نزولي من على السلم. ورؤيته واقفًا يحدِّق خارج النافذة أو ينظر إلى الزجاجات في الأعلى، إلى أسراره تلك، وكذبته التي أفسدت كل شيء.

الخطأ خطئي، بل خطؤه، بل خطئي.

ذرع أبي الكوخ جيئة وذهابًا وعيناه تتحركان بسرعة كالسهام واتسعت ملابسه بعد أن صار أكثر نحافة.

وددت لو أقول إنني تفهمت ما يشعر به أو إنني تخيلت حتى، فالحزن يطبق على حياتنا كالعتمة في نفق مظلم. ويحجب سوانا عنا، ونتمنى لو لم يكونوا هناك حتى لا يضاعف ألمهم ألمنا. احتجت أنا وأبي بشدة إلى حيز حر وهواء نظيف لنفرغ فيه ألمنا لكن لم يسعنا سوى الانتظار.

سألت أبي أملًا في شيء يبعث في المكان رائحة جديدة: هل تود إحراق إحدى أوراق العبير؟

لكنه قال متجهًا نحو الأدراج: لا. بل عليَّ حمايتها.

بت أتساءل، مني *إذن*؟ لكنني لم أقل شيئًا.

***

كنا دائمًا حذرين في تخزين الطعام واعتدنا جمعه في الخريف استعدادًا للشتاء. وكنا قد أصبحنا متأخرين بالفعل في اليوم الذي ذهبت فيه إلى الشاطئ. ومع ذلك، أصابتني فكرة الأكل بالإعياء. لكنني علمت أن جسمي سيطالب به، ولكننا لم نملك ما يكفي حتى وإن تركت الدبة أي شيء لنا. قضيت أيامًا أنظر إلى حجرة المؤن وأقسم الطعام إلى أيام، ولكنه بدا غير كافٍ.

ثم في صباح أحد الأيام، بدا أمر ما مختلفًا. استطعت أن أشم ذلك في الهواء عندما فتحت الباب الأمامي. وقابلت شعور الغياب الذي وجدته بالترحاب في حين كانت كل مشاعر الغياب الأخرى التي عرفتها مريعة.

قلت لأبي: لقد ذهبت.

جاء أبي ووقف بجانبي ثم أومأ برأسه.

كان الجو منعشًا يميل للبرودة. لقد أضاعت علينا الدبة معظم الخريف. أحضر أبي الفأس تحسبًا ثم مشينا إلى الممر واجتزنا شجيرات الصلال التي جُرِّدت تقريبًا من كل التوت الذي كان عليها. ثم اجتزنا الأشجار والفطر الذي سحق تحتها. بعد ذلك، سرنا إلى الشاطئ ورأينا آثار أقدام الدبة تتجه نحو الماء، ثم اختفت.

لقد أصبحنا أحرارًا. غدونا أحرارًا مسلوبي الإرادة. لم تغتصب الدبة فقط كليو منا أو تغتصب قدرتنا على تحمل الشتاء، وإنما عرَّتنا مما جمعنا نحن الاثنين معًا. وتركت كلًّا منا وحده يلملم شتات ما تبقى منه.

الرسالة

لم تعد الجزيرة ملاذي الآمن المريح، المثير للدهشة، فقد ماتت كليو. لأسابيع، أصبح جسدي وأفكاري حبيسين لمشاعر الحزن. واتسمتْ بالطيش والضخامة بعد أن توفرت لها المساحة. لم أرد السكوت بعد ذلك.

أصبح الأمر مرعبًا. يفوق قدرتي وقدرة أبي على التحمل. لذلك، غصت في عمق الغابة لأطلق لمشاعري العنان. استنشقت الهواء ثم دفعته بعنف. ورغم كل محاولاتي، علا نشيجي كل مرة أن *اسمعني*، *اسمعني*، *اسمعني*. أردت أن يفرغ أبي كل الألم الذي بداخلي ويضعه في إحدى زجاجاته النفيسة ليختفي. أردت أن أشعر بحبه حتى وإن تسببت في موت كليو وخراب جزيرتنا.

لكن أبي انطوى على نفسه بشدة حتى بدا الحديث معه أشبه بإلقاء أحجار على نافذة منزل مهجور. وبمرور الوقت، أمضى أبي الوقت يبحث وحده عند أشياء لم يعد لها وجود.

سألته: هل تحتاج إلى رفقة؟

لكنه أدار رأسه بالنفي ونظر نحو الأدراج.

«كل ما أردته هو حمايتك». لم أدرِ إن كان يحدثني أم يحدث الزجاجات.

ناديت عليه وقلت: أبي.

لكنه أمسك بسلة جمع الطعام وتوجه خارج الكوخ.

بقيت أنا في الكوخ ألتمس كل ما غاب عنه. اعتدت أحيانًا -للترويح عن نفسي- الذهاب إلى حجرة المؤن لأتفحص كِبر أو بالأحرى صغر ما تبقى. ووقعت عيناي حينها على آلة أبي تقبع على الرف العلوي.

***

كانت الآلة أخف مما اعتقدت. وكانت القماشة الرمادية التي تلفها ناعمة وباهتة اللون بشدة حتى بدت خيوط الحياكة البيضاء أشبه بتطاير الدخان. وضعت القماشة جانبًا ثم رفعت الغطاء. تملكني بشكل ما شعور كما لو كانت الآلة ستتصدع جراء تعديَّ عليها. لكن الغطاء ارتفع بصمت كاشفًا مئات الفتحات الصغيرة.

ارتعشت يدي. بالطبع علمت كيفية عمل هذه الآلة، لكنها كانت بمنزلة ضرب من ضروب السحر بالنسبة إليَّ. والسحر، كما علمت، له ثمن. تساءلت عما إذا كانت الآلة تأخذ بقدر ما تمنح، وبدا لي ذلك ممكنًا بالنظر إلى علاقة أبي بأوراق العبير.

توخيت سماع وقع الأقدام على الطريق، لكن لم أسمع سوى الزقزقة المتسارعة للعصافير. أخذت نفسًا، حاملة عبق الروائح حولي إلى رئتي وعقلي ثم حملت الآلة بكلتا يدي ووجهتها إلى وجهي ثم ضغطتُ على الزر. تنفست الآلة بدورها وأصدرت طنينًا. شعرت بالهواء يُسحب من تموجات شعري إلى الفتحات ولم أتحرك حتى كادت الورقة تخرج تمامًا. ثم خفضت إحدى يدي لتسقط الورقة على راحة يدي كورقة شجر.

نظرت إلى الورقة طويلًا ثم أمسكت بإحدى حوافها ولوحت بها. وجدتُ رائحة نسخة أصغر مني إلى حد ما في الهواء، وللحظة استشعرت لماذا يريد أبي حماية ما صنعت يداه.

لكننا لم نكن الشخص نفسه على أي حال.

أخرجت إحدى الزجاجات الفارغة ووضعت أنفي على عنقها. لكنني لم أجد شيئًا. لم يكن هناك سوى العدم. وفكرت أنها كانت تنتظر.

تنتظرني *أنا*.

وضعت ورقة العبير بداخل زجاجتي التي استوليت عليها ثم أخرجت الصندوق الخشبي الصغير الذي حوى مخزون أبي من الشمع. وددت إيجاد شمع أحمر، لكنني لم أجد غير الأخضر. أذبت بعضًا منه وشاهدته يقطر على حافة الغطاء ليحكمه. وضعت الزجاجة في جيبي ثم أعدت الآلة بحذر إلى مكانها في حجرة المؤن، ثم تسللت خارج الكوخ وأغلقت بابه خلفي.

كان البرد قارسًا في الخارج مقارنة بدفء الكوخ. مشيت على الممر حتى وجدت المسار الذي اتبعته أنا وكليو للوصول إلى الجرف. أصبح العثور عليه سهلًا؛ فقد اتبعت الطريق المألوف عبر شجيرات الصلال، وشعرت بالألم الحاد لفقد كليو كما لو أن أحد الفروع ينسل في كبدي. توقفت.

ربما لا يجدر بي *فعل ذلك*. لكن الحزن أعياني وأرقني.

واصلت المسير حتى وصلت إلى حافة الجرف ووقفت هناك وشعرت ببرودة الهواء على وجهي ورأيت الماء أسفل مني. وضعت يدي في جيبي وشعرت بملمس الزجاج على أصابعي. ثم سحبت ذراعي للخلف وألقيت الزجاجة في الأفق الموحش المثير. عددت، *واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة* ثم سمعت صوت تناثر الماء.

وصرخت إلى السماء التي لن تجيبني أبدًا وإلى أناس لم أرهم: أنا هنا. أنا هنا.

***

كررت الفعل ذاته اليوم التالي، ثم الذي تلاه، ثم الذي تلاه. علمت أنه لا يجدر بي استخدام الآلة بكثرة أو حتى على الإطلاق، لكنني لم أكترث. لم أرد توخي الحذر بعد.

فرجت عني كل ورقة عبير أصنعها وكل زجاجة ألقيها، وأزاحت جزءًا صغيرًا من الثقل الجاثم على صدري. ربما كنتُ محقة في أن الآلة تأخذ شيئًا من الشخص الذي يستخدمها. لكن المشاعر ذاتها تراكمت في صدري بحلول الصباح التالي وانتظرت بقلق رحيل أبي، حتى يتسنى استعمال الآلة والشعور بعالمي يتمحور حول الورقة التي أحملها في راحة يدي.

أتى صباح رفعت فيه الغطاء وضغطت فيه على الزر لكن الآلة لم تأذن لشيء بالخروج. أصدرت الآلة طنينًا وأزيزًا يعقبه طنين وأزيز لكن لم تُخرج أي ورقة. بل تنفست فقط بيأس عبر الفتحات.

هل كان من المعقول أن ينفد السحر؟ استمرت الآلة في العمل والتنفس كما لو كانت ستبتلع الجزيرة بأكملها.

من جراء الذعر، أغلقت الغطاء بحدة. وسكن الصوت. ترى ماذا سيفعل أبي إذا علم؟ لم يستخدم أبي الآلة منذ محاولتنا الفاشلة في صنع نسخة من إحدى أوراق العبير. لكنه سيعلم ما فعلت لو غير رأيه وجرب استعمالها.

بسرعة، لففت الآلة بالقماشة الرمادية الطويلة وأعدتها إلى مكانها على الرف وتأكدت من تركها تمامًا حيث كانت. ثم أغلقت باب حجرة المؤن خلفي بإحكام.

الزجاجة

بدأ كل شيء في الزوال، الأوراق في الآلة، والطعام في حجرة المؤن، وكذلك عقل أبي. في صباح يخرج كل مخزوننا من الطعام ويرصه على الطاولة. وفي اليوم التالي، ينزل ما تبقى من الزجاجات في الأدراج ويرتبها في صفوف ويعُدها بعناية قبل إعادتها إلى مكانها مجددًا. لم يواصل إحراق الأوراق التي اختفى عبيرها، بل تشبث بها كما لو كانت طوق نجاته. شاهدته وتساءلت إن كنت وحدي من ظننت أن ميزان عقله يختل.

- أبي، إننا نحتاج إلى المساعدة.

كان كل ما نبس به هو «يجب علينا حمايتها». وتأكدت حينها أنه يعني أوراق العبير بلا شك.

تساءلت، ماذا عني إذن؟ ماذا عن حمايتي أنا؟ مهما بلغ سوء ما هو خارج الجزيرة لكنه لن يكون بمنزلة الموت جوعًا. لم تُحضر لنا حوريات البحر يومًا الصناديق في الشتاء، قال أبي إنهم لا يستطيعون إقامة حفلة في البرد القارس. لكنني وعيت الآن أن القوارب لا تستطيع الوصول إلى القناة بسبب العواصف. وأننا لن نستطيع الحصول على المساعدة قبل حلول الربيع. لذلك، تحتم علينا طلب المساعدة إن أردنا النجاة، لكن أبي لم يكن مستعدًا إلى لفت النظر نحو جزيرتنا ما دامت الزجاجات موجودة.

اعتدت حينها الذهاب يوميًّا إلى الجرف والنظر إلى العالم الشاسع، ورياح الشتاء تهب في المضيق مثيرة الزبد في الماء. بدت الجزر في الأفق البعيد كقطع الليل المظلم دون أي علامة على وجود أناس آخرين. لذا، علمت أنني لا أستطيع الاعتماد على الحظ لإنقاذنا.

في الليل، كنت أرقد في فراشي في حجرتي العلوية وأنا أفكر. ولم أعد أسمع همسات أوراق العبير في الأدراج ولا القصص التي كانت ترويها. ماذا لو كان أبي مخطئًا، ماذا لو لم تحتج أوراق العبير إلى من يحميها. لعلها هي من تحمينا.

***

انتظرت بضعة أيام حتى غادر أبي الكوخ وتوجه إلى الغابة، وبمجرد خروجه شرعت في العمل. علقت إحدى حقائب جمع الطعام على كتفي وصعدت السلم لأقف بمحاذاة الأدراج. أحسست بالخطر وبثقل الهواء وسخونته، وتعرقت يدي وأنا أمسك بدرجات السلم. كانت لدي خطة، لكنني لم أدرِ وقتها ما كنت أفعل بالضبط.

وبينما أنا أصعد نحو أعلى الزجاجات، نظرت إلى الأسفل ورأيت فجأة عالمنا بأكمله مستقرًا أسفل مني ككتاب مفتوح. رأيت حجرتي العلوية التي بناها لي أبي وكساها بقصاصات الملابس التي ارتديتها على مر السنين، وموقد الخشب حيث علمني أبي الطهو، والطاولة الخشبية حيث علمني الكتابة، وكتبنا المرصوصة على الأرفف، والكرسي الذي قرأنا الكتب جالسين عليه، والسلال التي جدلناها معًا في ليالي الشتاء من لحاء الأرز قرب النار.

رأيت حياتنا حافلة ونابضة، لا ذكرى محبوسة بداخل زجاجة، وعزمت حينها على فعل ما ينبغي لحمايتها.

انحنيت إلى الأمام بحذر مخرجة الزجاجات واحدة تلو الأخرى من الأدراج ووضعتها في حقيبتي ليغوص ختم شمع الزجاجات الأحمر داخلها. عندما امتلأت حقيبتي، رتبت الأدراج وتركت الجدار على ما كان عليه ثم نزلت من على السلم وأنا أسمع الصدى الرقيق لاحتكاك الزجاجات ببعضها.

علمت أن الأمر سيقتضي قيامي بعدة رحلات، وبسرعة التنفيذ قبل أن يدرك أبي ما أفعل. ورغم ذلك عزمت على المضي قدمًا. رفعت حقيبتي وتوجهت نحو الجرف سيرًا على الممر ومرورًا بالشجيرات التي بدت كما لو كانت تجذبني من أطراف سروالي وهي تنادي توقفي، توقفي، توقفي، توقفي. لكنني لم أنصع لها.

عندما وصلت إلى الجرف، وضعت الحقيبة أرضًا بمحاذاة قدمي ووقفت على حافة الصخرة وأخرجت زجاجة وتحسست ختم الشمع الجامد حول عنقها. تساءلت للحظة عن العبير الذي حملته وعن الذكرى الرائعة التي حوتها ثم أدرت رأسي ورفعت الزجاجة عاليًا وقذفتها بأقصى ما أستطيع. عمَّ صمت طويل، كما لو كان الهواء يحبس أنفاسه حتى سمعت صوت تناثر المياه. للحظة انقبض صدري لاختفاء عالم بأسره، فلن أستطيع معرفة لماذا أحبه جاك بكل ذلك القدر أو حتى لماذا أبدى أبي استعداده لفعل كل ما أمكن لحمايته.

لكنني أردت حماية عالمنا أكثر من رغبتي في حماية تلك العوالم الأخرى. لذا، قذفت الزجاجات واحدة تلو الأخرى حتى فرغت الحقيبة.

***

استغرقت خطتي بخصوص الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر يومين. وحالفني الحظ أن أبي لم يفتح الأدراج في تلك الأثناء. وفي اليوم الثالث، فتحت درجًا مختبئًا خلف مجموعة من الأعشاب التي علقها أبي منذ فترة طويلة. لم يفتح أبي ذلك الدرج قط واعتاد المزاح قائلًا إنه كان يحرسنا كما كنا نحن نحرس أوراق العبير. حاولت أن أزيل الأعشاب بخفة من العَلَّاقة المعلقة بها، لكن الأعشاب كانت هشة وتفتت على الأرض. شممت رائحة الزعتر والزعتر البري الناعمة يشوبها لمحة من الحزن. اتكأت على السلم وفتحت الدرج وهممت بدس الزجاجة في حقيبتي لكنني توقفت. فقد كانت الزجاجة مختومة بالشمع الأزرق.

حدقت إليه للحظة فأنا لم أرَ شمعًا أزرق من قبل. ولم أعلم لِمَ لَمْ يخرج أبي هذه الزجاجة قط من موضعها أو يُرِها لي. لقد كانت قابعة هناك طوال الوقت. للحظة فكرت في ترك تلك الزجاجة له، لكنني علمت أنه تحتم عليَّ التخلص

من الزجاجات كلها وإلا لن يجدي ما أفعله نفعًا. لذا، وضعت الزجاجة في حقيبتي وتوجهت خارجًا. حدثت نفسي بضرورة التحلي بالقوة لأجل كل منا.

آه كم هو مدهش أن نُنزل أنفسنا منازل الأبطال بسهولة.

***

وقفت على حافة الجرف أنظر نحو الجزر كلها، ثم شرعت في قذف الزجاجات مجددًا واحدة تلو الأخرى حتى لم يعد سوى الزجاجة الزرقاء. اكتست المياه في الأسفل بالزجاجات المتمايلة التي تحمل لمحة من اللون الأحمر كصغار السمك السابح في البحر مع التيار. تساءلت عمن قد يجدها، كما تساءلت من قبل عن زجاجاتي، وترى هل سيتبقى بها أي رائحة؟ ترى هل سيفكر من يجدها بإحراقها؟

بالطبع لم يُجدِ التفكير في هذه الأمور نفعًا حينها. لم تكن هذه الزجاجات بمنزلة رسائل أرسلها، كنت أستطيع دفنها أو إخفاءها، لكنني علمت أنه يجب التخلص منها نهائيًّا، وحينها فقط سيكون أبي مستعدًا للحصول على المساعدة.

أخرجت الزجاجة المتبقية ولمست الختم الأزرق حول غطائها. كان الشمع قديمًا يبدو عليه التشقق لكنه لم يُكسر قط. فتنتني الزجاجة وأغرتني بفتحها ومعرفة ما إذا تبقى بداخلها أي عبير. ارتعشت يداي. *ترى ماذا تكونين؟ وما الذي يميزك؟* اقتربت منها لعلها تهمس لي بالإجابة وظننت أنني سمعت همسها بالفعل.

حينها سمعت وقع أقدام على الطريق.

دارت بي الدنيا، وظننت أن لدي ثواني معدودة قبل أن يمسك بي. أمسكت بالزجاجة في يدي وتحتم عليَّ الإسراع وإلا سيضيع كل ما فعلته هباءً. نظرت إلى الختم الأزرق بطرف عيني. لم أرد فعل ذلك، لكنه تحتم عليَّ.

ظهر أبي من بين الأشجار، فرفعت يدي. أحسست به يأتي من خلفي وهو يتأوه بيأس وأنا أقذف بالزجاجة. رمى أبي بنفسه محاولًا الإمساك بها ولم ينظر إلى حافة الجرف.

طارت الزجاجة في الهواء وتبعها جسده واختفى كلاهما في لحظة. سمعت صوت تناثر الماء البعيد أسفل مني في المياه كاحلة السواد.

صرخت وأنا أتكئ على الحافة بحثًا عنه في وسط الزجاجات الحمقاء الطافية: أبي!

طفا رأسه على السطح وعلى قسماته أمارات الأسى. التقت نظراتنا للحظة طويلة من الزمان ثم نظر إلى الماء والمنحدرات حوله. فهمت ما يفعله واسترجعت صوته وهو يقول *قيمي الوضع يا إيميلين واحذفي المتغيرات وحددي القرار الأمثل.*

أو ربما كان يبحث عن الزجاجة الزرقاء.

- أبي!

نظر أبي إليَّ مجددًا وشحب لونه بالفعل بسبب البرد ثم صرخ يقول مشيرًا إلى اليمين نحو منحنى الجزيرة الهائل: البحيرة.

بكيت: أنا آسفة، أنا آسفة.

قرأت شفاهه وهو يقول: أحبكِ ثم شرع في السباحة.

ناديت عليه: سأقابلك هناك، حتى وإن بدت الحقيقة واضحة لكلينا...

فيما بعد

انتظرت طوال اليوم أمام البحيرة وعيناي مثبتتان على القناة. عوت الأمواج ملأى بالزبد، تستعصي على السكون، وباءت كل محاولاتي بالتركيز على المياه الهادرة التي بدت تجري بخفة ونعومة بالفشل. علمت في قرارة نفسي أن هذا أمر ميؤوس منه. حدثني أبي كثيرًا عن حرارة المياه وعن القدْر الذي يستطيع الإنسان احتماله. إن لم تفتك بك الصدمة الأولى -فاغرة فاهك بحثًا عن الهواء ودافعة الماء في داخله- فسيفتك بك الماء البارد. قال أبي إن التعرض الطويل للماء كان قاتلًا، حتى في الصيف، فكيف إذن بالشتاء. إن استطاع أبي حتى الصمود وصولًا للقناة، فسيفتك به التيار والصخور ولا شك. كنت أعلم هذه الأمور كلها التي علمني إياها أبي، رجل العلم.

ومع ذلك انتظرت.

***

أسدل الليل ستاره، ولم تعد هناك إلا الروائح. جلست في كنف رائحة الماء المالح والرمل الندي. اعتدت استنشاق هذه الروائح حياتي بأسرها، لكن تملكني الذعر عندما أدركت أن أنفي مزج هذه الروائح التي حملت معها ذكرياتي بروائح جديدة لم يشكل أبي جزءًا منها.

اعتاد أبي قول «تتغير الذكرى بمجرد تغيير الرائحة» لكنني لم أعِ ذلك حينها.

أحسست بأبي يختفي مع كل نفس.

لا. وقفت ملقيةً نظرة محمومة على البحيرة حتى القناة. ثم استدرت وهرعت نحو الممر.

***

فتحت باب الكوخ ثم صككته خلفي محاولة حبس الروائح النفيسة بالداخل. كانت رائحة أبي ما تزال هناك، عالقة بالهواء وبقماش قمصانه وحتى بصفحات كتبنا. دسست أنفي في كل شيء وجدته وأنا أعلم أن رائحته كانت تنسل منها كما ينسل الماء من الغربال.

فكرت في قصاصات العبير البيضاء المربعة التي صنعتها عن نفسي وهي تتهادى على كفي، وأدركت أنني لم أصنع أيًّا منها عن أبي. لم يكن هناك داعٍ لذلك فقد كان وجوده لا يقبل الشك، كغروب الشمس بعد شروقها.

همست في سكون الكوخ وقلت لنفسي: كم أنتِ أنانية. أنانية. أنانية.

جلت بنظري في المكان. ووجدت الأدراج العليا كلها مفتوحة حتى الدرج الذي كان يحوي زجاجة العبير ذات الختم الأزرق. وكانت الآلة موضوعة على الطاولة بغير دثارها.

لقد عَلِمَ.

كانت الحقيقة أكبر من الاحتمال. أمسكت بالآلة الجميلة اللامعة، السبب في هذا كله.

صرخت بها: أنا أكرهكِ ثم رميت بها على الأرض، مرة تلو الأخرى، حتى لم يتبقَّ منها إلا قطع معدنية صغيرة. وأصبحت حينها حطامًا خاليًا من السحر.

أمسكت بالقماش الذي حماها دائمًا وقذفته إلى النار دون تفكير. سادت في الغرفة رائحة حارة متثاقلة وامتزجت بروائحها مبددة ما تبقى من رائحة أبي. أطبقت باب الموقد الخشبي لكن بعد فوات الأوان.

***

أمضيت اليومين التاليين، منزوية في كرسينا الخشبي الكبير ضامة كتاب القصص الخيالية بقوة إلى صدري. ظننت بشكل ما أن كل شيء سيعود إلى حاله إن لم أغير طريقة سير الأمور. سيدخل أبي من الباب، ينفض الماء عن شعره مسرورًا بتجربة السباحة في غير موسمها. سيعود كما كان الرجل الذي عرفته في طفولتي، الذي اعتاد أن يقطع رحلة جمعنا للطعام ليريني الأثر اللامع الذي يتركه الحلزون عند سيره، لا ذلك الرجل الذي رأيته في الشهور الأخيرة الماضية، والذي سقط في الماء.

حاولت تجاهل الزجاجات المتروكة في الأدراج السفلى. *لولاها لكان أبي هنا.*

لكنني علمت بالطبع ما حوته تلك الزجاجات المختومة بالشمع الأخضر تلك. لقد حوت حياتنا، بانتظاري.

بعد مرور ثلاثة أيام، أصبح فقدانه يفوق الاحتمال. شرعت فتح الأدراج، وأمسكت فقط بالزجاجات في أول الأمر وأنا أتساءل عن اليوم الذي صنعت فيه كل ورقة من أوراق العبير وعما كنا نفعله فيه. نفد آخر الطعام، لكنني لم أهتم، وجلست ملفوفة بالأغطية على فراش أبي ضامة إحدى الزجاجات إلى صدري حتى انتقلت حرارة جسدي إلى سطحها البارد. ثم استبدلتها بأخرى.

في صباح اليوم الخامس، استيقظت في الكرسي ورأسي يدور والمكان بارد من حولي. اختفت رائحة أبي تقريبًا من الغرفة. استطعت إشعال النار مجددًا ثم توجهت نحو الأدراج. أخرجت إحدى الزجاجات فتحركت الورقة بداخلها وأحسست كما لو كان أبي يقول لي *أنا هنا. أنا هنا.*

أحضرت سكينًا وأزلت الختم. أحسست بالكاد بعبير الورقة. بدا كطيف الأشجار في الضباب. كبقعة ضوء خافتة في وسط الظلام لا تهدي إلى السبيل. لكنني احتجت إلى الاهتداء، فذرعت الغرفة ثم فتحت باب الموقد الخشبي وقذفت ورقة العبير داخله.

استغرق الأمر لحظة. ظننت أن لا شيء يحدث عقابًا لآثامي التي جنيتها، لكن باغتتني الرائحة. فاحت رائحة ظُهر يوم دافئ مشرق في أواخر الصيف. شممت رائحة سلة التفاح الناضج على الطاولة وتذكرت السكين الذي استخدمه أبي بدقة لفصل القشرة عن الثمرة.

وضعها في يدي وهو يقول لي مبتسمًا: *أمسكي يا عصفورتي الصغيرة. هذه لعبة يمكنكِ أكلها.*

خررتُ على ركبتي وأحسست بذراعيه تطوقانني وشممت رائحة جسده، والملح والماء ولب الصنوبر المنبعث من لحيته.

ثم هممت بتكرار ما فعلت بإحضار زجاجة أخرى قبل زوال العبير.

***

أدركت أنني أسرفت في إحراق أوراق العبير، فحاولت الترشيد. لكن خارت قواي، وكذلك قدرتي على المقاومة. وبعدما كنت أحرق ورقة واحدة في اليوم وصل العدد إلى اثنتين، ثم ثلاث، ثم خمس. لم أستطع المغادرة، فحتى وإن تمكنت من العثور على المساعدة أو حتى عبور هذه القناة المرعبة فقد فات الأوان. كل ما أردته هو الاجتماع مع أبي مجددًا.

لذا، فتحت الزجاجات وأحرقت الأوراق واحدة تلو الأخرى. شممت رائحة كليو في إحداها، وأدهشني أن هذه الورقة هي ما دفعتني إلى البكاء. مرت الأيام وشعرت أني أختفي. أصبحت أوراق العبير هي الهواء الذي أتنفسه والدم الذي يجري في عروقي، وبات من السهل عليَّ أن أضيع بداخلها. بالطبع علمني أبي كيف أقتفي أثر رائحة ما، إلا أنني الآن امتزجت بها كأشجار تقف بشموخ في إحدى الغابات البعيدة.

همست الأوراق لي *كان ياما كان يا إيميلين.*

أردت أن أحيا قصص أوراق العبير هذه. وعندما أدركت الجهد المطلوب لإحضار كل منها أنزلتها جميعًا دفعة واحدة، فقد تحتم عليَّ الحفاظ على ما تبقى من قوتي لإبقاء النار مشتعلة.

حينها غصت في بحر من الزجاجات وقطع مفتتة من الشمع الأخضر. كنت أمسك بزجاجة جديدة، بينما كان عبير آخِر زجاجة عالقًا في الهواء، يسري بأريج أحد أيام الربيع العادية التي تزهر فيها زهرة البنفسج. كان شعري في ذاك اليوم مغسولًا، والخشب في الموقد ما زال يانعًا. كلها تفاصيل لم ألقِ لها بالًا في وقتها. لذا حاولت التمسك بالعبير بأقصى ما أستطيع، وعندما شعرت به يزول ويغادر، حاولت التمسك أكثر.

- إيميلين!

سمعت صوتًا آتيًا من بعيد. لم يكن هذا أول صوت تصدره أوراق العبير، لكن شيئًا ما به لم يكن منطقيًّا. حاولت عدم التفكير به والغوص أعمق في رائحة النباتات والغابة الندية.

- إيميلين!

نادى الصوت ثانية، وكان أقرب هذه المرة، وأدركت أنه أتى من خارج الكوخ. وقفت ببطء وأنا موقنة أنه ليس لأبي، لكنني تشبثت بالأمل... دارت الغرفة من حولي وشعرت بالعبير يشدني إليه من جديد.

همست قائلة لا تذهب.

سمعت وقع أقدام على عتبة الباب. فُتِح الباب، فانفض كل العبير الذي كان داخل الكوخ بدفعة واحدة من الهواء البارد المنعش. رأيت رسول حوريات البحر يدخل لكنه لم يحمل معه صندوقًا أسود هذه المرة، كما أنه لم يأتِ بأبي معه.

الجزء الثاني

الخليج



أرض العجائب

كان الفراش لينًا والشراشف خشنة.

هذا ليس فراشي.

استلقيت وعيناي مغمضتان حابسة أنفاسي. سيكون العالم مختلفًا عما عهدته وغير منطقي عندما تسري الروائح إلى أنفي وأفتح عينيَّ. أنا أردت أن يبقى عالمي كما أعرفه، لذا قررت ألا أفتح عينيَّ، وألا أتنفس حتى، وألا أعرف أين أنا.

حاولت الاستلقاء على الجنب الآخَر، وضم رجلي إلى صدري، وتمنيت أن أتوارى عن الأنظار، لكن ثقلًا في رجلي منعني. اضطررت للتنفس رغمًا عني، فشممت رائحة شعر حيوان رطب.

كليو؟

شهقت وأنا أتمنى أن تكون هي. لكنني سمعت صوت تنفس أجش. *إنها ليست كليو.* تجمدت في مكاني وجلدي يقشعر من الخوف، وأحسست بأنفاس دافئة على وجهي وشممت هواء ممتلئًا بمزيج من روائح المسك القوية. *هل هذا دب؟* شعرت بلسان يلعق خدي.

أبقيت عينيَّ مغمضتين وصرخت.

***

ذهب الحيوان البغيض وحضر مكانه صوت من فوقي يقول: لا بأس، *ما شيري*[1].

إنها امرأة. أحسست بإصبع تتحسس خدي وشممت رائحة الخميرة والطحين والسكر.

- هذا كلبنا، إنه في الخارج الآن.

وضعت المرأة يدها على رأسي ومسدت شعري، فتذكرت كيف كان أبي يشبك أصابعه في تموجات شعري بينما يقرأ لي. شددت ياقة قميصي إلى وجهي بتلقائية شوقًا إلى ما تبقى من رائحة أوراق العبير، لكن القماش الذي أمسكت به كان ناعمًا وخفيفًا.

هذا ليس قميصي. شممت رائحة خالية من أي شيء عدا رائحة الزهور. لم تحمل رائحة لب الصنوبر، أو ملح البحر، أو خشب التفاح، أو رائحة سترتي التحتية. لا.

- إن ملابسك تُغسل، لقد كانت عابقة بالدخان. لا تقلقي ستكون نظيفة ومنعشة قريبًا.

لا، لا، لا.

ذهب أبي... وسقطت أنا في هوة عميقة من الحزن.

***

لم أدرِ كم مرَّ من الوقت، لكنني علمت أن المرأة تتفقدني، وتضع يدها على خدي وكتفي.

- إيميلين؟

لم أستطع الرد.

أتت المرأة ثانية بعد عدة ساعات ونادت بنبرة صارمة هادئة: إيميلين. يجب أن تفتحي عينيك الآن. يجب عليكِ تناول الطعام.

(1) كلمة باللغة الفرنسية تعني عزيزتي.

كان كل ما رأيته بعيني المغمضتين هو البحر الذي يعب بالزجاجات. دعني *أقفز خلفك يا أبي*. لن أهتم ببرودة الماء أو كم سيصبح العالم موحشًا إن استطعت فقط أن أبقى معه.

نادت المرأة: إنكِ هنا في أمان.

أمان. كم هي غريبة هذه الكلمة.

***

لا تعبأ الروائح بما يريده العقل أو يشتهيه القلب، بل تخترق ستار عتمة العين وحواجز الفكر بمواطأة الجسد. نستطيع النجاة دون طعام لأسابيع، والماء لأيام، لكن قوانا تخور دون الهواء.

وكذلك، تآمرت أنفاسي ضدي، فتسللت إليَّ رائحة شيء ما يخبز في الفرن، ورائحة بصل يلين من الحرارة. حاولت إبعاد هذه الروائح، لكن دفئها ونعومتها أحاطتني كشمس الربيع.

تذكرت أبي وهو يقول: «الناس يكذبون يا إيميلين، لكن الروائح لا تكذب أبدًا». كنت أراه واقفًا بجانب قن الدجاج وهو يعلمني العثور على البيض الطازج.

وهو يضع إصبعه على أنفي قائلًا: «اتبعي هذا. اتبعي أنفك».

أنا لا أود تركك يا أبي.

لكن في نهاية المطاف لم يكن بيدي حيلة؛ فتحت عيني.

***

كان من الصعب تفسير صدمتي من رؤية امرأة حقيقية لأول مرة. شاهدت بالطبع صورًا ورسومات لأشخاص آخرين، لكن في الكتب فقط. كانت تنبعث منهم رائحة الورق فقط، ونطقت أصواتهم بنغمات مختلفة للسان أبي عندما كان يقرأ لي. حتى وإن خطر لي التفكير بهم، فسيكونون ببساطة صورًا أقصر أو أطول أو أسمن منه.

لكن هذه المرأة تحركت بشكل مختلف. كانت المرأة ترتدي فستانًا أزرق واسعًا عليه مئزر كبير، وكان شعرها الأبيض مرفوعًا على رأسها. لوحت

الشمس جسدها، وارتسم العديد من الخطوط حول عينيها وفمها. بدت المرأة في منتصف العمر، يدها قوية لكن عروقها بارزة كجذور الأشجار.

قالت المرأة مبتسمة: ها أنتِ ذي، ما شيري.

عندها، أدركتْ كما لو كنت أحتاج إلى أن أختلي بنفسي للحظة فقالت: سأحضر لكِ الطعام، يجب أن تأكلي الآن.

***

جلت بنظري في المكان عندما غادرت. كانت جدران الغرفة ناعمة زرقاء اللون، لكنها خالية من الأدراج، والزجاجات، والنار المشتعلة في الموقد. أطلت النافذة المقابلة للفراش على الماء وكان الضوء المنبعث منها فضيًّا منذرًا بنهاية الشتاء ولامعًا كما كان على الجرف. شعرت بأنني في مهب الريح بعيدًا عن حماية الغابة. ضممت ركبتي إلى صدري محاولة تجاهل الغرفة وصابة نظري على الباب.

سبقت رائحة الحبَّهان الناعمة والمطمئنة دخول المرأة إلى الغرفة، وأخذتني إلى إحدى ذكرياتي، إلى إحدى أوراق العبير في الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر، الممتلئة بعبير مكان حار، فأحاطتني وداعبت بشرتي. تذكرت أبي يقول: «*هذا الحبَّهان، يختبئ كما يختبئ الكنز*». وقد أراني صورًا له، صورًا لجرابات على شكل قوارب صغيرة تحتوي العديد من البذور السوداء.

قالت المرأة وهي تحمل طبقًا في يد وكوبًا به سائل أبيض في اليد الأخرى: تفضلي، إن فطائري لا تقاوم.

أصابتني رائحة الطبق بالدوار. أعددت أنا وأبي الخبز في الجزيرة، لكن رائحة فطائر هذه المرأة كانت أكثر قوة ونعومة. يمتزج بها شيء ثقيل لكنه ناعم. أمسكت بإحدى الفطائر البنية اللزجة ثم قضمتها فملأت فمي بطعمها الحلو. كنت قد تذوقت السكر من قبل، لكن في شكل هدية نادرة من هدايا صناديق حوريات البحر. لكن هذه الفطائر احتوت على سكر أكثر مما اعتدنا الحصول عليه في موسم كامل. آلمتني أسناني وشعرت باللعاب يجري على لساني.

نظرت إلى المرأة بملء عيني فابتسمتْ.

- أنا سعيدة لأنها أعجبتكِ. وبما أننا بتنا الآن ننظر إلى بعضنا، دعيني أعرفكِ عن نفسي. أنا كوليت وزوجي اسمه هنري، إنه الرجل الذي عثر عليكِ. وهذا منزلنا.

ناولتني الكوب فارتشفت منه فكنت على وشك التقيؤ. لقد اعتدت شرب الماء وشاي التنوب الأخضر الصافي لكن هذا السائل كان كثيفًا وباردًا وناعمًا كالرغوة التي تجمعت على جانب البحيرة.

قالت المرأة: إنه لبن.

هذا مذاقه إذن. تكررت صور اللبن كثيرًا في إحدى القصص التي قرأتها. وهو يُمنح لطفل ليشربه عند موعد النوم كهدية عظيمة.

قلت: أنا آسفة. تمغصت معدتي وظننت أنني سأتقيأ.

ذهبت كوليت لتحضر لي كوبًا من الماء مذاقه كالمعدن، خالٍ تمامًا من طعم الصخور الباردة على حافة بئرنا، لكن مذاقه كان أفضل من اللبن. جلست كوليت على طرف الفراش بينما أنا أشرب، ولم تغادر عندما انتهيت. جلت بنظري في الغرفة وأنا أحاول تجاهل الفكرة التي تدور برأسي والعالقة بطعم الماء ومنظر السماء الواسعة خارج النافذة.

إنكِ لستِ في المنزل.

أدرت رأسي بعيدًا. رأيت على يساري خزانة أدراج عليها مصباح صغير إلى جانبها زجاجة مختومة بالشمع الأخضر. أجفلت من رؤيتها.

- لم تريدي تركها، وقال هنري إنها آخر ما كان في الكوخ.

راقبتني المرأة من كثب وقالت: عثر الناس على الكثير من هذه الزجاجات على الشواطئ كلها، وباتوا يتساءلون عن مصدرها، حتى إن مقالًا كتب عنها في «صحيفة ديلي صن» *(Daily Sun)*. وكان معظمها مختومًا بالشمع الأحمر.

تذكرت وقوفي على الجرف وأنا ألقي بزجاجات أبي في الماء، ووجه أبي وهو ينظر إليَّ من وسط الأمواج.

قلت لكوليت: لا تخبري أحدًا من فضلك.

نظرت إليَّ وأصابعي قابضة بإحكام حول رسغها، لكنها لم تفصح إن كنت قد سببت لها الألم.

- حسنًا.

أفلت يدي فقامت وأحضرت لي الزجاجة وأعطتني إياها.

- ها هي ذي.

غادرت كوليت الغرفة لتعد طعام الغداء لهنري، واستلقيت أنا على الفراش والزجاجة في قبضتي. غمرتني الرغبة في فتحها وإحراق الورقة بداخلها واستنشاق رائحة أبي لكنها كانت كل ما تبقى لي. وكانت الدليل على ما عشناه كله، وما تسببتُ فيه. لقد كانت ببساطة الدليل على أجمل ما فيَّ وأبشعه.

دودج

مر قرابة أسبوع على مغادرتي للغرفة. وضعت كوليت دلوًا بالقرب من الفراش حتى أتبول فيه. وأدهشتني مقدار الطاقة التي بذلتها للتحرك حتى هناك. غططت في النوم لكن لم أعلم أكان ذلك من فرط التعب أم هروبًا من الواقع. كل ما أتذكره هو أن الغرفة بدت أكثر إشراقًا بمرور الوقت، واستعادت يداي وقدماي قدراتها مجددًا. هكذا خُلقنا، تحارب أجسادنا للنجاة سواء أردنا ذلك أم لم نرد.

لكن هذا العالم ظل غريبًا عني. قرأت على متن الجزيرة قصصًا خيالية عن بيوت صنعت من الحلوى، وحيوانات تستطيع الحديث، وكانت جدران كوخنا ممتلئة بزجاجات تحتفظ بالذكريات، وأخبرني أبي أن جذور الأشجار تتحدث مع بعضها أسفل التربة.

كان تصديق ذلك كله أسهل عليَّ من تصديق ما أمر به الآن.

سألتني كوليت عصر أحد الأيام: هل تودين الاغتسال؟

كان *الاغتسال* لي مثل ارتداء قطعة قماش باردة مبللة، وقطعة صابون، وفوطة خشنة للتنشيف. وكان غسل شعري أمرًا نادرًا، يستلزم إبريق ماء لأبل به شعري، ووعاء يجمع الماء المتساقط. وكان مصدر الماء نفسه من البئر أو الماء المتجمع على السطح.

لكن بدلًا من ذلك، أرشدتني كوليت إلى غرفة ناصعة البياض ذات جدران لامعة، وفتحت الستائر ليظهر حوض أبيض لامع. جلت بنظري بحثًا عن الدلو. لكن كوليت أدارت مقبضًا فنزل سيل من الماء البارد، الذي أصبح ساخنًا فيما بعد، من الجدار. نظرت بدهشة وتوجس إلى الماء وهو يملأ الحوض ولم أستطع تخيل كيف للماء البقاء داخل الجدران. وماذا سيحدث إن أحدث أحدهم ثقبًا به على سبيل الخطأ.

سألتني كوليت وهي تبتسم: ألا تودين الدخول؟ لا نريد أن يصبح الماء باردًا.

نظرت إليها.

- سأنتظركِ في الخارج، أخبريني إن احتجتِ أي شيء.

أُغلق الباب خلفها ووقفت أحدق إلى الماء. سبحت بالطبع في ماء بهذا العمق من قبل لكنه كان دائمًا باردًا وممتلئًا بالملح. كانت رائحة هذا الماء مختلفة ينبعث منها البخار والرائحة البيضاء الحادة التي انبعثت من يد كوليت. وشممت رائحة أخرى كذلك. قادني أنفي إلى قطعة من الصابون موضوعة على حافة الحوض، فأمسكت بها. كانت رائحتها حلوة بها لمحة من الحزن. ذكرتني بشيء شممته في إحدى أوراق العبير المختومة بالشمع الأحمر، لكن رائحتها الآن بدت غير منطقية وواهنة، كأنما هربت منها الحياة.

لم أرد أن تمتزج بي هذه الروائح الغريبة، لكنني استوعبت المقصد من الماء والصابون. لذلك، خلعت ملابسي. كان جسدي ما يزال يرتجف، إثر أسابيع تلو أسابيع من الجوع والنوم في الفراش. جلست على جانب الحوض ووضعت قدمًا في الماء. غمر دفء الماء أصابع قدمي، ثم رجلي، فغصت بجسمي كله فيه عدا أنفي. أحاطني دفء الماء وأدهشتني الراحة التي شعرت بها. نظرت إلى جسدي الشاحب كما لو كان مختفيًا في الحوض الأبيض. ووددت البقاء فيه إلى الأبد.

أصبح الماء باردًا، عندما طرقت كوليت الباب وقالت: هل أنتِ بخير؟

- نعم، أنا بخير.

استخدمت الفوطة لتجفيف جسمي وارتديت ملابسي ثم ذهبت إلى المطبخ. أجلستني كوليت على الكرسي الهزاز. نظرت حولي إلى القدور المعلقة والأطباق والزبديات الموضوعة على الرفوف والتفاح في السلة المعدنية. كانت كلها مألوفة لي.

سألتني كوليت: ما رأيكِ ببعض الشاي؟

أومأتُ برأسي. يمكنكِ *فعل ذلك. ليس هذا أمرًا بالغ الغرابة.*

أدارت كوليت رسغها، فأُشعلت النار من سطح صندوق أبيض كبير. صرخت وأنا أجري إلى فراشي. استلقيت على الفراش لساعات وأنا أقبض على زجاجة أبي المختومة بالشمع الأخضر وأنا أتخيل أننا كنا معًا مجددًا في الكوخ. لكن كل الراحة التي تخيلتها كانت حبيسة الزجاجة. وأدركت حينها أن كل شيء لن يغدو كما كان، وأنني لن أستطيع العودة مرة أخرى.

***

تعلمت الكثير من الأشياء في الأيام التي تلت. وفي هذا المكان عرفت أن المواقد لا تستلزم الخشب، وأن الدفء لا يستلزم إشعال النار. وأن الساعة تقسم اليوم إلى أجزاء متساوية، وأن مقياس الضغط الجوي يترجم الطقس إلى أرقام، وأن هنري وكوليت يضغطان أزرارًا فتنير العتمة، ويحملان إلى رأسيهما صناديق صغيرة فيتحدثان إلى أشخاص غير موجودين.

انبعثت من هذه الأشياء الجديدة روائح مختلفة كذلك، تثير الحدة والاضطراب كما لو كانت الروائح تسير بسرعة لتسابق سرعة الحياة. في نهاية كل يوم، أتوق إلى رائحة تراب الجزيرة أسفل قدمي والدخان المنبعث من احتراق أشجار التفاح، ورائحة الشوفان، ورائحة تبغ الرجل الذي سكن قبلنا.

لكن هذه الروائح بدت غريبة عن هذا المكان. لم يصدح في هذا المكان نداء إلى جمع الطعام ولم تظهر الحاجة إلى استخدام المثقاب القوسي. كما أن كوليت أعدت الشاي من أكياس وليس من أوراق أشجار التنوب. لم تُجدِ مهاراتي التي افتخرت بها نفعًا هنا. وبدت المهارات التي احتجت إليها عصية

على الفهم. وفي المساء خلدت إلى النوم وعدت بأحلامي إلى الجزيرة أملًا في العثور على البيت، لكنني استيقظت على صوت صراخي.

***

كان شعر هنري، رسول حوريات البحر، أبيض اللون. لكن طاقته ماثلت طاقة شخص أصغر بكثير في العمر. أمضى هنري وقته يعمل على مقربة، ومطرقته تصدر إيقاعًا ثابتًا على مدار اليوم. واتسم بالهدوء عند وجوده في المنزل. نظرت إليه وهو يراقبني وينتظر أسئلتي. اعتاد أبي فعل ذلك مع الدجاج عندما تهتاج، فقد كان يقف بجانب القن حتى تهدأ. أصابتني تلك الذكرى بالدوار... كانت مؤلمة وقاسية. وتساءلت إن كنت سأستطيع يومًا اعتياد غيابه.

سألت هنري في النهاية السؤال الذي أجلته خوفًا من الإجابة: كيف عثرت عليَّ؟

نظر هنري إليَّ كما لو كان يوازن أموره ثم قال: إن جنكنز العجوز، الذي يعيش أيضًا في الجزر، وجد أبا...

خرجت كوليت من المطبخ وأدارت رأسها قليلًا باتجاهه.

سعل هنري باديًا عليه الحرج وقال: أنا آسف يا إيميلين.

أنا السبب، أنا السبب، أنا السبب.

- لقد اضطررت إلى انتظار التيار المناسب لعبور القناة، لقد كان من الصعب عليَّ الانتظار وأنا أعلم أنكِ هناك وحدكِ.

ثبَّتُّ نظري على يدي التي وضعتها في حجري. لم أرد التفكير بما حدث تلك الأيام. وأحسست بيد كوليت على كتفي.

قالت كوليت: ما زلت أتذكر اليوم الذي أحضركِ فيه أبوكِ إلى هنا.

أرغمتني كلماتها إلى النظر إليها وقلت: ماذا؟

أومأت كوليت برأسها وقالت: كنتِ صغيرة جدًّا وبالكاد تمشين. شعرنا وقتها أن أباكِ كان يصارع شيئًا ما. شأنه شأن كل من يأتي إلى هنا، لو كنتِ تعلمين.

ثم أضافت بنبرة توحي بالتأكيد على ما تقول: لكن حبه لكِ لم يكن محلًا للشك. كما استطاع الاعتناء بكِ جيدًا. تأكدي أنني لم أكن لأدعه يأخذكِ إلى الجزيرة إن لم أكن متأكدة من ذلك.

أومأ هنري برأسه مؤكدًا على كلامها ثم قال: إن السعي إلى الخلوة أمر لا دخل لنا به. لكننا لا نقف مكتوفي الأيدي في وجه القسوة. وقد استطعنا الاطمئنان على حياتكما معًا في الجزيرة من الأشياء التي طلبتها.

- ماذا تقصد؟

- لقد ترك أبوكِ لي ملاحظات في الصناديق الفارغة ليعلمني إن أردتِ شيئًا مميزًا.

اهتدى تفكيري إلى المعطف الأزرق الواقي من المطر، وإلى الكتب، والشوكولاتة، وإلى كليو، فنظرت إلى الخارج حتى لا ينظران إلى عيني.

ثم قالت كوليت: أظن أن هذا يكفي لليوم.

***

مر وقت في حياتي شعرت فيه أنني ناضجة وقادرة على الاهتمام بشؤوني، أما الآن فقد أصبحت أخاف جدًّا الخروج من المنزل ومواجهة العالم. بقيت معظم الوقت في غرفتي، أقص على نفسي القصص التي حكاها لي أبي من كتاب القصص الخيالية، عن ذات الرداء الأحمر وهي تجري بين الأشجار، والجني، الذي يزداد قوة بمرور الوقت، الذي يختبئ في المصباح. والأطفال التائهين في الغابة من دون شيء عدا فتات خبز يقيم أودهم. ظننت أن ترديدي للكلمات في رأسي سيرشدني في تيه هذا المكان، لكنها أفلحت فقط في مساعدتي على التناسي. ومع ذلك، واصلت ترديد القصص أملًا في حدوث معجزة، وإعادة كتابة نهاية قد سُطرت بالفعل.

كان الكلب دودج هو من انتشلني مما أنا فيه. في البداية، ارتعبت من الاقتراب من شعره الخشن وأسنانه الحادة التي تشبه الدب كثيرًا، حتى وإن كان شعره بلون الذهب وخطمه أبيض وعيناه الهادئتان باللون البني الدافئ. اعتدت الوقوف على مدخل باب المطبخ أو غرفة المعيشة ولم أستطع الدخول حتى تُخرجه كوليت إلى عتبة المنزل.

ثم في أحد الأيام، بمجرد رؤيتي قرب المطبخ، نهض دودج ببساطة واتجه إلى باب المنزل منتظرًا أن يُفتح له، كما لو كان يعي الدرس جيدًا. فتحت كوليت الباب له وسمعتُ صوت ارتطام جسده على ألواح العتبة الملونة.

وقفت في النافذة أراقبه. غط دودج في النوم مجددًا وأصبح تنفسه هادئًا ومعتدلًا، ثم فجأة رفع رأسه وأبقى أنفه شديد التيقظ. استغرق الأمر من مكاني، على الطرف الآخر من النافذة، لحظة قبل أن تسري إلى أنفي رائحة المحرك ورؤية هنري يقترب من المرفأ. نهض دودج واقفًا، بينما تصلب جسمي من الرائحة، ومشى بهدوء إلى الرصيف منتظرًا ربط هنري لقاربه. راقبت هنري وهو ينحني ليربت بيده على ظهر دودج.

سار هنري ودودج معًا إلى المنزل. وعند وصولهما، فتح هنري الباب لكن دودج لم يدخل. نظر هنري إليه، وأمال رأسه.

قال هنري: هل ستظل بالخارج أيها الكلب العجوز؟

رفع دودج رأسه ورآني في النافذة، فاستلقى على عتبة الباب الأمامي. ثم أدركت أنه فعل ذلك لحمايتي.

***

اعتدت بعد ذلك مراقبة دودج طوال الوقت. رأيت بعيني كيف يمكنه فقط من خلال الرائحة معرفة أن الخبز الذي تعده كوليت نضج، أو أن يجد سنجابًا على بعد ثلاثين مترًا تقريبًا، أو يعرف تغيير اتجاه الرياح، بل أنه تعرَّف حتى على كل من الصيادين الخمسة الذين أبقوا قواربهم في الخليج. كان دودج يجري عادة ليحييهم وهو يهز ذيله، لكنه ابتعد عن واحد منهم بعينه.

على مدار الأيام التالية أصبح دودج دليلي لفهم العالم خارج المنزل. وبات العالم أكثر أمنًا بمساعدة حاسة شمه. وأدركت أني أردت استنشاق الهواء، الصافي، الذي تدب فيه الحياة، والذي يحمل الكثير من الرسائل من حولي مثله.

وفي ذات مساء، نظرت إلى الخارج فوجدت دودج ينهض على قدميه وكل عضلة في جسده مشدودة وهو يحدِّق إلى الماء. استطعت حتى وأنا في الداخل شم رائحة تقلب الهواء. كان الهواء كثيفًا، يحمل نفحة من المعدن.

تذكرت ذلك الشعور، والطريقة التي تنكمش بها الأشجار على نفسها، ورائحة النسغ[1] الحادة.

إنها عاصفة.

قلت لكوليت: ينبغي أن تدخلي دودج إلى المنزل.

نظرت إليَّ كوليت باستغراب.

- ستهب عاصفة قوية.

- حقًّا؟ كانت السماء صافية في الخارج.

- انظري إليه، إنه يعلم.

نظرتْ كوليت إلى دودج ثم ذهبتْ لتفقد مقياس الضغط الجوي.

- حسنًا، إنكما حقًّا مدهشان.

ومن ثم فتحتْ كوليت الباب ليدخل دودج، لكنني لم أغادر عند دخوله هذه المرة.

***

ذلك المساء، تساقط المطر على النوافذ بينما كان هنري وكوليت يتمتمان في المطبخ بكلام لم أميزه. وجلست أنا ودودج في غرفة المعيشة بجانب النار. ناولتني كوليت كتابًا كبيرًا يسمى «أطلس» وقالت إنه سيريني العالم بأسره. لكنني لم أجد سوى صفحات مسطحة وأشكالٍ ملونة.

قالت كوليت مشيرة إلى حافة على مساحة كبيرة من اللون الأخضر مقابل مساحة أكبر من اللون الأزرق: ها نحن هنا.

ثم وضعت إصبعها على مكان بعيد على الطرف الآخر يسمى «مونتريال»، وقالت: أما أنا فقد ولدت هنا.

ثم سارت بإصبعها إلى أسفل، خلال مجموعة من الأشكال الصغيرة حتى وصلت إلى كلمة «نيويورك»، وقالت: وقد قابلت هنري هنا. ثم أضافت وهي تبتسم مستعيدة تلك الذكرى: كنت أتمشى في الحديقة الكبيرة ثم قابلته هناك. قال لي هنري حينها إنه يود الابتعاد عن كل شيء، وإن لديه عرضًا

(1) السائل الذي ينتقل عبر خلايا النسيج الوعائي الخشبي أو خلايا اللحاء في النبات وهو يخرج من الشجرة إذا قطعت.

لوظيفة ناظر أملاك في آخر الدنيا، وقد سألني الذهاب معه. كنت مستعدة لتجربة مغامرة جديدة وأردت أن أكون معه، لذا وافقت على مرافقته خلال فترة الصيف.

أضافت كوليت ضاحكة: لكن أظن أن إقامتي طالت، أليس كذلك؟

استشعرت الحب في صوت كوليت ووددْت أن أضيع داخل ذلك الشعور وألا أستيقظ أبدًا. بدا حبها بسيطًا وحقيقيًّا، ليس كالحب الذي عايشته وعرفته. كان حب أبي مربكًا وضبابيًّا من كثرة الأسرار، حبيسًا داخل حدود الجزيرة.

سألت كوليت: أين عشت أنا إذن؟

طوت كوليت الصفحات حتى عثرتْ على صفحة مشابهة لصفحات أخرى، لكن كان كل ما كتب عليها أكبر وأكثر تفصيلًا. بدت الصفحة أجمة من الأخوار والجزر باللونين الأزرق والأخضر، ثم أشارت كوليت إلى نقطة في منتصف الصفحة. ضاعت النقطة في بحر النقاط حولها بمجرد أن رفعت كوليت إصبعها عنها.

ظننت أني لن أجد طريقي إلى المنزل أبدًا. وحتى إن فعلت، فلم يتبقَّ لي شيء هناك بعد الآن.

جلست أمام النار والأطلس في حضني، أفتش أين يمكن أن تكون جزيرتي. كان دودج يغط في النوم عند قدمي وتنبعث منه رائحة الطبيعة، رائحة الصوف المبلل والأشجار والمطر. جثوت على الأرض ووضعت يدي على ظهره برفق. فتح دودج عينيه ووضع ذقنه على قدمي. ظللنا معًا مغتبطين برفقتنا، لوقت طويل والرياح تعوي في المزاريب وقطع الحطب تجرجر في المدفأة.

سرى إلى مسامعي، خلال هدوء العاصفة، بعض من حديث كوليت وهنري في المطبخ.

قال هنري: ماذا يجب علينا أن نفعل؟

- نبقيها معنا.
- لكن ماذا إن كان أحد ما يبحث عنها؟
- كيف يمكننا العثور عليه يا هنري إذن؟ إننا لا نعرف حتى اسم عائلتها. كل ما نعرفه أن اسمها إيميلين وأن أباها اسمه جون. وأنه كان يدفع نقدًا، وأنها تقول إن عيد ميلادها أول أيام الربيع.

- يمكننا أن نضع إعلانًا.

- وماذا بعد! وندعو إلى عتبة منزلنا المعاتيه والمعتدين على الأطفال؟ بالطبع لن أقبل بذلك.

- إذن لنعين محققًا خاصًا.

- أنت تعرف أننا لا نملك المال اللازم لذلك يا هنري.

ساد الهدوء في المطبخ ثم سمعت صوت كوليت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا. تحرك صوت هنري من موضعه. قالت كوليت بنبرة حانية: لقد مر أكثر من عشر سنين منذ وصولهما إلى هنا ولم يأتِ أحد للبحث عنهما. ربما قد يكون هناك سبب لذلك.

- ماذا سنخبر الناس إذن؟

- سنخبرهم ببساطة أنه تربطنا بها صلة قرابة وأنها أتت للزيارة. وسنمنحها اسم عائلتنا.

ساد صمت طويل فحبست أنفاسي. سمعت إيقاع الملعقة الخشبية وكوليت تحرك شيئًا على النار على جوانب المقلاة.

شعرت باللهفة في صوت كوليت وهي تقول: إنها طفلة يا هنري. وقد مرت بالكثير. لا تجعلنا نزيد من معاناتها.

قال هنري أخيرًا: حسنًا.

***

جلست في غرفة المعيشة إلى جانب دودج وأصابعي مشبكة في شعره الناعم أفكر بما قاله. عندما عشت في الجزيرة كان اسم إيميلين فقط هو كل ما احتجت إليه. وتجسدت معاني الأبوة كلها في حضن أبي. وتمثل عيد ميلادي في عبير زهرة البنفسج. لكن ذلك كله لم يعد كافيًا بعد الآن.

من أنا يا أبتي؟ ومن كنت أنت؟

أصبحت أسئلتي أكثر حدة وقسوة.

لماذا لم تخبرني؟

الخليج السري

في تلك الليلة، لحقني دودج عندما ذهبت إلى غرفتي واستلقى على الأرض بجانب فراشي. ملأ صوت نفَسه المسافة بيني وبين الزجاجة الموضوعة على خزانة الأدراج، وأدركت عندها أن هذه أول مرة أنام فيها في تلك الغرفة بصحبة شيء آخر سوى ذكرياتي.

غط دودج في نومه وتحولت أنفاسه إلى شخير، أما أنا فتحتم عليَّ اتخاذ قرار؛ إما العودة إلى الماضي وإما المضي قدمًا. كان الخيار واضحًا. عنت العودة إلى الماضي التشبث بالقصص الخيالية وإحراق آخر ما تبقى من أوراق العبير. لذا، لم يعد أمامي خيار سوى المضي قدمًا، فوضعت الزجاجة في خزانة الأدراج.

في صباح اليوم التالي، استيقظت أنا ودودج وذهبنا نحو المطبخ. في أثناء مرورنا بالباب الأمامي، توجه دودج نحوه وحك جسده حتى يفتح له الباب.

شعرت بحرارة المنزل وانتظار الزجاجة التي تحمل ماضيًّ يطبق عليَّ. تحرك دودج ونظر إليَّ ثم بدأ يحك مجددًا، عندها، أمسكت بمقبض الباب وفتحته.

***

كنت قد نسيت شعور الهواء النقي بعد المطر، إثر أسابيع من البقاء في كنف المنزل. حولت العاصفة صخب العالم إلى سكون. وأصبحت حافة الخليج الداخلية، دائمة الخضرة، مشبعة بالماء حتى بدت سوداء، ومن ورائها السحب الرمادية ومياه المحيط اللامعة يتعانقان. كان في المرفأ ممشَيان خشبيان طويلان، مربوط بأحدهما قارب هنري الأبيض الراقد على المياه الداكنة.

نزلت درجات السلم حافية القدمين، ورفعت رأسي إلى السماء لينزل الندى على جسمي. شممت رائحة الطين والخشب الندي وخضرة الأشجار الأليفة.

- أهوي[1] يا آنسة إيميلين.

فتحت عينيَّ ورأيت هنري يعمل على قاربه، ملوحًا بيده بشكل عفوي كما لو أن خروجي من المنزل حدث عادي.

سمعت صوت كوليت يهدر خلفي نحو الباب الأمامي.

- أيها الرجل العجوز، هل تركت الباب مفتوحًا؟ سيصبح المنزل باردًا...

صمتت كوليت عندما رأتني، ثم أضافت والفرحة بادية في صوتها: انظري إليكِ. لقد خرجتِ من المنزل بحثًا عن المغامرة.

هرعت كوليت نحو الداخل ثم عادت تحمل حذاءً ومعطفًا واقيًا من المطر، ثم قالت: يجدر بكِ ارتداؤها.

جلست كوليت إلى جانبي على درجة السلم الأخيرة، بينما أنا أنتعل الحذاء الذي كان أكبر من مقاسي بقليل. قالت كوليت مشيرة إلى لافتة خشبية معلقة على الممر الواسع مكتوب عليها «منتجع الخليج السري»: مرحبًا بك في خليجنا. إنه ليس منتجعًا كبيرًا لكنه ملكنا.

نظرتُ خلف الممر الواسع فرأيت سلسلة من الأكواخ الصغيرة ملونة بألوان زاهية صارخة منها الأصفر، والأزرق، والمشمشي، والأحمر. لو كان لتلك الأكواخ صوت، لتعالى منها صوت القهقهة في وسط الخضار المنتشر في المنحدرات حولها.

قالت كوليت: إن هنري يحب استعمال فرشة الدهان كثيرًا.

---

(1) نداء يستخدمه البحارة للفت الانتباه.

ركزت نظري على التلال الطويلة الداكنة المهيبة التي لا تنتهي، والقادرة على مجابهة الصعاب. سألت كوليت بصوت خفيض: هل هناك دببة؟

- أنتِ في أمان هنا.

عدت بنظري مجددًا إلى تفحص المرفأ. تتبعت كوليت نظراتي ثم قالت: لقد أخذ الصيادون قواربهم بالفعل، ولن يعودوا إلا بعد مرور عدة ساعات. ونحن لن نستقبل ضيوفًا في الأكواخ حتى قدوم الصيف.

استرخت كتفاي وجرى دودج قافزًا إلى حضني.

قهقهت كوليت وقالت: لا تقلقي، يستطيع دودج أن يريكِ المكان وأنا سأظل هنا إن احتجتني. ربتت كوليت على ظهري ودفعتني بحنو.

- اذهبي للاستكشاف، لن يصيبك مكروه.

كان هذا ما قاله لي أبي، منذ زمن بعيد.

***

سرت أنا ودودج نحو الممر الواسع. أبقيت تنفسي بطيئًا وأنفي على أهبة الاستعداد لأي علامة من علامات الخطر، لكن دودج كان غير مبالٍ. تبختر دودج أمامي متكئًا على ردف أكثر من الآخر.

عندما اقتربنا من الأكواخ، استطعت رؤية القواعد القوية التي ترتكز عليها في الماء المزبد، وسطح الماء مكسو بالطحالب الخضراء النابضة بالحياة. جعلتني ألوان الأكواخ أظن أنها منفصلة بشكل ما عن الخليج، لكنني أدركت الآن أنها ستظل دائمًا جزءًا منه ومن الغابة.

كانت الأكواخ ساكنة تترقب في صمت تام، وكان لحذائي وقع رقيق على الألواح العريضة البالية، أصبح حينها تنفسي منتظمًا. اختلست النظر إلى إحدى الشرفات فرأيت كرسيًّا هزازًا قديمًا وفراشًا عليه لحاف مرقع باللونين الأحمر والأبيض. تذكرت كوخنا في الجزيرة وهو خالٍ الآن في ترقب. ترى هل سيكتشفه شخص ما؟ هل سيعثر على أدراجنا المعلقة على الجدران ويشم رائحة تبغ الرجل الذي سكن قبلنا؟

امضي قدمًا يا إيميلين ولا تعودي إلى الوراء.

واصلت السير.

سرت أنا ودودج بطول الممر الواسع المنحني حتى نهايته قرب مدخل المرفأ. كان هناك مبنيان كبيران أحدهما أحمر، والآخر أزرق. لا بد وأن هنري لم يشرع في العمل عليهما بعد؛ لأن ألوانهما كانت باهتة جدًّا. كان المبنى الأحمر عاديًّا وطويلًا ومكونًا من طابقين. وتسلق على الباب نوعان من النباتات الشائكة -التي لم أميزها- من برميلين خشبيين. عبثت رائحة العشب الأزرق المائل للخضار بذهني لكنني لم أستطع تمييزها، لذا واصلت السير.

كان المبنى الأزرق بسيطًا كذلك، ونوافذه مكشوفة. نظرت داخل إحدى النوافذ ورأيت شيئًا ما أبيض يسبح تحت السقف الطويل.

إنه شبح. وليت إلى الخلف وبحثت عن دودج حتى أرى ردة فعله، لكن نظره كان مثبتًا على مدخل المرفأ. سمعت صوت محرك آتيًا وشممت رائحة البنزين الأصفر الحادة. لم يستعمل البنزين، بدلًا من الديزل، سوى صياد واحد، وهو من لم يذهب دودج قط إلى تحيته. ويعني هذا أن القارب سيمر بقربنا تمامًا في طريقه إلى المرفأ. زمجر دودج بصوت خفيض.

فهمت فورًا ماذا أراد. أدرت مقبض باب المبنى الأزرق ففتح الباب مصدرًا صريرًا.

- هيًّا يا دودج. دلفنا إلى الداخل وأغلقت الباب بهدوء خلفنا.

***

استغرقت بعض الوقت حتى استطاعت عيناي التأقلم. رأيت العظام البيضاء الضخمة المثبتة في أقواس جميلة أولًا وهي تتدلى من السقف، وبقربها مخلوقات صغيرة لها جماجم صغيرة وأيدي وأرجل طويلة وأظافر طويلة كذلك. كما عثرت على طاولة مفروش عليها المزيد من الهياكل العظمية منظمة حسب الشكل والحجم.

أدركت أنني كنت أحبس أنفاسي. وتجمدت من الدهشة عندما أخذت نَفَسي.

لقد كانت الرائحة مألوفة لي.

حملت الرائحة عبير البحر الجاف النابضة بالملح والخالية من الأعشاب، وكذلك رائحة الجلد القديم والخشب العتيق، ونفحة من الرائحة الزرقاء المائلة للخضرة المنبعثة من النباتات المزروعة في البراميل خارجًا. دون سابق إنذار، سبحت عميقًا في إحدى ذكرياتي، ورأيت أبي يخرج إحدى أوراق العبير من إحدى الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر ونحن نغوص في عالم آخر.

كان ياما كان يا إيميلين، التقى جاك ساحرًا يستطيع تحويل المحيط إلى عظام.

من هنا انبعثت رائحة العبير مجددًا، لا من الزجاجة، بل من هذه الغرفة. ها هنا قد كان يسكن العبير.

أمضيت سنوات أرغب في أن أصبح صيادية عبير. وأن ألتقي جاك المغوار، وأن أكتشف الأماكن التي ذهب إليها. والآن ولأول مرة، عثرت على مكان تماثل رائحته رائحة العبير في إحدى الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر.

قلت في عتمة الغرفة: عثرت عليك يا جاك.

لكنني تذكرت أن جاك لم يكن الشخص الوحيد الذي أتى إلى الخليج السري. وبت أتساءل في ظلمة الغرفة، *ترى من كنت يا أبي؟*

***

عاودت أنا ودودج المسير على الممر الواسع وعقلي مشتت. لذا لم أرَ في البداية الأشخاص المتجهين نحوي. وفات أوان الاختباء عندما فعلت.

كان هناك شخصان، رجل وامرأة. ارتدت المرأة سروالًا ضيقًا جدًّا، حتى ظننت في أول الأمر أن رجلها زرقاء اللون. وأصدر حذاؤها قرقعة وهي تمشي على الألواح. كان الرجل الواقف إلى جانبها طويلًا يحمل على كتفه أداة سوداء غريبة الشكل لها عين واحدة تحدق باتساع إلى العالم.

إنه الصقلوب[1]، المسخ ذو العين الواحدة.

(1) الاسم المعرب للكلمة الإغريقية التي تعني دائري العين. والصقاليب مسوخ من جنس الجبابرة، ذوو عين واحدة وسط الجبهة، وهم في الأساطير الإغريقية عمال مهرة يصنعون الصواعق وأسلحة الآلهة ويحققون الأعمال الكبيرة والضخمة.

رأتني المرأة فنادت قائلة وهما يقتربان: مرحبًا. هل تعيشين هنا؟

ظننت أن شفاه المرأة تقطر دمًا من شدة الحمرة، وكانت رموشها كثيفة كالعصا. انبعثت منها رائحة عطر قوية ومربكة، من رحيق أزهار لم تنبض في أوصالها الحياة يومًا. تشابكت الروائح معًا، كتشابك الأيادي أثناء العراك، وددت أن أفصل بين الأطراف المتنازعة بيدي، بينما وقف دودج صامتًا إلى جانبي.

قالت المرأة: إننا نُعِد تقريرًا عن الخليج السري.

رفع الرجل الأداة الغريبة على كتفه لتمسح بعينها الخليج. تساءلت إن كانت تلك الأداة تستطيع ابتلاع المرء بداخلها، كما استطاعت آلة أبي التقاط الروائح، لذلك خطوت نحو الوراء.

حينها سمعت صوت أحد أبواب الكوخ تفتح. التفتُ ورأيت هنري يسير نحونا ممسكًا بمطرقة في يده: من أنتما؟

تراجعت المرأة إلى الخلف واحمرَّ وجهها، ثم ربتت على كتف الرجل فأنزل الآلة التي كان يحملها. تحركتُ بسرعة إلى جانب الممر الواسع وأنا أراقب ما يحدث.

قالت المرأة وهي تمد يدها بالتحية إلى هنري: نرجو أن تقبلوا أسفنا. أنا تيري أندرسون من قناة «سي تي في» (CTV). إننا نعمل في برنامج يسمى *خَلَوَات* مكنونة؟ هل الاسم مألوف لك؟

أدار هنري رأسه نافيًا. رفعت المرأة حاجبيها قليلًا باستغراب ثم ابتسمت.

- أيًا يكن. الأمر هو أننا نذهب دون سابق إنذار إلى أماكن نظن أنها ستصبح ذات شأن عظيم مستقبلًا. لقد رأيت صورة لخليجكم، في مقال صحيفة *ذا ديلي صن* هذا عن الزجاجات إن كنت تعرفه؟ وبمجرد رؤيته عرفت أن علينا أن نُعد تقريرًا عنه. لقد استغرقنا كثيرًا من الوقت لمعرفة كيفية الوصول إليكم. إنكم بعيدون حقًّا، أليس كذلك؟

- نعم.

- لا بد وأنك هنري، المالك؟

أومأ هنري برأسه فواصلت المرأة الحديث: وهذه الفتاة اللطيفة، هل هي ابنتك؟ رأيتها تدور بنظراتها بيني وبين هنري وهي تتأمل شعره الأبيض بشيء من الشك.

- تجمعنا صلة قرابة.

- سيسعدني اشتراكها في التقرير.

أشارت تيري إلى الرجل الذي يحمل الكاميرا فبدأ يديرها تجاهي، ثم أضافت: إن لم تمانع بالطبع.

قال هنري الذي تحرك ليقف قبالتي: إنها لا تحب التصوير.

- هل أنت متأكد؟ إنها لطيفة جدًّا.

- نعم، أنا متأكد.

قالت تيري وهي تهز كتفها: حسنًا، علينا إذن أن ننتهز فرصة سطوع الشمس ونصور هذه الأكواخ اللطيفة. أضافت وهي تبتسم بشكل ودي: إنك لا تمانع، أليس كذلك؟ إن متابعينا سيتكالبون عليكم يا هنري، وسيغير تقريرنا حياتكم. إلا أنني أظن أنه يتوجب عليكم إصلاح الطريق أولًا، فسيارتنا تغوص في الوحل إلى نصفها.

***

لقد كان عصرًا طويلًا. سار هذان المتطفلان على الممر الواسع، وأصرت تيري على إجراء لقاء مع كل من كوليت وهنري وكان صوتها كرائحتها، نابضًا بالحركة.

- إذن، هل قمت بدهان هذه الأكواخ كلها بنفسك؟

أدار الرجل، الآلة ذات العين السوداء، نحو هنري لكنها لم تُخرج أي أوراق بعد.

أومأ هنري برأسه، وانتظرته المرأة حتى يواصل الحديث لكنه لم يقل شيئًا.

التفتت تيري بسلاسة إلى كوليت ثم سألتها: وماذا عن زبائنكم؟ لا بد وأن المكان وجهة خلابة في الصيف.

كانت عينا كوليت تشعان بالدفء والترحاب وهي تقول: لدينا زبائن رائعون، معتادون على القدوم سنويًا.

سألتها تيري بحماس: أعلم أن موسم الزيارة لم يبدأ بعد، لكن هل صادفتم قدوم أي زبائن بحثًا عن الزجاجات؟ تعلمون أننا نواصل القراءة عن تلك الزجاجات التي ظهرت قبالة الشواطئ القريبة من هنا. زجاجات مختومة بالشمع وبها أوراق لكنها خالية من الرسائل. شيء غامض أليس كذلك؟

كنت واقفة على الجانب شبه مختبئة خلف أحد أعمدة شرفة المنزل.

بت أردد في سري *لا تخبريها رجاءً، لا تخبريها رجاءً، لا تخبريها رجاءً.*

رمقتني كوليت بطرف عينها بالكاد، ثم ابتسمت نحو تيري قائلة: إننا لم نحتج قط إلى صنع جلبة حتى نبقي عملنا مزدهرًا.

- حسنًا، وبالتأكيد لن تحتاجوا إلى ذلك بعد الآن.

التفتت تيري أخيرًا نحو الآلة للتحدث: أسرعوا في حجز أماكنكم اليوم، فالخليج السري لم يعد سريًا بعد الآن. هذه محدثتكم تيري من برنامج *خَلَوَات* مكنونة على قناة سي تي في. نرجو أن تصبح عطلاتكم كالقصص الخيالية.

النُّزل

شاهدنا التقرير يعرض على التلفزيون في غرفة المعيشة. لم أستطع تصور كيف يمكن للتلفزيون عرض أشخاص غير موجودين، وأماكن يصعب الوصول إليها.

سألت هنري عندما أراني التلفزيون أول مرة: من أين تخرج الروائح؟ ضحك هنري من سؤالي.

- سيكون أمرًا مدهشًا إن استطاع التلفزيون نقل الروائح كذلك.

هممت بالحديث عن آلة أبي لكنني تذكرتها وهي محطمة إلى قطع على أرض الكوخ، لذا لم أقل شيئًا.

خلال الأيام التي تلت عثوري على المبنى ذي العظام المعلقة، تفحصت الآلات التي وجدتها في منزل هنري وكوليت كلها. عثرت على بعض الآلات التي تلتقط صورًا للوجوه، أو تسجل الأصوات، أو تصدح بالموسيقى، لكنها كانت جميعها مختلفة عن آلة أبي.

تذكرت أبي وهو يقف في كوخنا، وهو يقتنص عبيرًا من حياتنا، ويحفظه على قصاصة ورق.

كيف تعمل هذه الآلة يا أبي؟

بقليل من العلم والسحر معًا يا إيميلين.

الآن، تدور ذكرياتي عن أبي في فلك الأسئلة، وكانت الأفكار تعصف بذهني وتتحرى كل ما مررت به بحثًا عن أدلة.

سألت هنري تلك الليلة بعد أن عثرت على المبنى الأزرق: لماذا ذهب أبي إلى الجزيرة؟

أدار هنري رأسه وقال: أنا آسف يا عزيزتي، فأنا لا أعرف بصدق لماذا فعل ذلك.

أجاب هنري الإجابة التي ظننت أنه سيجيبها، لكن وقعها على مسامعي لم يسهل عليَّ الوضع. بدا من المؤكد أن عليَّ العثور على إجابة هذا السؤال بنفسي، لكنني لم أملك ما يكفي من الأدلة سوى ذكرياتي ورائحة غرفة ملأى بالعظام.

***

جلست أنا وهنري وكوليت على الأريكة نشاهد شاشة التلفزيون البرَّاقة في ترقب. ظل دودج على الأرض واضعًا ذقنه على ركبتي.

قالت كوليت فجأة مشيرة إلى التلفزيون: ها هو ذا التقرير. زينت أكواخنا، زاهية اللون، المياه كعِقد من الزهور البرية. بدا هنري متحفظًا لكن ودودًا، وشعت عينا كوليت بكرم الضيافة.

صدح صوت تيري من صندوق التلفزيون، والكاميرا تركز على منحنى الخليج والقوارب في المرفأ: كان ياما كان، كان هناك مكان سحري في نهاية طريق طيني.

قالت كوليت لهنري طابعة قبلة على وجنته: إنه جميل جدًّا. ابتسم هنري ممسكًا بيدها، وبت أنظر إليهما كما لو كانا شخصيتين من قصة خيالية أقرأ عنها.

***

في الصباح التالي، توالت الاتصالات الهاتفية. وبحلول نهاية الأسبوع، سجلت كوليت رسالة صوتية حتى لا تواصل الرد على الهاتف. استغرقتُ بعضًا من الوقت حتى اعتدت على سماع صوتها يسبح وحده في فضاء المنزل

مثل الطيف: *هنا منتجع الخليج السري. إننا نعتذر عن استقبال حجوزاتكم لاكتمال العدد طوال الصيف، لكن...*

وجَّه هنري سؤاله لكوليت ونحن نتناول طعام الفطور: ماذا سيحدث لنزلائنا المعتادين؟

أجابت كوليت وهي تدون ملاحظتها في كتاب الحجوزات وهي تقطب جبينها: لقد أبقيت أماكنهم كما هي، لكن الوضع سيكون صعبًا.

قال هنري ثم هب واقفًا وسار نحو النافذة: ستتغير الأمور. كان الخليج هادئًا ومطمئنًا واضطر الضباب الكثيف الصيادين أن يبقوا في منازلهم. وأسبل ستاره الأبيض الرقيق على فروع الأشجار.

وضعت كوليت قلمها الرصاص جانبًا ونظرت إليه قائلة: أنا أعلم صدقني، لكننا قد نستعين بهذا المال.

تيبس جسم هنري، لكنه عاد بعد لحظة وجلس على الطاولة إلى جانبها قائلًا: كنت أفكر في إعادة تجهيز النُزل. يمكنني أن ألقي نظرة عليه وأنظر ما يجب فعله.

قالت كوليت والارتياح بادٍ على وجهها: سيكون هذا رائعًا.

ساد الهدوء في المطبخ، ومضى قليل من الوقت حتى وقف هنري ووضع أطباقه في الحوض.

- أظن عليَّ الذهاب إلى العمل.

سألته كوليت وهو يهم بالخروج من المطبخ: هل تظن أن علينا توصيل الإنترنت؟ رأته كوليت وهو يتوقف، أضافت: كل ما في الأمر أن الناس يواصلون طلب ذلك.

قال هنري بحزم: لا. ثم عاد ونظر إليها قائلًا: لقد شاهدت ماذا حدث إلى «منتجع الخليج الكبير». يسميه جورج «سكرين فيل» الآن. سأفعل كل ما يقتضيه الأمر عدا هذا.

خرج هنري دون أن ينطق كلمة أخرى. غسلت كوليت الأطباق وهي تراقبه يسير على الممر الواسع. فكرت أنني السبب فيما جرى، فالزجاجات التي

ألقيت بها هي من جاءت بهذه المرأة إلى خليجنا، وتسببت في قلق هنري وكوليت الآن. لقد كنت أنا السبب، مجددًا.

***

جاءت كوليت بعد فترة وجلست قبالتي على الطاولة وقالت: إننا في حاجة إلى مساعدتكِ *ما شيري*.

نظرت إليها بتوجس.

- سيكون لدينا الكثير من النزلاء هذا الصيف.

أدرت رأسي رافضة.

- أعلم، ولكنكِ قد تساعدينني في تنظيف الأكواخ وتغيير الشراشف. وسيكون هذا كتدريب على التحدث إلى الناس قبل ذهابكِ إلى المدرسة.

- المدرسة؟

- نعم، ستحبين الذهاب إلى المدرسة فسيكون هناك أطفال بمثل سنكِ، وكذلك كتب.

أدرت رأسي ثانية. أربكتني تصور فكرة مجموعة من الأطفال. فقد اعتدت بالكاد على وجود هنري وكوليت. ترى ماذا سأفعل من دون دودج وهو يخبرني بمن أثق؟ شيء ما أوحى لي بأن الكلاب غير مسموح بها في المدارس.

ابتسمت كوليت والمودة بادية في عينيها ثم قالت: إننا لا نملك خيارًا للأسف. لكنني تحدثت مع مسؤولي المنطقة التعليمية، وأخبروني بأن بإمكاننا تأجيل ذهابكِ هذا الربيع لكن يجب عليكِ الذهاب بحلول الخريف.

حاولت إخفاء أمارات القلق البادية على وجهي.

- لا تخافي. سيكون الأمر على ما يرام.

ثم رن الهاتف ثانية.

***

توجب علينا الاهتمام بأمور كثيرة قبل حلول الصيف، لكن مع ذلك خصصت كوليت بضع ساعات كل صباح لتدرسني. لم أخبرها أن هذه هي الطريقة نفسها التي بدأ بها أبي صباحه يوميًّا، كما لم أخبرها بتحطم فؤادي كل مرة نجلس فيها على طاولة المطبخ لندرس كتابًا ما.

قالت كوليت مشجعة: إن لديكِ الكثير من المعلومات، خصوصًا عن العلوم. لقد أحسن أبوكِ صنعًا.

عدا أنه لم يخبرني قط عن الأمور المهمة حقًّا.

***

قرب المساء، عملت مع هنري في النُزل ودودج بصحبتنا. كان الجو باردًا في النُزل لكنني أحببت الإيقاع الثابت للعمل، وتعلمت كيفية استخدام فرشاة الدهان، وإزالة الأوساخ التي علقت بالنوافذ لمدة ثمانين عامًا، ودق سطر مستقيم من المسامير. كان من المريح الشعور بمتانة المطرقة أو الفرشاة، ومعرفة كيفية استخدام شيء يمكنني الإمساك به في يدي. شيء لن يختفي بحلول الصباح. شيء بسيط لا يحتمل التعقيد.

كنا نعمل عادة بهدوء، لكن هنري كان يخبرني أحيانًا بقصص عن الخليج.

سألته، مشيرة بفرشاة الدهان إلى المبنى الأزرق المجاور: هل هذه عظام حوت؟

وقعت من الفرشاة قطرات من اللون القشدي الأبيض على الأرض فسارعت بمسحها بقماشة قبل أن تجف.

- نعم، إنه متحف الحيتان. إنها تخص البروفيسور. لقد اعتاد الناس إحضار الهياكل العظميَّة التي يعثرون عليها إليه، فينظفها ويتبرع بها إلى المتاحف.

إنه الساحر إذن. قلت بلهفة: أين هو؟ ربما سيجيبني البروفيسور عن أسئلتي.

نظر هنري إليَّ بفضول ثم قال: لا أعرف. لقد اعتاد القدوم في فصل الصيف كل عام، لكنه لم يأتِ منذ سنين. لقد كان طاعنًا في السن، وأنا أحتفظ بالعظام تحسبًا، لكن...

شعرت بالفرصة تتفلت من يدي، وبفقدان دليل آخر وضياعه، ككل مرة تسنح لي فيها مناسبة معرفة قصة حقيقية. وفي نهاية المطاف، بدا العثور على الحقيقة أصعب بكثير من التقاط أريج زهرة البنفسج. اعتاد أبي أن يريني أن رائحتها تصبح نفاذة وجميلة، ومن ثَم تختفي لتعود أقوى من ذي قبل بعد عدة دقائق، عصية على التحكم بها وعصية على الحبس. وهو ما ظننته مدهشًا في ذلك الوقت.

غمس هنري فرشاته في علبة من الطلاء الأبيض الناصع، وبدأ طلاء إطار النافذة وأنا أنصت إلى حفيف شعيرات الفرشاة الناعم على الخشب.

سألته بعد فترة: لماذا أتيتَ إلى هنا؟

أدار هنري فرشاته حول حافة دقيقة ثم قال وتركيزه منصب على عمله: لأنني سئمت البشر. اندلعت الحرب وتحتم عليَّ فعل أشياء لا أفتخر بفعلها ولا أود تكرارها أبدًا.

نظر هنري إليَّ ثم قال: هذا المكان قادر على شفاء الآلام، لكن إذا أراد المرء ذلك.

تجاهلت جوابه، فقد أردت الشفاء الذي يجلبه تحصيل المعلومات: من يعيش هناك أيضًا على الجزر؟

قال هنري وهو يبتسم: ظننت أن إعداد التقارير قد انتهى.

ثم أخذ الفرشاة من يدي وناولني المطرقة قائلًا: بعض ألواح الأرضية مفكوكة. ما رأيك بتفقد مساميرها؟

قلت له: من فضلك.

زفر هنري ثم أمسك فرشاته مجددًا وتحدث وهو يقوم بعمله: حسنًا، هناك العجوز جنكنز. لقد بنى زورقًا في عمر العشرين ثم ذهب للاستكشاف. بعد ذلك اشترى كوخًا عائمًا من أحد الصيادين مقابل أربعين دولارًا. ما يزال مقيمًا به لكنه لا يستطيع التجديف حتى المدينة بعد الآن، لذلك أحضر له المستلزمات كل فترة.

سألت هنري وأنا أطوف بيدي على ألواح الأرضية، أتحسس الأطراف الحادة للمسامير المفكوكة: هل كنا نعيش على مقربة منه؟ وجدت أحد المسامير لكنني انتظرت الإجابة.

كدت أسمع هنري يحسب المسافة في ذهنه ثم قال: لا، ربما كانت ماري أقرب جيرانكم. لقد عاشت على بعد جزيرتين منكم. تُوفي زوجها في حادثة تحطيب، لكنها واصلت الإقامة في الجزيرة.

ثم أضاف هنري وهو يدير رأسه في إعجاب: إن لديها ثلاثة أبناء كذلك.

كان هناك أطفال آخرون غيري. ربما كنت سأحظى بأصدقاء، ولن أكون مرتعبة *كما أنا الآن.* بل، *ربما استطعنا حتى النجاة.*

وعندها، ضربت المسمار بمطرقتي بقوة.

الشراشف

مع اقتراب الصيف، استعر الحديث عن الاستعداد لقدوم النزلاء.

قالت كوليت: إن الكرسي في الغرفة رقم اثنين رديء جدًّا.

اعترض هنري قائلًا: لكنه الكرسي المفضل لدى جيري. إنه يقول دائمًا إنه مكانه المفضل بعد الصيد.

قالت كوليت: لا عجب أن رائحته تفوح منه.

خططت كوليت للذهاب في رحلة إلى المدينة الكبيرة لإحضار المستلزمات. ستكون مسافة سير طويلة بالسيارة وسيتوجب عليها قضاء ليلتها هناك.

سألتني كوليت: هل تودين الذهاب معي؟

نظرت إليها مذعورةً.

ضحكت كوليت مضيفة بنوع من التشويق: سأقضي ليلتي في فندق وسأذهب إلى مطعم.

- لا، شكرًا لك.

- تعلمين يا إيميلين أنه لا يمكنكِ الاختباء إلى الأبد.

ربما نسيت ابنة أي رجل أكون.

في الصباح الباكر، ركبت كوليت الشاحنة الهادرة الكبيرة وانطلقت نحو الطريق الطيني. عادت كوليت بعد يومين بحقائب محملة بالشراشف وزجاجات من مواد التنظيف وكرسي تنبعث رائحة البلاستيك من القماش الذي يلفه. ساعدها هنري في نقل الكرسي إلى الغرفة رقم اثنين في صباح اليوم التالي ثم انطلق مباشرة إلى قاربه عقب ذلك.

أخبرتني كوليت: سيكون بخير. سيكون عليه فقط الاعتياد على الأمر. إنه لا يحب التغيير لكنه يعلم أننا بحاجة إلى هذا.

ابتعد صوت محرك قارب هنري، وبالكاد رأيته على بعد من الخليج يجلس في قاربه ورأسه مرفوع إلى السماء ويده مغموسة في البحر... وفهمت تمامًا ما يشعر به.

***

حل الزوار وحلت معهم الفوضى. تعالى صراخ الأطفال وجريهم، واسترخاء الكبار وضحكهم. استعان هنري بشاب من البلدة ليقوم على شؤون طلبياته، وأصبح قاربه الآن مكدسًا بالأشخاص الذين يودون الذهاب في رحلات بحثًا عن الزجاجات أو ما يسمى بنزهات *للتعرف على المعالم*. أسرعت -في كل مرة يعود فيها القارب- إلى مكان أرى الناس يهبطون منه بحثًا عن الزجاجات المختومة بالشمع الأحمر في أيديهم، لكن لم يتبقَّ منها شيء.

تساءلت إن كان الشمع قد تهرأ، والماء تسرب إلى الزجاجات هابطًا بها إلى قاع البحر فلم يتبقَّ سوى الزجاجة الموضوعة في خزانة أدراجي. جلبت لي الفكرة شعور الارتياح بعض الأحيان والذعر في أحيان أخرى. لكنني أودعت الشعور في قرارة نفسي، حيث الأمان.

***

حاول هنري التحمس بشأن النشاط الدائر في المنتجع، لكنني لاحظت أثر الإجهاد عليه. خلف الستار، أدارت كوليت الأمر كشعلة من الحماس. وفي نهاية اليوم، اعتاد هنري وكوليت الجلوس على كرسيْهما في غرفة المعيشة وإراحة جفونهما، ما لم يأتِ أحدهم طارقًا على الباب الأمامي طالبًا الصابون

أو الثلج أو التذمر بشأن ما يسمى بقواعد الاستقبال. بالطبع كانت كوليت محقة، فالأمر أكبر من احتمالهما وحدهما.

لذا، بدأت في المساهمة والتنظيف.

لم يكن ذلك سيئًا كما صورت لي مخاوفي. عند مغادرة النزلاء، أذهب إلى الكوخ، أغلق الباب خلفي، وأرتب المكان لاستقبال المجموعة التالية. اعتاد دودج مرافقتي ومراقبتي عند مسح الأرضيات وتغيير الشراشف. لم أحبذ استخدام مواد تنظيف الأرضيات التي لا تشبه في رائحتها أريج أشجار الصنوبر المرسومة على الزجاجة في شيء، لكنني استمتعت بترتيب الأسرَّة، الذي أشبه بحل الأحاجي. كنت أسحب الشراشف المجعدة فتتدافع روائح الأشخاص الذين استلقوا عليها سابحة في الهواء. كنت أجد رائحة العرق الحلوة الحالمة لطفل صغير قضى نهاره في اللعب والاستكشاف، أو الرائحة الحادة لآخر ختم يومه حزينًا. عرفتني الأسرَّة الأكبر حجمًا على كيفية امتزاج رائحة جسدين معًا بلا تكلف، ليصبحا رائحة لجسد واحد، كامتزاج حبات المطر. وكذلك ميزت ابتعاد تلك الأجساد عن بعضها، من الاختلاف الصارخ لروائحها. في بعض الأحيان، وجدت روائح الناس تختبئ في ظلال جعجعة مربكة لروائح مصطنعة. وجدت الحزن قاتمًا كعصير التوت البنفسجي، والخوف كالمذاق المعدني لهبوب العواصف، والعشق كرائحة الخبز الطازج. بطريقة ما، لم يبدُ الأمر غريبًا عن ترجمة الروائح بالطريقة التي اعتدتها في جزيرتنا. كانت الروائح دائمًا تزف أخبار الازدهار وتنعي أخبار الموت، وتحتفي بما سيعمر حتى قدوم الفصل التالي. لم يكن تطبيق الأمر على البشر مختلفًا عن الأشجار أو الأزهار أو الطين. وتراءى لي أنني أستطيع ترجمة البشر على أي حال، وداعبني الأمل.

***

كنت أذهب إلى أكواخ النزلاء الذين يمضون أوقاتًا أطول في خليجنا مرة في الأسبوع لتغيير الشراشف والفوط بينما هم منشغلون بالتنزه. طاف في هذه الأكواخ شعور بالانتماء، في صورة حذاء أحمر موضوع تحت السرير، أو

قبعة تحمل شعار «*افعلها*» (*Just Do It*)[1] على طرفها، أو زجاجات وأنابيب مرصوصة على منضدة الحمام. اختلفت أسماؤها بين *واقٍ من الشمس*، *أو مسكن للآلام*، *أو دهان لمكافحة الشيخوخة*. وأدركت أن أبي لم يكن وحده من يعبئ السحر في زجاجات.

ومع ذلك، كان الانكشاف على ممتلكات الآخرين ورؤية حياتهم معروضة في هذه الغرف باعثًا على الضيق. تذكرت الحالة التي تركت عليها كوخنا في الجزيرة، وكتاب القصص الخيالية ملقى بجانب الكرسي، وآلة أبي محطمة على الأرض، وزجاجات العبير. ترى ما القصة التي ستوحي بها هذه الأشياء لشخص غريب؟

في صباح أحد أيام الصيف، دخلت الكوخ الأصفر، ورفعت عنه الوسادة لأغير غطاءها. وجدت تحتها شيئًا ورديًّا مطبقًا بإحكام. أمسكت به لأزيحه من مكانه، لأواصل عملي، لكنه انسدل في يدي، متفتحًا كالزهرة، طويلًا وحريريًّا عابقًا برائحة الفانيليا والقرفة. كان لباسًا تحتيًّا نسائيًّا، شاهدت نساء فاتنات على التلفزيون يرتدين شيئًا مثله.

وبينما أنا أحاول إعادة طي ذلك اللباس الزلق، فُتح الباب. دخلت امرأة من الباب وتسمرت في مكانها عندما رأتني.

- ماذا تفعلين بهذا الثوب؟

أوقعت ثوب النوم من يدي على الأرض، فطفا كأعشاب البحر على صفحة الماء.

تلعثمتُ بالإجابة والحرارة تنهش في جسمي: كنت أهُم بتغيير الشراشف فحسب.

قالت المرأة ووجهها محمر تمامًا كوجهي: أعطني هذا. عندما اقتربت مني المرأة شممت عبير جوز الهند الزبدي الأبيض ولمحة خفيفة من العرق. ناولتها الثوب الحريري وأنا أرتجف وتعرَّف أنفي تلقائيًّا على شيء ما. لم تعلق رائحة امتزاج الأحلام والدفء البشرية بنسيج ذلك الثوب، حتى بعد انقضاء أسبوع على إقامة الزوجين في الغرفة. وهو ما كان أمرًا غريبًا.

(1) شعار شركة «نايكي» (Nike).

- أنا آسفة، أؤكد لكِ أنه نظيف فقد قمت للتو بمسح الأرضية.

نظرت إليَّ المرأة ثم قالت: تعلمين أنني سأرتديه بالطبع، ولكنني لم أجد الوقت المناسب بع...

توقفت المرأة عن الكلام ثم قالت: يا إلهي، بالطبع لن أناقش هذا الأمر معكِ.

ذهبت المرأة إلى الحمام وأغلقت الباب خلفها. جرى الماء منهمرًا في الحوض بلا انقطاع. تسمرت في مكاني للحظة وأنا لا أدري ماذا أفعل. لم أستوعب حقًّا ما حدث للتو، لكنني استوعبت رائحة الوحدة التي اختبأت تحت رائحة جوز الهند ورائحة جسدها.

أنهيت إعداد الفراش بأفضل ما يكون، ثم تسللت مجددًا إلى الكوخ عندما تأكدت أنها خرجت منه. وتركتُ زهرة برية وردية على وسادتها البيضاء.

***

في صباح اليوم التالي، رأيت المرأة تتهادى على الممر الواسع ويديها مشبكة في ذراع زوجها، ورأسه مائل نحوها والوردة مثبتة في طرف قبعتها المصنوعة من القش.

ارتسمت على وجهها ابتسامة طفولية. وظننت أنني *أستطيع* فهم الناس على أي حال، وأن المدرسة لن تكون بذلك السوء.

لكنني كنت مخطئة.

المدرسة

هدرت الشاحنة القديمة في طريقها على الطريق الطيني بينما نسير، وكل شيء آلفه يختفي بسرعة كبيرة. أحكمت قبضتي على مقبض الباب وشعرت باهتزاز السيارة ينفذ إلى رجلي وظهري ودماغي. ظهرت الأشجار كالأطواد العظيمة على جانبي الطريق. شهقت عندما استند جسمي إلى الباب في أثناء عبورنا منحنى في الطريق.

رمقتني كوليت بعينها ثم قالت: أنا آسفة، نويت أخذكِ إلى البلدة للاعتياد على الأمور قبل بدء المدرسة. لكن النزلاء أتوا و... كان ذلك سريعًا.

لم أدرِ حينها إن عنيت سرعة الشاحنة أو سير الأمور.

نقرت كوليت بإصبعها على دائرة في اللوحة أمامها وقالت: انظري، ليس الأمر بهذا السوء.

كان في الدائرة مؤشر واحد يشير إلى رقم خمسة عشر. كان رقم خمسة عشر يماثل عدد الدقائق في ربع الساعة، ويزيد على الساعات في نصف يوم، وأكبر من سني، لكنني لم أفهم علاقته بالشاحنة بأي صورة.

أضافت كوليت وإطار الشاحنة يهبط إلى حفرة بشكل يثير الإعياء: سيصبح سيرنا أكثر سلاسة حالما نصل إلى الطريق الرئيسي.

اختفت الأشجار عندما وصلنا أخيرًا إلى قمة التلة. نظرتُ إلى الأسفل، إلى بقعة من الأرض مكدسة بما يشبه العِصي. ثم لاحظت أنها أشجار عندما اقتربنا أكثر. تكدست تلك الأرض بالمئات والمئات من الأشجار المجردة من الفروع، وشممت رائحة النسغ ونشارة الخشب تملأ الهواء، حيث كان المكان يومًا ما عامرًا بفروع الأشجار، وجذوعها، ولحائها، وبالخضرة.

سألت كوليت: ما هذا؟

- إنها مطحنة الخشب. لقد كانت أكبر من ذلك.

لم أستوعب ما تعنيه كلمة *أكبر*. اعتدت أنا وأبي قطع الشجر بالتأكيد، لكن فعلنا ذلك بشجرة واحدة عندما لم يسقط غيرها بالفعل. بدا المكان أشبه بفناء كوخنا عندما أنهى الدب صولته به.

هبطنا نحو بقعة الأرض هذه، ودرنا حول حافتها إلى الجانب الآخر، حتى انتهى الطريق الطيني وبدا شيء ممهد وأسود سارت عليه العجلات بارتياح. ظهرت الأشجار على جانبي الطريق مجددًا كأن شيئًا لم يكن.

في النهاية قالت كوليت: لم يتبقَّ الكثير الآن.

***

اختفت الأشجار ثانية بوصولنا إلى بلدة «بورت هبارد» وظهرت مجموعة من المباني البيضاء القبيحة المكدسة معًا كمحار البرنقيل الملتصق بصخرة. قرأت لي كوليت الأسماء المكتوبة على المباني أثناء مرورنا بها كالبقالة والمقهى ومحل الخردوات، كما لو كان اسمها يهمني. صرفت تركيزي عما حولي وأصبح كل شيء مشوشًا. تساءلت عن الوقت الذي يقتضيه فك تلك المحال الملتصقة ببعضها، وإعادة إنبات الأشجار مكانها ثانية.

أعادني صوت كوليت ثانية إلى وعيي وهي تقول: لقد وصلنا. رأيت منظرًا من أقبح ما رأيت، لرقعة من العشب، ومبنى مستطيل له نوافذ مربعة بينها مسافات متساوية.

أحسست بالحماس في صوت كوليت وهي تقول: حسنًا، لدينا اجتماع مبكر حتى يتسنى لنا تحضيرك للمدرسة قبل وصول بقية الطلاب. هيا بنا لمقابلة المديرة.

كان عقلي يرفض، لكنني أيقنت أن لا خيار لدي.

- حسنًا.

***

كان مكتب المديرة في مركز المبنى، وبابه بالكاد يظهر خلف منضدة طويلة، كما لو كان يود الاحتجاب عن الأنظار.

قالت المديرة لكوليت: أنا آسفة، لكننا لا نملك المال لتوفير رعاية خاصة. لدي ألف طالب قرابة عمر الثانية عشرة هنا، وكلهم في مبنى واحد، كما أن انخفاض الميزانية يؤثر على الاهتمام بجميع الطلاب. وأنتِ تقولين إنها بلغت الثالثة عشرة للتو...

نعم *فعلتُ في أول أيام الربيع.* أحضرت لي كوليت ذات مساء، بعد العشاء، كعكة بها شموع، وأرتني التاريخ المكتوب في التقويم. لم أملك الشجاعة لإخبارها بذهابي أنا ودودج إلى حافة الغابة حيث قادتنا أنوفنا إلى زهور البنفسج قبل يومين من ذلك، حين دسست فيها أنفي وبكيت.

أضافت المديرة: ... مما يعني أنها ستكون في الصف الثامن. سنضعها هناك ونرى ما سيحدث.

جلست على الكرسي وأنا أستمع بالكاد لما يقال، فقد تعلمت أنه من الأفضل الاكتراث للروائح أكثر من الكلمات. انبعثت من المديرة رائحة نفاذة وعادية للبيض المخفوق والصابون الخالي من الأزهار.

قالت كوليت للمديرة: إنها استثنائية...

- أنا أكيدة من ذلك.

ميزتُ روائح وسائد الأريكة البالية، وشاي قديم وأسى أقدم بكثير، حاد وجاف كالسَّفَن[1]. نقرت المديرة بقلمها وهي تنظر إلى الساعة.

- حسنًا إذن، سنتولى الأمر بداية من الآن.

(1) السَّفَنُ: كل ما ينحت به الشيء ويلين من فأس، أو قدوم، أو حجر، أو جلد خشن.

بدت كوليت مترددة ونظرت إليَّ. كنت أعرف أن عليها المغادرة، لكن هالتني قسوة غيابها فجأة. شاهدتها وهي تغادر، وكنت على وشك الانهيار فأغمضت عيني بقوة.

نادت عليَّ كوليت: إيميلين؟ لم أفتح عيني، فقالت كوليت: ربما من المبكر فعل ذلك...؟

سمعت صوت المديرة تقول بحزم: إنها في الثالثة عشرة، لا تقلقي، ستكون بخير.

ثم، ساد صمت طويل.

في نهاية المطاف، سمعت صوت كوليت تقف ثم قالت: سأحضر بنهاية اليوم يا إيميلين. يمكنكِ حينها إخباري عن مغامراتكِ كلها.

شعرت بيدها الناعمة على جبهتي وشممت رائحة القهوة والخبز الطازج، وأحسست بالرائحة تغادر معها.

نادت المديرة: كارولين. ثم سمعت وقع أقدام خلفي. قالت المديرة: أيمكنكِ إرشاد هذه الآنسة إلى الغرفة سبعة؟

سألت المرأة بشيء من الريبة: هل هي عمياء؟ لكنني فتحت عيني وحدقت إليها.

- أوه! حسنًا إذن لنذهب.

***

ذهبنا إلى الردهة العابقة برائحة الزيت والبطاطس. كان الرواق أعرض من طريق الأشجار في جزيرتنا بثلاث مرات، رغم هذا شعرت بالجدران تطبق على صدري.

بعد قرابة أربعين خطوة، فتحت المرأة بابًا على اليمين وأشارت إليَّ بالدخول. كانت الغرفة مربعة وبيضاء، لها نوافذ ضيقة في جانب واحد منها، وبها طاولة كبيرة في المقدمة. في قبالة الطاولة رصت صفوف من طاولات أصغر غريبة الشكل، لكل منها مقعد محلق بها كصدفة حيوان السلطعون الناسك.

- اجلسي حيثما تشائين. سيصل الطلاب قريبًا. تركت المرأة قصاصة ورق على الطاولة السوداء الكبيرة ثم غادرت.

توجهت إلى الصف الأخير وجلست على كرسي في الزاوية، في ترقب. بعد مرور عدة دقائق، سمعت مزيجًا من الأصوات يصدح في ردهات المدرسة. فُتح الباب كاشفًا طوفانًا من الضوضاء والأجسام. ظهر أولاد طوال تنضح من أجسادهم رائحة العرق والحيوية. وفتيات منغمسات في روائح زائفة لليمون، أو الورود، أو الفراولة، كالألوان التي رأيتها في صور المجلات، فبت أفرك أنفي من فرط حلاوتها وقوتها.

وقف فتى بجانب مقعدي وقال: ماذا تفعلين أيتها الفتاة الجديدة؟ هل أنت ذاهبة في رحلة صيد مستتر؟

لم أفهم ما عناه، لكن رائحته كانت أشبه بعود الثقاب سريع الاشتعال. وسمعت في ذهني صوت نباح دودج محذرًا.

***

امتلأت الغرفة بالفتيات والفتيان المتنافسين على المقاعد. جلس فتى الثقاب أمامي ودفع مقعده إلى الخلف بسرعة حتى اضطررت لسحب قدمي إلى الداخل. لكن المقعد المجاور لي ظل فارغًا. وصلت مُدرسة نحيفة مفعمة بالنشاط لها عينان داكنتان.

قالت المُدرسة بتؤدة: حسنًا، عودًا حميدًا لكم جميعًا. لقد بتنا جميعًا على صلة وثيقة ببعضنا بعضًا بعد مرور تلك السنوات. هل أنتم مستعدون لعام دراسي جديد؟

جاءت الهمهمة ردًّا على سؤالها. تناولت المُدرسة الورقة التي تركتها المرأة الأخرى من على الطاولة ثم فحصت الغرفة بعينها.

نادت المُدرسة: إيما- *لين*؟ نظرتُ إلى بقية الطلاب في ترقب. كررت المُدرسة نداءها وهي تسير بين الصفوف حتى وصلت إليَّ: إيما- *لين*، إننا لا نملك رفاهية اللعب هنا. يجدر بكِ الإجابة عندما أنادي اسمكِ.

أجبت بشيء من الارتباك: لكن هذا ليس اسمي.

- ما اسمكِ إذن؟

- اسمي *إيميلين، مثل كان ياما كان يا إيميلين، رأيتُ عصفورَين.*

تذكرت ابتسامة أبي وسمعت صوته يجاري إيقاع الكلمة.

انفجر الفصل في الضحك. نظرت حولي متعجبة من الاستغراب الذي قرأته على وجوه الأطفال.

سمعت الفتى الذي يجلس قبالتي يقول: فتاة غريبة. باغتت كلماته ذكراي تلك وبعثرتها.

خاطبته المُدرسة بحدة قائلة: يكفي هذا يا ديلان. ثم نظرت إليَّ قائلة وهي تنطق المقطع الأخير من اسمي كما لو كانت تميط قطعة بطاطس مهروسة عن الأرض: حسنًا، يا إيمي-لين. أيمكننا الآن بدء العام الدراسي الجديد بعد أن تعطفت علينا بدرس في علم الهجاء؟

حاولت الاندساس بشكل أكبر في مقعدي وأنا أحدق إليها وهي تعطيني ظهرها متجهة إلى طاولتها.

***

ظننت أنه يمكنني احتمال المدرسة، فقد ظننت أنني سأترجم روائح الناس كما تمكنت من ترجمة روائح الشراشف في الأكواخ، وحينها ستكون الأمور على ما يرام. لكن الفصل ازدحم بالعديد من الروائح والمخاوف والأسرار. حاولت التركيز على ما يقوله مدرسو الرياضيات، واللغة الإنجليزية، والتاريخ، المتتابعون، لكن كلماتهم ضلت طريقها المزدحم بالرسائل التي تسبح في الهواء إليَّ ولم أستطع التركيز. طرُب الفتى الجالس قبالتي لتلعثمي في الإجابة على أسئلة المدرسين. واستسلم المدرسون في نهاية المطاف.

قالوا لي واحدًا تلو الآخر: يجدر بنا تركك تعتادين على الوضع. واستطعت الإحساس بخيبة أملهم حتى في طوفان الروائح هذا.

اندفع الطلاب وقت الغداء نحو الردهة متوجهين نحو رائحة البطاطس والزيت، وسرت أنا في الاتجاه المعاكس، إلى الخارج، بعد أن اتبعت رائحة العشب. رأيت الأطفال الصغار يتسلقون على شيء معدني بدا كذكرى بائدة لأشجار كانت هناك يومًا ما، ثم رأيت على أحد الجوانب صفًّا من نبات إكليل الجبل، الذي عرفني هنري على اسمه، الأزرق المائل للخضرة الذي ترعرع

أمام النُزل. توجهت نحوه ثم جلست أملًا في أن تمحو رائحته ذكريات صباح اليوم.

أتمنى ألا أعود إلى الداخل مجددًا. أتمنى ألا أعود إلى الداخل مجددًا.

أردت الهروب والعثور على الطريق وركوب قارب يوصلني إلى الجزيرة. لم أكترث بما تبقى وما لم يتبقَّ لي هناك، لكنني أردت الشعور بسكون الأشجار وطمأنينة غرفتي.

توجهت إليَّ إحدى فتيات صفي في الملعب وبيدها نصف شطيرة.

قالت وهي تجلس مبتسمة: مرحبًا، من أين أنتِ؟

لم أستطع ترجمتها بشكل صحيح، لكنها كانت من الفريق الذي ينبعث منه رائحة الفراولة وبدت الرائحة نابعة من شفاهها. وغمرت الرائحة الحلوة الهواء كغبار الطلع[1].

- أنا من الخليج السري.

أسرعت الفتاة بسؤال آخر قائلة: لكن من أين أنتِ بالأصل؟ لم أجب فخفضت صوتها.

- يعلم الجميع أنكِ أتيتِ من الجزر. ترى كيف الوضع هناك؟ كانت عيناها مُتقدتَيْن وهي تميل نحوي ولم يبدُ عليها أي من مظاهر الخطر. أخذت نفسًا عميقًا أفتش به عمن تكون حقًّا.

تراجعت الفتاة قائلة: ماذا تفعلين؟

باغتني سؤالها وشعرت بالذعر. لذلك قطفت غصنًا من إكليل الجبل.

ناولته لها قائلة: تفضلي.

- ما هذا؟

- يمكنكِ فركه بين يديكِ، (ثم تلعثمتُ مضيفة) ليوازن رائحة ذلك الشيء الوردي.

- *ماذا؟*

- أعني رائحة الفراولة...

---

(1) حبوب اللقاح، أو حبوب الطلع، هي لقاح الأزهار والمسحوق الموجود في الزهور.

- أتعنين أن رائحتي سيئة؟

هبت الفتاة واقفة وأدركت حينها أن الغضب سيعادل الرائحة الوردية كذلك.

- أنا آسفة لأنني حاولت أن أكون لطيفة معكِ أيتها الفتاة غريبة الأطوار.

رحلت الفتاة.

بقيت أنا في مكاني أرتجف حتى رن الجرس، فجاءت مُدرسة لجمع الطلاب الأصغر سنًّا.

سألتني المُدرسة: هل تعرفين وجهتكِ يا عزيزتي؟

أوشكت على البكاء من الحنو الذي التمسته في صوتها.

أخذتني المُدرسة في صحبتها ثم أوصلتني إلى فصلي. لم أستوعب الخطأ الذي ارتكبته حتى رأيت الطلاب الآخرين يرفعون رؤوسهم، لرؤية الطلاب الصغار الواقفين على باب الفصل. رأيت فتاة عبير الفراولة تميل على الفتى الذي يجلس بجوارها وتقول له شيئًا. ثم سمعت همسات الطلاب تتصاعد بين الصفوف كما تتفلت الرمال من بين الأصابع. ثم رأيت بعدها علامات الضحك مرسومة على وجوههم.

***

أتت كوليت لاصطحابي ظهر ذلك اليوم وسألتني: كيف كان يومكِ؟

نظرت إلى وجهها، الذي بدا عليه آثار الإنهاك من موسم الصيف، وشممت رائحة القلق بادية عليها كرائحة الصوف الندي. أيقنت باستحالة عودتي إلى الجزيرة، وأن كوليت وهنري هما كل ما تبقى لي، وتساءلت عما سيجري إن أصبحت عبئًا عليهما.

في النهاية قلت: لا بأس به. سار الأمر على ما يرام.

فيشر

في الأسبوع التالي، حضر الفتى ذو الشعر الأصهب إلى المدرسة.

تعالى صياح الطلاب وهو يدخل الفصل: انظروا من قرر الخروج من الغابة.

أحنى الفتى رأسه وسار بسرعة إلى المقعد الفارغ الوحيد، المجاور لي. عندما جلس، لاحظت ارتداءه ملابس ذات أكمام طويلة، مع أن اليوم كان أحد أيام سبتمبر الحارة، ومعظم الطلاب كانوا يرتدون قمصانًا ذات أكمام قصيرة. غطت رائحة توتره على رائحة أعمق، رائحة نقية صافية، لاحتراق خشب أشجار جار الماء[1].

رمقني الفتى بنظراته ولاحظني وأنا أراقبه. كانت عيناه شديدتي الخضار كأشجار الربيع اليانعة. راقبني الفتى بدوره للحظة ثم مال برأسه.

قال هامسًا: أنا فيشر.

- إيميلين.

لم يضحك الفتى، لكنه تبسم ببساطة.

***

(1) النغت، أو النَّغْث، أو المَغْث، أو جار الماء، شجرة مثمرة متساقطة الأوراق.

أحاطت فيشر هالة من الهدوء مثلي، لكن صمته كان صمتًا متقدًا لم أرَ مثيلًا له من قبل. كان فيشر يتمتع بموهبة مراقبة كل شيء حوله باستمرار أينما كان، كما لو كان سنجابًا أو فأرًا. كان الأمر مألوفًا لي، إلا أنني استعملت أنفي بدلًا من عينيَّ.

سألته في أحد الأيام بينما نحن جلوس في جانب الملعب خلال وقت الغداء: ماذا ترى؟ كان من السهل علينا الجلوس خارجًا في أي مكان كان عدا الجلوس في المقصف، الذي ازدحم كشاطئ متكدس بطيور النورس. علمت في أثناء الوقت الذي قضيناه معًا أن فيشر كان متأخرًا بعام دراسي.

كان ديلان يقول باستخفاف: إن بطئه يمنعه من الحضور إلى المدرسة نصف الوقت. فيحمر وجه فيشر. أشفقت على فيشر، لكنني شعرت بالراحة على نحو ما لأنني وجدت شخصًا آخر بمثل غرابتي.

أشار فيشر للأرجوحة في الملعب، حيث كانت فتاة صغيرة تدفع جسدها لزيادة سرعتها دون جدوى. على مقربة، وقف فتى في مثل عمرها منتظرًا، يتكئ على رجل تلو الأخرى.

- سيدفع ذلك الفتى الفتاة من على الأرجوحة.

- كيف تعرف ذلك؟

- انظري إلى فمه.

برم الفتى شفته.

- والآن، انظري إلى يده.

أخفى الفتى قبضته وراء ظهره. وحينها شممت رائحة شيء حاد ونهِم.

- أستطيع شم ذلك، أعني أستطيع رؤية ذلك.

دفع الطفل الفتاة فانبطحت على الأرض وأخذت في البكاء. حضرت المُدرسة ونفضت التراب عن ملابسها وأبعدتها عن المكان، بينما جلس الفتى على الأرجوحة وأخذ يدفع ساقيه في الهواء.

قال فيشر: إن المُدرسة تخاف منه.

ثم باغتني بسؤاله قائلًا: قولي لي إذن، بماذا تخبركِ الروائح؟

أنصت إلى نبرة صوته ولم ألحظ فيها سوى الفضول.

أجبته في النهاية: كل شيء.

أومأ فيشر برأسه.

- تعلمين، لقد عثرت مرة على إحدى تلك الزجاجات. أتعرفينها؟ تلك الزجاجات التي ظهرت على الشاطئ.

لم أقوَ على الحراك.

- وجدت رائحة شيء ما على الورقة في الزجاجة، لكن لم يصدقني أحد.

تسارعت ضربات قلبي ثم قلت: كيف كانت رائحتها؟

عُرضت ابتسامة على وجه فيشر ثم قال: كانت تعبق برائحة مكان لم أره من قبل.

زجاجة مختومة بالشمع الأحمر إذن.

حاولتُ ضبط تنفسي. لقد استطاع فيشر أن يشم ذلك العبير دون غيره. لم أستطع إخباره كيف وجدتْ تلك الزجاجات طريقها للبحر، من دون تفسير كثير من الأمور التي لم أرغب أن يعرفها أحد، لكن صدري انشرح بمعرفة أن هناك شخصًا آخر يفكر بالطريقة التي أفكر بها.

- ماذا فعلت بهذه الزجاجة إذن؟

هز فيشر كتفيه وقال: لقد أخذها أبي مني. لقد قال إنها ستصبح بلا قيمة إذا فتحتها.

***

أصبح من الواضح أن مستواي الدراسي سيشكل عبئًا كبيرًا على المدرسين. ناهيك بكرهي للمشاركة في الحصص. لذا، ومن حسن حظي أنه كان من السهل عليهم تجاهلي. الآنسة بويد، معلمة العلوم، كانت هي استثناء القاعدة؛ أخذت الآنسة بويد على عاتقها مهمة إشعاري بأنني مميزة، وهو ما زاد الطين بلة، بالنظر إلى علاقتي مع الطلاب في صفي.

حضرت الآنسة بويد إلى الصف يوم الاثنين ورائحة الحماس تنضح منها.

- سنسافر اليوم إلى فرنسا، لنتعرف على بعض الحيوانات المدهشة حقًا.

جالت الآنسة بويد بنظراتها حتى نهاية الصف إلى أن قابلت نظراتي وضحكت.

- إن حاسة الشم التي تتمتع بها تلك الحيوانات، من أفضل حواس الشم الموجودة على الإطلاق في العالم بأسره. وتستطيع تلك الحيوانات العثور على الكمأ[1] المخبأ في باطن الأرض.

سأل أحد الطلاب: وما الكمأ؟

- إنه أحد أنواع الفطر.

رد ديلان بنبرة خالية من الانبهار: إن الفطر ينبت في كل مكان حولنا.

قالت الآنسة بويد: ولكنه نوع مميز من الفطر. هل تعلمون، لقد تم هذا العام بيع كمأة واحدة تبلغ قرابة نصف كيلو مقابل ثلاثمئة وثلاثين ألف دولار أمريكي. هل عرفتم إذن أهمية حاسة الشم القوية؟

شهق الطلاب جميعًا انبهارًا، فابتسمت لي الآنسة ثانية فشعرت بالامتنان الكبير لودها.

سأل ديلان وهو مسترخٍ في كرسيه: أي نوع من الحيوانات إذن؟

فتحت الآنسة بويد كتابًا كبيرًا، ورفعته عاليًا، لكنني لم أستطع رؤية الصورة بوضوح.

قالت فتاة عبير الفراولة، وهي تستدير ثم تحدق إليَّ فاغرة فاها بسرور عظيم: هل هذا خنزير؟

كنت آمل أن تكون قد تناست حديثنا معًا في الملعب، لكن كان واضحًا أن ذلك لن يحدث.

---

(1) الكمأ: هو اسم فطر بري موسمي ينتمي إلى عائلة فطريات تسمى الترفزية. ويُعرَف أيضًا باسم: الترفاس، أو الفقع، أو نبات الرعد.

أدركت الآنسة بويد خطأها، لكن كان من الصعب تداركه. وأصبحتُ، منذ تلك اللحظة، *الآنسة بيجي*[1] *راصدة الزَخَمة*[2]. قلد الطلاب صوت الخنازير أينما ذهبت وبنهاية الأسبوع لم أجد مكانًا ألجأ إليه.

قال لي فيشر يوم الجمعة: أعرف أين يمكننا الذهاب.

في وقت الغداء، سرنا في الرواق حتى وصلنا إلى باب كُتب عليه *المكتبة*. رأيت صفوفًا من الكتب تصل إلى السقف، أشبه بالأدراج السرية في جزيرتنا.

شعرت بالراحة لأول مرة منذ أن أصبحت الآنسة بيجي، وقلت: يا إلهي. فابتسم فيشر.

- تعالي لأريكِ الكمبيوتر.

قادني فيشر حتى وصلنا إلى صف به ثلاثة صناديق لها شاشة تشبه التلفزيون. جلس فيشر قبالة أحد هذه الصناديق ونقر على مجموعة من الحروف بأصابعه. ظهرت كلمة *جوجل* أمامنا.

- انظري، هذا مثل السحر.

بحث فيشر عن كلمة قطة، فأظهرت الشاشة العديد من الصور والمقاطع لقطط وجراء، حتى أطلت علينا سيدة تقول إن الكمبيوتر يستخدم فقط لأغراض البحث فغادرنا المكتبة على مضض.

أصبح الكمبيوتر شغلي الشاغل في نهاية ذلك الأسبوع، فقد عرفت أن هناك آلة أكثر سحرًا وقوة من آلة أبي. نعم، لم تستطع تلك الآلة التقاط الروائح، لكنها تستطيع أخذي إلى أماكن بعيدة مثلها، وتميزت عنها بأنها تأخذني إلى حيث أريد أنا.

كنت قد أوشكت على الاستسلام والتغاضي عن فكرة البحث عن معلومات حول أبي أو عن المكان الذي أنتمي إليه، لكن الأمل تراءى لي من جديد.

***

---

(1) الآنسة بيجي أو ميس بيجي، دمية على شكل خنزيرة، وهي إحدى شخصيات برنامج دُمى أمريكي شهير، وكلمة بيجي، بالإنجليزية Piggy، مشتقة من كلمة Pig، أي خنزير.

(2) رائحة كريهة.

لم يحضر فيشر إلى المدرسة صباح الاثنين. أدركت حينها كم اعتمدت على صداقته للتغلب على ما أمر به، حتى إنني لم أعد أستطيع الاحتمال بحلول منتصف اليوم. كببت غدائي في القمامة وهرعت إلى المكتبة.

كان هناك طلاب آخرون يجلسون أمام شاشات الكمبيوتر لذا كان عليَّ الانتظار. تجولت بين صفوف الكتب حتى توقفت أمام قسم الأطفال. رأيت العديد من كتب القصص الخيالية موضوعة على منضدة قصيرة. فتشت الأغلفة كلها بحثًا عن عنوان الكتاب الذي تربيت على قراءته، والمزين بكلمات ذهبية عن الأميرة والقزم، لكنها كانت جميعًا مختلفة. رغم ذلك كان من المريح للأعصاب الوجود قرب هذه المجموعات القصصية، حتى وأنا أدرك تمامًا كم المصاعب التي سأوجهها إن رآني أحد طلاب صفي.

ذهبت صوب الكمبيوتر عندما أصبح متاحًا أخيرًا. نظرت إلى شاشته السوداء وتذكرت حين أعطاني أبي زجاجة العبير الخاصة بي. لم أعرف قدرات الجهاز أو ما يمكنه فعله، لكنني أدركت أن عليَّ اتباع المنهج العلمي.

احذفي المتغيرات يا إيميلين.

كتبت اسمي في خانة البحث فظهر عنوان كتاب اسمه «*إيميلين يتيمة القلعة*» كأول نتيجة للبحث. لكن الكتاب قد كتب قبل مئات من السنوات. ظهر بعد ذلك صورة لامرأة بوجه جاد وعينين داكنتين عاشت في بلد آخر منذ زمن بعيد.

لم أتفاجأ عندما ظهر معنى اسمي الذي يعني: *العمل*، في خانة النتائج الأخيرة.

فكرت فيما يمكنني البحث عنه كذلك، ترى هل أكتب *جاك؟ أم جون؟* كتبت في خانة البحث ورقة *العبير*، لكن النتائج أظهرت العديد من أفكار الأنشطة التي ركزت على نقع الورق في الشاي أو الماء. كتبت كذلك *عظام الحيتان* في خانة البحث، لكن النتائج كانت زاخرة بالكثير من الحقائق العلمية.

أدركت أنني بحاجة إلى المزيد، إلى دليل، أو حتى كلمة ترشدني، لكنني لم أهتدِ إلى شيء.

***

حضر فيشر إلى المدرسة ظهرًا، فهممت بإخباره عما فعلت، لكنني أدركت صعوبة فعل ذلك دون إخباره عما كنت أبحث عنه بالضبط. ولم أكن مستعدة للمخاطرة بصداقتنا إن هو ظن أنني غريبة الأطوار ولم يرد مصاحبتي بعد الآن.

كان فيشر هادئًا أكثر من المعتاد ورأيته، يحرك يده بطريقة غريبة وهو يدون الملاحظات.

سألته ونحن نغادر المدرسة: أين كنت؟ وماذا حدث ليدك؟

- لقد علقت يدي بالباب. كم أنا أحمق، أليس كذلك؟

أثارت نبرة صوته فضولي وأردت طرح مزيد من الأسئلة لكنني سمعت وقع أقدام خلفنا قبل أن أفعل.

قال ديلان مقتربًا مني: مرحبًا يا آنسة بيجي.

ثم قلد صوت الخنزير ومشيته.

قال فيشر بصوت أجش: توقف عن فعل ذلك.

أمسك ديلان بإحدى خصلات شعري المموجة وقال: انظري، إن شعركِ حتى يبدو مثل ذيل الخنزير.

لم أقوَ على الحراك.

تابع ديلان كلامه وهو يشد خُصلة شعري مجددًا بقوة أكبر قائلًا: هل تودين شم غائطي يا آنسة بيجي؟

صاح فيشر قائلًا: لا تلمسها.

كانت كلماته أشبه بكرات اللهب التي يتصاعد منها الدخان.

قال ديلان وهو يتراجع إلى الخلف: مهلًا.

- دعوها وشأنها فحسب! كلكم.

***

لم تدم الحالة التي بدا عليها فيشر طويلًا، وعاد مجددًا إلى طبيعته. لن أخفي بالطبع أن حدته أخافتني، لكنها أبقتني بمأمن من مضايقة الآخرين الجسدية على الأقل. فالطلاب لم يتوقفوا عن تقليد صوت الخنازير أينما ذهبت، وكنت ما أزال هدفًا مغريًا للسخرية حتى عندما كان فيشر بالقرب مني.

لم تتوقف الشائعات كذلك، ولكنها تغيرت. بدأ الطلاب يذيعون أن أبي كان سياسيًّا متهمًا بالخيانة، أو قاتلًا هاربًا من العدالة يتلذذ بالاعتداء على الأطفال، أو أنني كنت ضحية اختطاف، أو طفلة مستنسخة كان يحميها من تجارب الحكومة الشريرة، أو طفلة مستبدلة من الجان[1].

تكاثرت الشائعات كأعواد الثقاب المشتعلة، أملًا أن تدوم شرارة إحداها وتضرم نارًا كبيرة، لكنني آثرت السكوت كما لو كان الماء ينضح مني فيخرس تأجج كلماتهم.

---

(1) المبدول في القصص الشعبية الأوروبية هو طفل مشوه من الجان، يستبدلون به طفل صحيح من البشر.

في الغابة

قالت كوليت إنها معجبة بفيشر، صاحب *الطلة البرَّاقة*. فكرت ماذا تعني كوليت بقولها ذلك، حتى تذكرت رؤيتها وهي تفرك البقع الداكنة من على زهريتها الفضية الوحيدة، حتى تلمع وفهمت أنها تعني الأمر ذاته مع فيشر.

سألتْ كوليت فيشر أول مرة قابلته فيها عندما كانت تقلني من المدرسة: أنت تعيش بالقرب منا، أليس كذلك؟ دار حديث قبل بداية الصف الدراسي عن رجوعي إلى المنزل بالحافلة، لكن كوليت حضرت يوميًّا لتقلني. كانت الشاحنة واصطحاب كوليت لي مثارًا لسخرية الطلاب أيضًا. ومع ذلك لم أكترث لأن حضورها أشعرني بالأمان في نهاية اليوم، وكنت ممتنة لذلك.

رد فيشر على سؤال كوليت: نعم يا سيدتي. إن أبي يركن قاربه في خليجكم.

نظرت إليه كوليت بتمعن ثم قالت: هل أنت ابن فرانك؟

- لا يا سيدتي، والدي اسمه مارتن.

قالت كوليت وهي ترفع حاجبيها قليلًا: حقًّا.

ثم وضعت المفاتيح لتدير المحرك ثم نظرت إليه مجددًا قائلة: ما رأيك بمرافقتنا إلى المنزل يا فيشر؟ فأومأ فيشر برأسه مبتسمًا.

بعد ذلك، اعتاد فيشر الرجوع معنا إلى المنزل كل يوم تقريبًا. ولاحظت أن كوليت تعد المخبوزات على نحو أكثر من المعتاد. خبزت كوليت فطائر الحبهان، وبسكوت الشوفان، وكعكة التوابل، بينما دماء الخريف تجري في عروق الأرض وتدفن الزهور في باطنها بأمطارها الغزيرة.

قالت كوليت: إنني أجرب وصفات جديدة استعدادًا لقدوم النزلاء في الصيف فحسب.

***

أحببت الجلوس حول طاولة المطبخ وحل الواجب مع فيشر، ودودج يجلس عند قدمي، ونحن محاطون برائحة الفانيليا والزبدة التي جعلت كل شيء أفضل. لكنني لاحظت تغيير مزاجي عند إمعاننا في الخريف. بحثت عن علامات الانطواء والانكماش والهدوء، التي بدت على أبي عند قدوم الشتاء، في وجوه هنري وكوليت وفيشر، لكنني وجدت كوليت تعد مزيدًا من البسكوت ولاح البِشرُ على وجه فيشر شيئًا فشيئًا.

كان فيشر يساعدني في دروس التاريخ، وعلمني كتابة مقالات التعبير؛ وساعدته أنا في دروس العلوم وقصصت عليه القصص المكتوبة في كتب أبي. وتأكدت أن ذكاء فيشر ليس هو سبب تراجعه الدراسي. تقدم تحصيلي الدراسي ليواكب الطلاب الآخرين في الصف. ومع ذلك لم أملك الجرأة لرفع يدي لطرح أسئلة أو الإجابة عنها، لكنني اجتزت الاختبارات وتركزت مشكلاتي على مضايقة الطلاب الآخرين.

أحيانًا كان يمر أحدهم بجواري ماطًّا أنفه ليشبه أنف الخنزير، أو يبدأ الإجابة على سؤال في صف التاريخ بقوله *كان ياما كان* بشكل يبدو بريئًا. أحسست بكره أبي لأنه جعلني غريبة الأطوار، لأنه جعل أنفي هو سبيلي في التعرف على العالم من حولي. لا أنكر أنني أحببت جزيرتنا وروعة روائحها وأوراق عبيرها، لكنني أدركت أن أبي قد صنع هذا العالم كله من نسج خياله وأنني لا أصلح الآن لأي مكان سواه.

لم أستطع الصبر على الجلوس في مكاني لست ساعات، أو معرفة ما مساحيق التجميل أو الفوط الصحية أو تصور كيف يمكن للفتيات خلب لب

الفتيان بعذب ضحكاتهن. نعم استطعت غسل شعري بكوب ماء واحد وطهو السلطعون صغير الحجم في الزيت المغلي لكن شعور الغربة لم يفارقني يومًا.

الذنب ذنبك يا أبي.

بعدما أخفقت للمرة العشرين في فهم ما بدا لي بادرة صداقة، سرعان ما تظهر على حقيقتها كسخرية تستدر ضحكات الطلاب، أخبرت فيشر: أنا فاشلة في هذا الأمر.

- راقبي أعينهم. الابتسامة الصادقة تظهر في عين صاحبها.
- كيف تعرف كل هذا؟
- كيف تستطيعين التعرف على الروائح؟
- لقد تعلمت.

قال فيشر هازًّا كتفيه: وأنا كذلك.

ظل في علاقتنا شيء يشوبه الغموض، فقد تحدثنا عن أمور كثيرة سوى نشأتنا. اعتاد فيشر مغادرة منزل كوليت وهنري بسرعة في الرابعة والنصف عصرًا سالكًا طريق الغابة، لكنه لم يدعُني قط إلى منزله طوال هذه الأشهر، كما لم أطلب أنا منه الذهاب. كانت صداقتنا فطرية. وكنا ساذجين بالقدر الذي نظن به أن ماضينا لا يؤثر على شيء، أو هكذا أردنا.

لكنني كنت مخطئة حيال العديد من الأمور في ذلك الوقت.

***

أصبح النهار أطول شيئًا فشيئًا. واعتدت أنا وفيشر لعب الأوراق عند الانتهاء من حل الواجب، أو أخذ دودج في نزهة حول الخليج، وفيشر يرتدي معطفه البني وأنا أرتدي معطفي الأحمر الواقي من المطر. كان الهواء عابقًا برائحة البراعم، والترانيم التي تدعو لسطوع الشمس بأبهى حلة. كنا نسير على الممر الواسع ودودج يشمشم الروائح العابقة بماء البحر بينما أنا وفيشر ننظر إلى داخل الأكواخ من النوافذ وأنا أحكي له عن النزلاء الذين نزلوا فيها.

كنا نبتعد في سيرنا قليلًا عن المرة التي قبلها حتى مررنا يومًا بالنُزل وصولًا إلى المبنى الأزرق الذي تدلت عظام الحوت من سقفه. لم أذهب إلى متحف الحيتان هذا منذ حديثي مع هنري لأن أفكاري لم تكن واضحة بشأنه، ولم أملك الإجابات التي أريد.

راقبت فيشر وهو يحدِّق من خلف النافذة ويده ملفوفة حول عينه ليستطيع الرؤية بشكل أفضل وشعره الأصهب ينبض بالحياة على عنقه الأبيض كطائر شديد التركيز وكثير الفضول.

التفت فيشر ووجهه متقد بالحماس سائلًا: هل هذه عظام حوت؟

دفع دودج يدي برفق ففتحت الباب لندخل. داعب النسيم عظام الحوت المقوسة الساحرة التي بدت من عالم آخر بينما أنا أنتظر رؤيةَ ردِّ فعل فيشر.

قال فيشر وهو يرفع رأسه عاليًا: إن المكان أشبه بقصة خيالية هنا. إنه شديد الروعة.

لم أدرك أنني كنت أحبس أنفاسي حتى زفرت، وسرت الرائحة لأنفي وشعرت أنني أقرب إلى المنزل مجددًا بعد مضي عدة شهور.

***

اعتدنا السير بمحاذاة الشاطئ أو التجول في الغابة، عندما لم نكن نستكشف الممر الواسع. وفي يوم من هذه الأيام، اتبعت فيشر حتى وصلنا إلى الغابة. أمسك فيشر بغصن أرز متساقط وناولني إياه. استطعت الإحساس بمداعبة أوراق الغصن لي.

- أحضري لي قدر ما تستطيعين من هذه الأغصان، والفروع كذلك.

- لماذا؟

- سترين.

خلفت عواصف الشتاء العديد مما احتجنا إليه، فجمعنا كومة من الغصون والفروع. أخذ فيشر الفروع ببراعة ورتبها بما يشبه منزلًا مثلثًا صغيرًا،

أعمدته الخلفية أقصر من الأمامية، ثم أخذ الغصون ففرشها كسجادة بداخله. وغطى بما تبقى سقف ذلك المنزل.

سألني فيشر وهو يخطو إلى الخلف: ما رأيكِ؟

- إنه جميل جدًّا.

دخلنا إلى المنزل حبوًا وعبير النسغ والأزر يلف الهواء حولنا.

- إنه يشبه العش، لكن للبشر. يمكنك المبيت هنا.

هب فيشر قائلًا بنبرة غاضبة: ما الذي دفعكِ لقول ذلك؟

قلت بارتباك: أنا آسفة.

انتظرته ليقول شيئًا ما، لكن حماسه انطفأ.

سألته بعد مرور فترة من الزمن: هل تعلم أن الأشجار تتحدث إلى بعضها عبر الجذور؟

كان سؤالي كدعوةٍ، وباب يعبر منه، لتجاوز ما حدث لكنه لم ينبس ببنت شفة. ظللنا جالسين في صمت أملًا في أن تصلح رائحة الطبيعة ما تستطيع.

***

لاحقًا، سلك فيشر طريق الغابة وتوجهت أنا إلى الخليج. وبينما أنا في منتصف طريق العودة، سمعت وقع أقدام ثقيلة خلفي. كنا قد آثرنا ترك دودج ذلك اليوم لأن ردفه كان يؤلمه. وشعرت حينها بالحاجة كثيرًا إلى وجوده المألوف وحمايته لي. حدثت نفسي أنه قد يكون هنري لأنني تأخرت عن المنزل أكثر من المعتاد. انحرفت عن المسار واختبأت خلف شجرة ولففت معطفي الأحمر الواقي من المطر أكثر حولي.

صار صوت الأقدام أقرب. ثم توقف.

قال صوت أجش بشيء من الاستمتاع: أعلم أنكِ هناك.

ظهرت ببطء من خلف الشجرة ورأيت رجلًا ذا لحية مرسومة بعناية وشعر فاحم كظلمة قاع البحر، ينتعل حذاء صيادي البحر ويرتدي معطفًا واقيًا من المطر، وحامت حوله رائحة البنزين الصفراء الحادة.

لا يستعمل البنزين بدلًا من الديزل سوى صياد واحد فقط. تمنيت مجددًا لو كان دودج بصحبتي.

سألني الرجل: هل أنت ابنة هنري؟

أومأت برأسي وأنا آخذ نفسي بحثًا عن الأدلة، لكن رائحة البنزين منعتني من التفكير في أي شيء آخر.

افعلي ما قاله فيشر. راقبي وجهه.

قال الرجل: من الغريب أننا لم نلتقِ قط.

ومدَّ الرجل يده قائلًا: أنا مارتن.

- والد فيشر؟

- نعم.

رأيت الابتسامة تشقُّ طريقها إلى وجنتيه وبالكاد وصلت إلى عينيه.

لكن فيشر قال دائمًا إن *الابتسامة الصادقة تظهر في عين صاحبها*.

وقف مارتن هناك منتظرًا ومادًّا يديه. صافحته بجفاء ثم تنحيت عن الطريق ليتقدم هو. وعندما سار هو في طريق الغابة، استدرت وجريت نحو الخليج بأقصى ما استطعت.

المنتجع

لم أحدث فيشر قط عن لقائي بأبيه، لكنني بدأت بملاحظة أمور لم ألحظها من قبل، كالطريقة التي يتفقد فيشر بها الساعة ونحن جلوس على الطاولة نحل الواجب، وإسراعه في المغادرة وسلوك طريق أعلى التلة حال سماعه صوت رجوع قوارب الصيد.

كان شعور انتباهه الدائم لوالده مألوفًا لي، لكننا اختلفنا فيه على نحو ما، فقد كنت دائمًا أشعر بالخوف على أبي وما قد يحدث لنا لكنني لم أشعر قط بالخوف منه.

سألت كوليت فيشر عصر أحد الأيام: ما رأيك أن تعمل لحسابنا في فصل الصيف؟ سيأتي مزيد من النزلاء هذا العام وسنحتاج إلى المزيد من العون.

رأيت الحماس يتراقص في عينيه للحظة، لكنه نظر إلى المرفأ من النافذة وقال: لا أدري.

- سنعطيك أجرًا بالطبع.

رد فيشر قائلًا بنبرة تخلو من الأمل: يتعين عليَّ طلب الإذن أولًا.

***

في عصر اليوم التالي حضر والد فيشر إلى باب منزلنا بعد أن كان فيشر قد غادر بالفعل.

شممت رائحة البنزين حتى قبل أن يصل مارتن، فأسرعت إلى غرفة نومي ووقفتُ خلف باب غرفتي أستمعُ. هب دودج واقفًا وذهب للوقوف بجانب كوليت وهي تفتح الباب.

كان صوتاهما منخفضيْن جدًّا فلم أستطع سماع ما يقولان لكنني أحسست بوقع كلامهما. كان كلام كوليت ناعمًا كنعومة الطحين بينما كان كلام مارتن هادرًا كوقع أقدام تمشي بخطى ثابتة. دار حديثهما بين شد وجذب لمرة، ثم ثلاث، ثم خمس، حتى سمعت أخيرًا ابتسامة في صوت مارتن. إلا أنها لم تكن ابتسامة صادقة ثم أُغلق الباب.

خرجت من مخبئي. استدارت كوليت ورأتني وكانت عيناها حادتيْن لكن مسرورتان.

- لدي أخبار عظيمة، يبدو أن فيشر سينضم إلينا هذا الصيف.

***

انتهت المدرسة أخيرًا، وكانت فرحتي تسع السماء بأسرها. كان لدي ثلاثة أشهر كاملة من الحرية. ولم أعبأ إن كانت تعج بنزلاء المنتجع، فقد كنت بمنأى عن الشائعات والاختبارات والأكياس البنية الصغيرة المتروكة على مقعدي ومعها ملاحظات مكتوبة بخط يد مختلف تقول: شمي *هذا*. وتعلمت بمرور الأيام ألا أفتحها.

مع نهاية الأسبوع الأول من الصيف، شكلت أنا وفيشر فريقًا يتمتع بمهارة فائقة في تنظيف الأكواخ. اعتدت مسح الأرض بينما هو ينظف الحمامات ثم نغير الشراشف معًا. واستغرق دخولنا إلى الكوخ والخروج منه نصف ساعة. كنا على قدر كبير من التناغم، فلم نحتج إلى الكلام إلا نادرًا. ظن معظم النزلاء أننا إخوة حتى على اختلاف ملامحنا.

كذلك، منحنا تعاوننا فرصة لمساعدة كوليت بطرق أخرى. أشرق صباحنا مبكرًا برائحة الخميرة والقرفة والحبهان عندما قررت كوليت بيع القهوة والمخبوزات. توافد النزلاء يدقون على نافذة المطبخ حاملين أكوابًا أحضروها من الأكواخ في أيديهم. كنا نملأها بالقهوة الساخنة ونناولهم الفطائر الدافئة

الملفوفة بالمحارم الورقية. وأحببت رؤية الراحة على وجوههم عندما تسري الروائح إليهم.

في الظهيرة، كنت أنا وفيشر نعمل في حديقة خضراوات كوليت، فنحفر وننزع الأعشاب الضارة ونشم رائحة الحياة تعود من جديد.

كان فيشر يقول وهو يحصد الخضراوات كما لو كان يحصد الجوائز: إننا مُزارِعان عظيمان يا إيميلين. وسنأكل كما يأكل الملوك.

كانت هذه أسعد لحظاتي منذ الوقت الذي آمنت فيه بالقصص الخيالية، ومنذ أن كان أبي بطل حياتي. حاولت تناسي عودتي إلى المدرسة لكن ذلك لم يمنع قدوم الخريف. خرجت من شاحنة كوليت في يوم عودة الدراسة الأول كما لو كان ماء البحر قد انحسر من حولي وتركني عارية مجددًا.

تمنيت أن يحد الصيف من رغبة الطلاب في إيذائي، لكنني حاولت الانزواء والاختفاء عندما لم يحدث ذلك. لذلك، أبقيت شعري المموج قصيرًا وسلَّطت نظري على الأرض. لم أذهب قط إلى المقصف وتجنبت الذهاب إلى الحمام مهما حدث.

شطبت كل يوم دراسي يمر من تقويمي وتخلصت من التقويم بحلول شهر يونيو.

***

مر عام تلو آخر بصيفه وشتائه، كالمد والجزر في بحر الزمان. بلغت الخامسة عشرة ثم السادسة عشرة لكن التنمر لم ينتهِ، بل اختلفت أساليبه. غزت التكنولوجيا بقعتنا النائية الصغيرة فامتلك بعض الطلاب هواتف نقالة، وأصبحت الشائعات التي انتشرت من قبل عبر الملاحظات والهمسات تسافر بسرعة الضوء بينما أنا في مقعدي أشاهدهم وهم يضغطون على أزرار هواتفهم من خلف مقاعدهم وأشعر بلمزهم يسبح في الهواء.

تمكن ديلان من الاحتفاظ بمقعده قبالتي تمامًا. وكبر جسمه فملأ المساحة حول مقعده. ومد رجله في الممر ليضايقني عند الوصول إلى مقعدي، وارتحلت عينه كما تشاء على جسمي تقيم ما أعجبها وما لا يعجبها. وأصبح تهكمه أكثر لذوعة كرائحة هرموناته ودهان شعره.

كان عادة ما يهمس لي بنكاته السخيفة تلك عندما لا يكون فيشر موجودًا، كما لو كنا قد أبرمنا اتفاقًا ألا يصل إلى فيشر خبرها.

اعتاد ديلان أن يقول بصوت منخفض مسرورًا ويده تمتد إلى أسفل بطنه من تحت مكتبه وهو متأكد أنني أتبعه بنظراتي: هل يمكنكِ أن تشمي ما أخبئه لكِ في جعبتي يا آنسة بيجي؟ كان ينطق هذا اللقب كما لو كان عبارة غزل حميمة أحببت سماعها بمرور السنين. والحقيقة أني بغضتها.

كان فيشر ملاذي الآمن، لكن التغيير بدا عليه كذلك. لاحظت في عصر أحد الأيام، ظهور عضلات في ذراعه لم تكن موجودة من قبل وهو يساعد هنري في تصليح سقف أحد الأكواخ، الذي كانت المياه تتسرب منه، كما أصبح صوته أقوى. لطالما كانت رائحته أشبه برائحة الأشجار، ومع ذلك أصبحت رائحته أقرب إلى رائحة الجذور أكثر منها إلى النسغ. كما أصابني الارتباك بشدة عندما بت أتوق إلى الاختباء في ثنايا أريج جسده عندما أريد الابتعاد عن ديلان.

كذلك، استمر المنتجع في التغيير بسرعة بمرور السنوات رغم نسيان الإعلام للزجاجات الغامضة، وأصبح الخليج السري في أوج ازدهاره بحلول صيفي الرابع فيه، حتى بات من الصعب تمييزه. صار هناك محل بقالة صغير، وألحقت الأكواخ بأربعة أخرى، وذهبت عظام الحوت إلى أحد المتاحف، وتحول المستودع القديم إلى مطعم يعبق برائحة السمك والبطاطس المقلية، وأصبح النزل سكنًا للشبان والشابات الذين عملوا على الطهو وخدمة الطاولات، ولم يعد هنري يأخذ الناس في جولات لرؤية المعالم، وإنما أجرت شركة تدعى مغامرات البحار الرائعة الرصيف وقدمت عروضًا للذهاب في نزهات لرؤية الحيتان والدب الأشيب[1] وقادت مجموعات التجديف رحلات إلى الجزر الأصغر وأحضرت حافلات الرحلات اليومية السياح عند الظهر.

كان السياح دومًا يشتكون من سوء شبكة الإرسال رافعين هواتفهم في أيديهم كما لو كانوا يرفعون أكف الضراعة إلى السماء، ويتجولون على الممر الواسع ومعهم قوائم العروض: *تمتع برؤية الحيتان/ والدببة/ وأسماك السلمون والتجديف*. تناول السياح طعامهم في المطعم وخرجوا للتنزه في

(1) الدب الرمادي، أو الأشمط، أو الأشيب، أو الفظيع هو سلالة دببة من نوع الدب البني.

المراكب والتقطوا صورًا لأنفسهم ثم هموا بالمغادرة، وفي نهاية اليوم لم يبقَ سوى نزلاء المنتجع وعاد الهدوء النسبي مجددًا. تذكرت أول صيف قضيته في الخليج عندما كان الرعب يتلبسني لوجود النزلاء، إلا أنني أصبحت الآن أشعر بالراحة عندما لا يوجد سواهم.

كان معظم الشبان والشابات العاملين في المنتجع من طلبة الكليات في المدن الكبيرة القادمين بحثًا عن مغامرة صيفية، واعتادوا الذهاب للتجديف في أيام إجازتهم، وامتلأت أصواتهم بالثقة وهم ينادون بعضهم. لم يعر هؤلاء الطلاب انتباههم لي أو لفيشر، فقد كنا ما نزال طلاب ثانوية محليين مشغولين بأمورنا على أي حال، لكنني كنت مأخوذة براحة بالهم كما لو كانوا مخلوقات بحرية تسبح بحرية غير عابئين بالطيور الجارحة التي تتربص بهم، كما كنت أشعر أنا.

في الصيف الذي بلغت فيه السابعة عشرة، وظفت كوليت فتاة شقراء من مدينة كبيرة ذات ابتسامة بريئة تسطع منها شموس أماكن لم أرها من قبل. وكان الجميع مأخوذًا بها.

سألتني هذه الفتاة يومًا وأنا أهم بالخروج من أحد الأكواخ وأنا أحمل كومة من الشراشف: أنت تسكنين هنا، أليس كذلك؟

أجبتها وأنا غير متأكدة من صحة إجابتي: بلى.

- إنكِ محظوظة، هذا المكان جميل جدًّا.

سمعنا بعد ذلك صوت الشبان وهم يخرجون من النزل في طريقهم إلى المطعم، فسألتها محاولةً استبقاءها لوقت أطول، فقد كانت تحمل رائحة شروق الشمس والتفاح. وأنا أردت أن أبقى على مقربة منها: كيف الحال في المدينة؟

قالت وهي تبتسم: المدينة؟ إنها كبيرة وسريعة ويمكنكِ فعل أي شيء فيها، إلا أنها تعج بالبشر ويمكنكِ الضياع فيها بسهولة. أعني على نحو جيد، أفهمتني؟

نظر الشبان إلينا ثم نادوا عليها: جيسي، ستتأخرين هكذا!

قالت لي وهي تجري نحو الممر الواسع: عليَّ الذهاب.

وذكرتني تلك الحركة العابرة بشخص ما، واستغرقت وقتًا حتى أدركت: إنه جاك صائد العبير.

ترى كم مر من الوقت لم يخطر فيه جاك على بالي؟ وكم مر من الوقت منذ ظننت أنني أستطيع أن أكون مثله؟ تمكنت بالكاد من تذكر هذا الشعور إلا أنه كان عالقًا بذاكرتي كرائحة عالقة تنتظر داخل طيات كتاب.

***

كانت كوليت على قدر كبير من رباطة الجأش والحماس حتى في التعامل مع أمر توسع المنتجع، على العكس تمامًا من هنري. فَقَد هنري طبيعته شيئًا فشيئًا مع بداية الصيف من كل عام، ومع كل حافلة محملة بالسياح. وكانت كوليت تراقبه بعناية.

قالت كوليت ونحن نشرب القهوة في الصباح يومًا ما: إن جيف يقول إنه لا يستطيع توصيل الطلبيات إلى الجزيرة بعد الآن. ما رأيك بتوصيلها مجددًا أيها الرجل العجوز؟ تعلم أن الأمر يتكرر مرة فقط كل بضعة أشهر. كما أن النُزل الآن به العديد من الشبان الذين يستطيعون إدارة المكان حينما تقوم بالتوصيل.

ارتشف هنري قهوته وهو يفكر.

أضافت كوليت: يمكن لإيميلين مرافقتك.

اختلس هنري النظر إليَّ بارتباك ثم قال بحزم: إيميلين تعيش هنا الآن. ولا يجب عليها الذهاب إلى أي مكان.

تجاذب هنري وكوليت أطراف الحديث كما لو كنت غير موجودة معهما. شعرت فجأة بالسأم من تحدث الجميع عني باعتباري فتاة الجزيرة، أو الآنسة بيجي، أو الفتاة التي أنقذها هنري من براثن الجزيرة. سيطر عليَّ الخوف من أشياء كثيرة لسنين وألزمت نفسي بالانزواء والاختباء قدر ما أستطيع، مع أنني كنت يومًا ما أعتلي قمم أطول الأشجار بحثًا عن العبير الذي تحمله الرياح وأجمع الطعام من أرجاء الجزيرة وأعرف كل نبتة تنمو فيها. وكنت حينها إحدى صيادي العبير بحق.

قلت فجأة: سأذهب معك.

خيم الهدوء على أرجاء المطبخ.

قال هنري: إذن ينبغي لفيشر القدوم معنا أيضًا. ولم أدرِ حينها إن شعرت بأن هنري قد ألقى إليَّ بطوق النجاة أم لفه حول رقبتي.

***

رجوت فيشر ونحن نغير شراشف أحد الأكواخ: رجاءً.

قال فيشر وهو يرمي غطاء وسادة نظيف ناحيتي: لا.

- لن يوافق هنري على ذهابي إن لم تذهب أنت أيضًا. لم أقل *إنني غير متأكدة مما أفعل أو أنا خائفة من الذهاب من دونك.*

هم فيشر بقول: إن الأمر ليس...

- من فضلك.

لم أدرك بالضبط ما كنت أطلبه، إلا أنه وافق على أي حال.

نهاية الصيف

بعد مرور عدة أيام، أبحرنا في قارب هنري الصغير الذي يبلغ طوله قرابة أربعة أمتار مستأنسين برحابة السماء. كان الطقس هادئًا وعليلًا وبدت الجزر متناهية الصغر عن بعد. وقف هنري في مقدمة قاربه ويداه على عجلة القيادة وهو منتشٍ للعودة إلى الماء. وقف فيشر إلى جانبه وبت ألاحظ جسمه يسترخي ويهدأ كلما ابتعدنا أكثر عن الخليج.

جلست على دكة القارب والذعر يهم بالانقضاض عليَّ. كنت قد حدثت نفسي أنني جاهزة للعودة إلى الجزر مرة أخرى. ظننت أن اليوم الذي أحضرني فيه هنري إلى الخليج السري قد مُحي من ذاكرتي، إلا أن ذاكرة جسدي لم تنسَ. أصبح تنفسي بطيئًا عندما دخلنا المضيق وشق القارب طريقه عبر تيارات الماء. شممت رائحة الديزل والماء البارد ودغدغة رائحة الهواء الذي يجري بسرعة، وشعرت فجأة أنني أصبحت في الثانية عشرة مجددًا، وأنا منكفئة على نفسي في أسفل القارب والأمواج تحملنا بعيدًا عن كل شيء عرفته يومًا.

تذكرت صوت هنري وهو ينادي عليَّ رغم ارتفاع صوت المحرك. ستكونين بخير *أيتها الصغيرة*... تحملي.

أردت أن أخبره أن لقبي هو *العصفورة الصغيرة*، إلا أنني لم أستطع. ولم ينادِني أحد بهذا اللقب منذ ذلك الحين.

***

ابتعدت عن عادم القارب وأطلقت لأنفاسي العنان مرحبة بالهواء المالح النقي. أخبرت نفسي أن هذا عبير الحاضر. لم أعر حديث هنري وفيشر انتباهًا وأنا أشاهد الجزر عن بُعد. صارت الجزر أقرب شيئًا فشيئًا وارتفعت عن صفحة الماء تكسوها الخضرة الدائمة. كانت الجزر تجذب جوارحي بقوة إليها، وأحسست بحبي وخوفي من هذا المكان بكل ذرة في وجداني بالقدر نفسه.

بعد قرابة أكثر من ساعة، ابتعدنا عن أمواج المضيق القصيرة المتلاطمة فتوقف اهتزاز القارب. بعد ذلك، دلفنا إلى متاهة عصية على الفهم من الجزر الرمادية والخضراء ذات الجوانب المنحدرة من حولنا وطارت الطيور البيضاء فوق رؤوسنا ثم دارت واختفت ولم يتبقَّ سوى صوت محرك القارب.

بعد برهة، انعطف هنري يمينًا متجهًا إلى ممر ضيق، ثم خفف من سرعة المحرك حتى بدا أننا نتحرك بالكاد. انعكست صورنا على صفحة المياه الهادئة وبدا كما لو كنا نغوص بين عالمين، والأشجار ترتفع حولنا وتدب في باطن الأرض بالقدر ذاته. رأيت حيوان فقمة يراقبنا بعينيه البُنيتيْن الصافيتيْن ونحن نمر، واستطعت أن أشم رائحة السحر في الهواء مجددًا. أردت البكاء من فرط الراحة والآلام التي شعرت بها.

سمعت الأشجار تقول لي هذه *هويتكِ*.

وتأوهت بصوت مكتوم.

***

بعد ذلك، وفي كل مرة أوصلنا فيها الطلبيات كنت أفتش عن جزيرتي، واجتاحتني رغبة عارمة في رؤيتها وعدم رؤيتها في الوقت نفسه. لاحظت أن هنري كان يذهب بنا إلى كل نتوء صخري ما عدا ذلك الموجود في جزيرتي، كما لو كانت جزيرتي بؤرة حرارة ينبغي الاقتراب منها بحذر والاعتياد على

حرارتها قبل لمسها. أصابني ذلك الأمر بالإحباط في أحيان، لكنني شعرت بالراحة بشكل عام، فقد كنت ما أزال في حاجة إلى الوقت.

بدا أن شيئًا ما ينتابني عند ذهابنا في تلك الرحلات. فعندما كنت في المدرسة أو في الخليج، كانت حواسي دائمًا متأهبة وحادة تضطرم كالنار المتأججة انتباهًا لصوت أي آلة أو اختلاج في أي محادثة. لكن هذا كله تغير عندما أدار هنري دفة قاربه نحو الجزر واتسع الأفق أمامنا. شعرت بعقلي يسترخي وأفكاري تنتشي وتتمهل وتسمو بلا عجل عندما لا يحيط بنا شيء سوى الماء. تمكنت من اقتفاء أثر حوت من حركة بعيدة جدًّا تبدو على صفحة الماء، أو معرفة الوقت من ملاحظة أثر الشمس على بشرتي. واستطعت أن أشم، آه، أن أشم.

كنت أشير إلى عش أحد النسور في إحدى الأشجار المرتفعة، أو مجموعة من نجوم البحر الملتصقة بصخرة في عمق البحر وأخبر فيشر أن ينظر إليها، وما إن تنقضي هذه اللحظة حتى يميز أنفي رائحة حطب خشب الأرز من بعيد، أو أن أرى منحدرًا رماديًّا يشبه الجرف الموجود في جزيرتي، فتستيقظ ذكرياتي، وأتذكر أبي يعمل على طاولتنا أو يراقب الدبة من النافذة أو يسبح مبتعدًا عني. وبدا كما لو كنت أفارق جسدي وأن العالم يختفي من حولي.

أمهلني فيشر وهنري الوقت للتأقلم على الوضع، بينما ركز هنري على تعليم فيشر كيفية قيادة القارب خلال التيارات وتمييز صوته عندما يقل الوقود أو مع عطل في المحرك، وكانت رؤيتهما يقفان جنبًا إلى جنب مثل المنارة التي تهدي سفينة حياتي في غمار البحر المتلاطم.

سألني فيشر يومًا ونحن نربط القارب: هل الأمور على ما يرام يا إم؟

قد كان شيء ما يدور بيننا كذلك. عندما كنا نبحر على متن القارب تواصلنا بالنظرات أكثر من الكلمات، ويده تطوق ذراعي وأنفاسه تداعب خدي، وامتزجت روائحنا معًا في مهب الريح وهي تعزف لحنها الخاص، وبدا أن اتساع المسافة حولنا يقربنا من بعضنا أكثر. تذكرت نبرة صوت كوليت وهي تتحدث عن لقياها بهنري، وكيف بدا حبهما بريئًا ووديعًا وظننت أنني لن أشعر بشيء مثله قط. لكنني كنت مخطئة.

***

في اليوم قبل الأخير على انتهاء عطلة الصيف، أبحر بنا هنري عبر المدخل إلى قناة ضيقة منحدرة تختفي سريعًا عن الأنظار.

قال هنري ناظرًا إليَّ بتمعن: ها هي ذي. ها هي ذي جزيرتكِ.

سأله فيشر وهو ينظر إلى عباب الماء: كيف يمكنكِ العبور؟

التفت إليه هنري ثم أجابه: يجب عليك انتظار الوقت المناسب. يمكنك العبور فقط عندما يصبح القمر بدرًا وينخفض المد إلى أقصى درجاته، ولا يمكنك فعل ذلك في قارب أكبر من هذا. ثم أضاف هنري مفتخرًا بصنيعه: لا تسنح هذه الفرصة سوى مرة واحدة بالشهر، وربما مرتين في فصل الصيف عندما يكون النهار أطول. ويصبح الوضع شبه مستحيل في فصل الشتاء.

تذكرت والدي وهو يحاول السباحة وسط هذه الأمواج المتلاطمة –وما إذا كان قد استطاع الوصول إلى القناة على أي حال– وشعرت بأحشائي تتلوى من أثر كلمات هنري.

إنه خطئي.

حدقت إلى المدخل وفكرت في شاطئ البحيرة الذي لم تطأه قدم منذ سنوات، والتوت الذي ترعرع بكثافة على الأشجار، وكوخنا الموجود في نهاية الممر.

قال فيشر مشدوهًا: تبدو الجزيرة مثل الحصن.

سألت هنري وأنا أتلعثم بكلمات غريبة: هل يعيش أحد هناك الآن؟

- لا، لم يقترب أحد من المكان.

يا مسكين. أصبحت مهجورًا كالأطلال. شعرت بالمكان يناديني ويأخذ بيدي إليه قائلًا *تعالي إليَّ.*

قال فيشر وهو ينظر إليَّ ليتأكد أنني على ما يرام: يفصلنا يومان فقط على اكتمال القمر.

رد عليه هنري مبتسمًا: إذن يجب علينا فعل ذلك في وقت لاحق فالدراسة ستبدأ بحلول ذلك الوقت.

حتى مع مرور هذه السنوات كلها، كانت فكرة العودة إلى المدرسة تملأني بالذعر. نظرت إلى جزيرتي وفجأة أصبح كل ما أرجوه هو أن أختبئ بين أشجارها.

***

كان الوقت متأخرًا أكثر من المعتاد عندما عدنا إلى المنتجع؛ فقد سلك هنري طريقًا طويلًا يدور ببطء حول مجموعة من الجزر التي أحاطت بجزيرتي كما لو كان يمهلني الوقت الذي أحتاج إليه.

أما فيشر فقد زاد قلقه بعد انقضاء فترة الظهيرة، بل وطار بالقارب نحو الخليج عندما ناوله هنري عجلة القيادة.

كنا قد وصلنا بالفعل إلى مشارف مدخل الخليج عندما رأينا قارب صيد، تنبعث منه رائحة البنزين القوية في الهواء، يقترب. اختلس فيشر نظرة خاطفة نحو القارب ثم زاد سرعة المحرك لكن القارب تمكن من رؤيتنا بوضوح. قرأت الدهشة على وجه مارتن خلف عجلة القيادة والغضب بادٍ في نظراته وهو يحدِّق إلى فيشر.

سألت فيشر: فيشر، هل كان أبوك على علم بـ...؟

لكنه أدار رأسه نافيًا.

رسونا بقاربنا أولًا، فخرج فيشر من القارب منطلقًا إلى طريق أعلى التلة حتى قبل أن تسنح لي الفرصة بتوديعه. حين ذهابه، راقبه هنري بقلق.

حين رسا القارب الآخر نادى هنري على والد فيشر وهو يمشي على الرصيف باتجاهنا: مارتن.

لم يقل مارتن شيئًا وهو يمضي ولم يبقَ من أثره سوى رائحة لاذعة تشبه احتراق القهوة.

***

لم يأتِ فيشر إلى المنتجع في اليوم التالي. حاولت كوليت الاتصال بمنزله لكن أحدًا لم يرد.

قالت لي كوليت: على الأرجح أنه معاقب ليس إلا، ورغم ذلك كانت الحيرة بادية في نبرة صوتها.

كان هذا اليوم آخر أيام الموسم، بدأت الدراسة في اليوم التالي. رحل النزلاء والطلاب العاملون في المنتجع ولم يتبقَّ إلا أنا وكوليت، ووقع علينا عبء ترتيب الأكواخ كلها، وإغلاقها قبل حلول الشتاء.

قالت لي كوليت: لا يمكننا القيام بالعمل بأكمله اليوم، لكن لنفعل ما بوسعنا.

زاد غياب فيشر من المهام التي توجب عليَّ القيام بها ولحسن الحظ لم أملك وقتًا للتفكير. لكن رائحة القهوة المحترقة والبنزين علقت بذهني حتى وأنا أقضي يومي بين المنظفات برائحة الصنوبر ومساحيق الغسيل. دخلت من كوخ إلى آخر محاولة التركيز على العمل الذي يتعين عليَّ القيام به فقط. لم أرد التفكير في المدرسة أو في فيشر، فقد كنت أنا السبب في الورطة التي وقع فيها، فأنا من ضغطت عليه للذهاب معنا في القارب في المقام الأول. لم يرد فيشر الذهاب، بل وحاول إخباري لكنني لم أستمع.

أنهيت العمل في الكوخ الأحمر، ثم انتقلت للكوخ الأزرق من بعده، حيث أوحت لي الفوضى التي تركها النزلاء تعم أرجاء المكان بعدم تركهم لبقشيش في ظرف وضع على الخزانة. علمت أن المكان قد كان به أطفال من أثر معجون الأسنان المتروك على أسطح الحمام كلها وعلى جدران غرفة النوم أيضًا. أما في المطبخ، فقد تُركت على الفرن قدور بها معكرونة بالجبن طهيت منذ يومين، والتصق الجبن بقاعها، كما كان هناك المزيد من الأطباق المتسخة في الحوض وفي غرفة النوم. كما وجدت أزواجًا مختلفة من الجوارب مخبأة تحت وسادة أحد الكراسي ومبللة في حوض الاستحمام. تعلمت أنه من الأجدر عدم رميها فقد كانت تخص ذلك النوع من النزلاء الذين يتصلون في اليوم التالي قائلين: *يا للهول، لقد نسينا جوارب ابننا المفضلة، يرجى إرسالها*. من دون أن يعرضوا حتى دفع ثمن أجرة البريد.

لكن هؤلاء النزلاء نسوا شيئًا آخر كذلك.

كنت أدفع ممسحتي بقوة أكثر من اللازم فاحتكت بشيء ما ودفعته بعيدًا. ذهبت إلى الجانب الآخر من السرير، فلمحت جزءًا من كتاب مقوى يُظهِر بعضًا من ثوب أبيض فضفاض على غلافه. جثوت لإخراج الكتاب من تحت السرير بنبضات قلب متسارعة فرأيت الأميرة والقزم وحروف كلمات تزين العنوان. *قصص خيالية من حول العالم*.

إنه كتابي.

عندما مسحت بأصابعي على سطح الكتاب، علمت أن هذه طبعة جديدة. قلبت بين الصفحات بسلاسة بإبهامي وكاد بناني أن ينطق من أثر الذكرى.

لم أجد فراغًا في منتصف الكتاب.

لم أقوَ على الحراك مخافة أن يُفزع الكتاب ويهم بالجري كالأرنب. أعدت فتح الكتاب بعناية وأنا أتحقق من كل القصص حتى عثرت على القصة التي لم أرها من قبل. جلست على الأرض مسندة ظهري إلى السرير وبدأت القراءة.

العندليب

كان ياما كان، كان هناك عندليب يعيش في الغابة. كانت ألحانه تطرب الآذان وتُذكر الناس بأماني ماضيهم وأحلام مستقبلهم. وصل خبر العندليب إلى الإمبراطور في مدينته الذهبية.

قال الإمبراطور: أحضروه لي. أود أن أسمعه بنفسي.

انطلقت حاشية الملك وجنوده وطباخوه بأكملهم بحثًا عن العندليب وعادوا غانمين، آسرين الطائر البني الصغير الذي بكى الإمبراطور من عذوبة ألحانه. أُودع العندليب بعد ذلك في قفص ذهبي وسمح له بالخروج منه مرتين في اليوم بعد أن يقيد باثني عشر شريطًا حريريًّا في كل قدم وأن يحمل كل شريط خادمٌ مؤتمنٌ.

ذاع صيت الطائر وأرسل الناس الهدايا على شرفه حتى وصل طرد في يوم ما. كان الطرد يحتوي على طائر آلي مرصع بالياقوت الأحمر والأزرق والزمرد وكان الطائر يعزف لحنًا معقدًا وجميلًا لا يتغير عندما يدير الإمبراطور مفتاحًا به.

قال موسيقي البلاط مبتهجًا وهو يصفق بيديه: هذا الطائر أفضل من العندليب. فالعندليب لا يغني الأغنية ذاتها مرتين، أما هذا الطائر فلن يجعلنا نخمن كثيرًا الألحان التي سيغنيها.

وبينما كانت حاشية الملك تتغنى بجمال الطائر وروعة ألحانه طار العندليب البني من قفصه وهرب بعيدًا ولم يلحظ أحد غيابه.

بعد مرور عدة أشهر، توقف الطائر المرصع بالجواهر عن الغناء. وعند الفحص، تبين أن التروس أصبحت بالية وأُخبر الإمبراطور أن الطائر سيستطيع عزف الألحان مرة واحدة فقط في العام. أصبح الإمبراطور مكسور الخاطر ومرض مرضًا شديدًا حتى ظن الجميع أنه قد مات. لكن العندليب البني الصغير دلف من النافذة وغنى لحنًا بديعًا أعاد الحياة إلى الإمبراطور وأفاقه من سباته.

أراد الإمبراطور الاحتفاظ بالعصفور لكن العندليب قال إنه لن يعيش في القصر مجددًا وأنه سيأتي ليعزف له الألحان أحيانًا لكن شريطة أن يُبقي الإمبراطور هذا الأمر سرًّا بينهما وألا يخبر به أحدًا. بعد ذلك، طار العندليب إلى الغابة وعزف ألحانه للأشجار وللسماء.

وجعلت ألحانه المسافرين يتوقفون في طريقهم مجددًا ليتذكروا أماني ماضيهم وأحلام مستقبلهم.

أصبحت أحترق شوقًا للمدرسة لأول مرة منذ أربع سنوات. لم أدرِ مضمون قصة العندليب، لكنني تأكدت أنها تحتوي على دليل–وإلا لماذا مزقها أبي من الكتاب؟ رجوت أن أعثر على إجابة هذه المرة وعلمت أنني أحتاج فقط الذهاب إلى الكمبيوتر الموجود في المكتبة.

كنت أعد الثواني لإخبار فيشر لكنه لم يحضر لنوصله معنا إلى المدرسة في الصباح، ولم يكن بالصف عندما وصلت. قضيت نهاري بين القلق والجزع، وأنا أفكر بما حدث لفيشر، ثم أتفقد الساعة محاولة دفع عقاربها لتصل إلى وقت الغداء، ومن ثم إعادة الكرة نفسها مجددًا.

لأول مرة، لم أكترث بما يفعله الطلبة الآخرون. فتحت ملاحظة مررها إليَّ ديلان عن قصة خيالية كتبت بخط اليد تُفصل ما فعله الأمير بالأميرة بعدما أيقظها من نومها بشرود ذهن. قرأت الفقرة الأولى ثم رميتها في سلة القمامة وتركته فاغرًا فاه من الدهشة.

عندما رن جرس الغداء أخيرًا، جريت إلى المكتبة واستحوذت على الكمبيوتر. وعندما ظهرت صفحة جوجل على الشاشة كتبت في خانة البحث كل حرف من حروف كلمة *العندليب* بعناية حتى لا أخطئ.

ظهرت قائمة من الروابط الطويلة وغير المجدية. فتحت رابط صفحة ويكيبيديا التي كانت تصف طبيعة طائر العندليب نفسه وامتلأت الصفحة بمصطلحات مركبة مثل تلك المصطلحات الموجودة في كتب أبي العلمية. كما كانت هناك مواقع عن نظام للحماية، ومطعم، وشيء يسمى وكالة تسويق تجريبية. بحثت في تلك الروابط كلها لكنها لم تحتوِ على أي دليل يوصلني بأبي.

وجدت حتى تسجيلًا صوتيًا لطائر العندليب ونقرت على زر التشغيل فملأت ألحانه العذبة الصادقة أرجاء الغرفة كقطرات المطر، ما جعل أمينة المكتبة ترمقني بنظرة جافة.

انتقلت بعد ذلك إلى قسم الصور متصفحة صورة تلو الأخرى لطيور بنية صغيرة الحجم وجميلة المنظر تقف على فروع الأشجار أو في أعشاشها.

شارف وقت الغداء على الانتهاء وبدأت الطالبة في الصف العاشر التي تنتظر خلفي تنقر بقلمها على الطاولة في انزعاج. لم يحالفني الحظ في العثور على أي نتيجة فنقرت إلى خيار التالي في أسفل الشاشة لأنني لم أملك أي خيارات أخرى.

وجدتها. ظهرت صورة لصندوق فضي لامع بمثل حجم كتاب ورقي أسفل أكثر من ثلثي الصفحة. كانت الصورة صغيرة لكنني تمكنت من التعرف عليها على أي حال فقد كانت آلة أبي. نقرت على مصدر الرابط وبمجرد أن ظهرت كلمات جون *هارتفل* على الشاشة رن جرس انتهاء الغداء فزفرت من فرط الارتباك.

حضرت أمينة المكتبة.

قلت لها وخيبة الأمل بادية في نبرة صوتي: أحتاج قراءة هذه الصفحة. سيستغرق الأمر خمس دقائق.

هزت أمينة المكتبة رأسها وقالت: يجب عليكِ العودة إلى الصف. لكن يمكنني طباعتها لكِ على أي حال.

قلت لها: رجاءً وذهبت للوقوف بجانب آلة الطباعة في انتظار خروج الورقة بنفاد صبر ثم أمسكت بها وهرعت عائدة إلى الصف. لم تكن المُدرسة

قد حضرت بعد وكان طلاب الصف في حالة هرج. حملق فيَّ ديلان وأنا أُسرع المشي في الممر للعودة إلى مقعدي.

مد ديلان يده قائلًا: تعلمين أنني *عملت* بجد على هذه القصة الخيالية...

إلا أنني تفاديت تلقائيًّا يده التي مُدت لتمسك بردفي وأنا أمر، فقد كان ذهني مشغولًا بأمور أخرى وجلست لقراءة الورقة.

اختفاء جون هارتفل

ذا ديلي صن

26 سبتمبر 1999

أفادت الأخبار اختفاء العقل المدبر لمعجزة العام الماضي، العندليب. كان جون هارتفل مثار جدل محتدم...

اختطفت يد ما الورقة من بين أصابعي وأنا في منتصف الجملة، فرفعت رأسي مذهولة لأرى وجه ديلان قريبًا من وجهي. انبعثت من فمه رائحة اللحم المسلوق والبطاطس المقلية غير الطازجة.

قال ديلان وهو يرفع يده لقراءة المكتوب: ماذا تقرئين؟

لا، لا، لا، لا. لم أعرف بعد عما يتحدث بقية المقال وكل ما عرفته هو أن ديلان لا ينبغي له الحصول عليه. جلت بنظري في المكان فعلمت أن المُدرسة لم تحضر بعد.

هببت واقفة ثم قلت: أعد إليَّ الورقة يا ديلان.

وقف ديلان أيضًا فاجتمع الصف كله لمشاهدة ما يحدث. اقترب مني ديلان أكثر فأحاطتني أنفاسه.

قال ديلان وعلى وجهه ابتسامة عريضة: وإلا ماذا؟ رفع ديلان الورقة في الهواء ولمس صدري في طريقه.

أشعلت لمسته الغضب بداخلي. كنت أكره يديه هاتين وأكره ملاحظاته الغبية والروائح الكريهة التي انبعثت منه ويقينه بأن كل ما أملك يعود له. نعم لقد احتملت هذا كله لمدة أربع سنوات لكنني حينها خطوت للأمام وركلته بركبتي بقوة وبثبات في جعبته الغالية تلك التي قال دائمًا إنها بانتظاري.

قال ديلان وهو يتلوى: تبًّا.

- اللعنة عليك يا ديلان.

حضرت المدرسة أخيرًا ثم نادت: إيميلين؟

انهار ديلان جالسًا على مقعده فسحبت الورقة من يده ومضيت مبتعدة عنه وعن المُدرسة وعن جميع طلاب الصف المشدوهين مما حدث، حتى وصلت إلى باب الصف وخرجت. سمعت وقع أقدام المُدرسة الغاضبة خلفي، وعلمت أنها سترسلني إلى مكتب المديرة إن هي أمسكت بي أو ستعيدني إلى الصف وسيقرأ الطلاب حينها المقال وسيجبرونني على الاعتذار إلى ديلان. ملأتني تلك الفكرة وحدها بالغضب فمضيت حتى وصلت إلى باب المخرج وفتحته ثم جريت.

***

كانت المسافة حتى الخليج السري تبلغ قرابة ثلاثة عشر كيلومترًا، لكنني واصلت الجري حتى كاد نفسي أن ينقطع، فقد توجب عليَّ الهروب.

لاحظت في النهاية أن المارة في السيارات بجانبي كانوا يحدِّقون إليَّ. لذلك أبطأت من سرعتي. وحينما وصلت إلى الطريق الطيني، سمعت صوت شاحنة كوليت المألوف، وأدركت أن المدرسة قد أخبرتها بما حدث بالطبع. وبالتالي، ابتعدت عن الطريق واختبأت بين الأشجار. عاهدت نفسي أن أخبرها كل شيء لكن لاحقًا فقد كان عليَّ فهم هذا الأمر أولًا.

بمجرد أن تجاوزتني كوليت بسيارتها، جريت إلى المنتجع بخطوات رشيقة متخبطة. كان الخليج خاليًا من البشر؛ فقوارب الصيادين وقارب هنري لم تكن قد عادت بعد. كان دودج ممددًا على عتبة المنزل لكنه رفع رأسه عندما شم رائحتي. نظرت حولي مرة أخرى ثم ذهبت إليه وطوقته

بذراعيَّ لأشعر بدفء جسده. كانت هذه أول لحظة أشعر فيها بالسكينة منذ رأيت صورة آلة أبي على شاشة الكمبيوتر.

- ما هذا الذي أفعله يا دودج؟

أخرجتُ الورقة من جيبي حيث دسستها فقرأت المقال كاملًا هذه المرة.

أفادت الأخبار باختفاء العقل المدبر لمعجزة العام الماضي، العندليب. كان جون هارتفل مثار جدل محتدم إثر تداول أنباء منذ مطلع الشهر الماضي تفيد بأن آلة العندليب لا تستطيع الاحتفاظ بالروائح كما زعم.

أُطلق على آلة العندليب كاميرا بولارويد الفورية لالتقاط الروائح. ويعد هذا الاختراع نتيجة تقنية ثورية تسمى «هيدسبيس» (Headspace Technology) والتي تُمكن من التقاط رائحة ما في البرية وإعادة تخليق معادلتها الكيميائية في المعمل.

وباستخدام تقنية هيدسبيس، رأى هارتفل إمكانية التقاط الرائحة وإعادة تخليقها عبر الآلة نفسها ليحفظها للأجيال الآتية، تمامًا مثل كاميرات البولارويد الفورية التي تلتقط الصورة وتطبعها في الوقت نفسه. ولسوء حظ الآلاف من عملاء آلة العندليب، فإن هذا الاختراع لم يؤتِ ثماره. وعلى غرار اختفاء صور كاميرات بولارويد بمرور السنوات، فقد ثبت اختفاء الروائح التي تلتقطها آلة العندليب في غضون سنة واحدة.

مما أدى إلى موجة غضب عارمة.

نقل المراسلون ما أفادته السيدة تمارا لويس، التي تختصم شركة «سنتوجرافي» (Scentography)، الشركة الأم

قضائيًّا: لقد ضاع حفل زفافي كله هباءً. لقد وعدوني بالاحتفاظ بذكريات يوم زفافي إلى الأبد، أما الآن فلم يتبقَّ لي منه شيء.

علاوة على ذلك، تفيد التقارير أيضًا بوجود دعوى قضائية جماعية.

اختفى هارتفل مع ابنته الرضيعة قبل ثلاثة أيام، في حين ظهرت زوجته وشريكته في العمل، السيدة فيكتوريا وينجت على محطات التلفزيون يوم الثلاثاء وهي تستجديه للعودة.

لا يهمني ماذا فعلت يا جون، فأنا أسامحك. كل ما أريده أن تُعيد طفلتنا الصغيرة إلى المنزل.

فضلًا عن ذلك، أعرب رئيس الشرطة، السيد مارلين ستيرن أنهم يتعقبون كل الخيوط الدالة عليه لكن دون جدوى حتى الآن.

***

وضعت الورقة جنبًا وعرفت أن الآلة السحرية التي جسدت طفولتي بأكملها كانت مجرد اختراع علمي معطوب، وأن أبي كان فاشلًا، وأن لي أمًّا.

كان التاريخ يعيد نفسه مجددًا كما حدث لي مع حوريات البحر. كان كل ما أعرفه محض كذب.

لم يكن هناك أي شيء حقيقي.

نظر دودج إليَّ بعينيه البنيتيْن الحانيتيْن وعلمت أنه يستطيع أن يغفر لي أي شيء فالكلاب أفضل من البشر في هذا الأمر.

رفع كل منا رأسه على إثر رائحة الديزل وصوت المحرك، وعلمنا بعودة قارب هنري. أدركت أنني لا أستطيع التحدث إلى هنري، ليس بعد. بالطبع سيستمع إليَّ وقد لا يطرح حتى عليَّ أي أسئلة، لكنني أردت فقط أن أكون بجوار شخص واحد فقط وهو فيشر. لم أعرف أين يقع منزل فيشر لكنني عرفت أنه كان يسلك دائمًا الطريق الذي يؤدي إلى أعلى التلة من عند الخليج السري. وظننت أنني إن اتبعت هذا الطريق فقد يحالفني الحظ.

نظرت إلى دودج ولاحظت كم بدا عليه الكِبر، وكيف اشتعل الشيب في شعر وجهه بأكمله تقريبًا. أردت اصطحاب دودج معي في هذا الطريق، لكنني علمت أنه لن يقوى على ذلك، لذا طبعت قبلة على رأسه.

قلت له: لا تخبر أحدًا، ثم اتجهت إلى الطريق.

***

كان طريق أعلى التلة شاقًّا، وكانت قدمي تؤلمني بالفعل حين سلكته. لم أكن قد أكلت أي شيء منذ الفطور، لكن العودة إلى المنزل لإحضار طعام كانت تعني احتمالية لقائي بهنري، وشيء ما أخبرني أنه لن يحبذ ذهابي إلى فيشر. لذا، استنشقت الكثير من الهواء حتى يمد الأكسجين عضلاتي بالقوة اللازمة.

لم أصل إلى ذلك الارتفاع من قبل. مررت بكوخ مقفر تداعى سقفه فنبتت الأشجار الصغيرة في وسطه. بدا أن شخصًا ما حاول إفساح موضع لحديقة في المكان من قبل لكن الغابة بسطت سيطرتها عليه مجددًا.

واصلي السير يا إيميلين. اعثري على فيشر.

عاودت المسير لكن روائح مطلع سبتمبر زكمت أنفي، والغابة على وشك أن تغط في سباتها الذي يتخلله انهمار المطر والطين والأوراق المبللة.

عندما كنت طفلة، اعتاد أبي أن يدثرني بالغطاء كل ليلة. كان يصعد السلم إلى حجرتي ويدثرني بالأغطية بذراعيه الدافئتين الحانيتين. دائمًا ما اعتقدت أن الخريف يفعل الشيء ذاته، فيدثر الطبيعة كلها في أمان لا مثيل له.

تُرى من كنت يا أبي؟

دلني المقال على اسمه، لكن ذهني أصبح الآن مشغولًا بأسئلة أكثر تعقيدًا.

تُرى لماذا أخذتني معك يا أبي؟ هل أحببتني؟ لماذا أبعدتني عن أمي؟

كنت غارقة في أفكاري حتى كدت أتعثر عندما انتهى الطريق فجأة عند حافة طريق طيني يماثل اتساع طريقنا لكنه أكثر عمقًا.

تُرى أي طريق أسلك؟

وقفت هناك أفتش جيئة وإيابًا عن دليل لكنني لم أرَ غير أجمة من الأشجار وطريق قد يوصلني أو يضيعني.

اتبعي أنفكِ يا إيميلين.

كانت هذه كلمات أبي، لكن الصوت الذي كان يصدح في رأسي كان صوتي أنا.

تنفست ببطء ثم أخذت نفسًا أعمق حتى تأتي روائح الغابة والطريق راغمة إليَّ فوجدت حينها رائحة احتراق حطب أشجار جار الماء. كانت الرائحة تنبعث من يساري لذلك استدرت في ذلك الاتجاه مشيًا على أجزاء الطريق المسطحة بين الحفر.

مرت عشر دقائق قبل أن أرى منزلًا موحشًا بهت الطلاء الأصفر الذي كساه يومًا، وهبط أحد جوانب شرفته. كانت هناك سيارة صدئة مركونة في فناء المنزل الجانبي، ونمت الأشجار قرب الجدران والسقف كما لو كانت تحاول حجبه عن الأنظار. انبعثت رائحة أشجار جار الماء من الدخان المتطاير من مدخنة المنزل. علمت أنني وصلت إلى المكان الصحيح حتى وإن بدا ما أفعله خاطئًا.

هممت بالسير إلى الممر القصير المؤدي إلى المنزل، فسمعت صوت سيارة من خلفي كما فُتح باب المنزل، فخرجت امرأة إلى شرفته في الوقت نفسه تقريبًا. كانت المرأة شديدة النحافة والشحوب لكنني استطعت أن أميز جمالها الذي ولت أيامه. كان لون عينها بمثل روعة عين فيشر الخضراء، وكان لون شعرها صورة باهتة من لون شعر فيشر الأصهب. رأتني المرأة فتسمرت في مكانها غير متأكدة مما تفعله ودارت نظراتها بيني وبين السيارة القادمة.

لم أستطع الاختباء في أي مكان، ولم تقل المرأة شيئًا. استدارت السيارة حول المنعطف فرأيت أنها شاحنة حمراء كبيرة يقودها والد فيشر وفيشر يجلس في المقعد المجاور له. حين قرأت الدهشة على وجه فيشر، تمنيت لو أنني ظللت في الكوخ حيث كنت مع دودج. وعلمت أنني لم أفكر سوى بنفسي ولم أفكر بتبعات زيارتي لفيشر.

توقفت الشاحنة في الممر.

سأل والد فيشر وهو يخرج منها: ما هذا؟

أدارت والدة فيشر رأسها ثم قالت: لا أدري. لم أرها سوى الآن حين خرجت.

التفت والد فيشر ناظرًا إليَّ من كثب.

- ألست صديقة فيشر؟

أومأت برأسي فلم يكن هناك أي داعٍ للكذب فقد كنا قد التقينا بالفعل.

خرج فيشر من الشاحنة ووقف خلف أبيه. وانبعثت منه رائحة السمك.

قال مارتن: ماردیل. لقد كنت دائمًا تشتكين من عدم قدوم الضيوف إلينا. انظري حضرت ضيفة إلى عتبة منزلنا. يجب عليكِ أن تدعي الفتاة للعشاء.

قلت وأنا أختلس النظر إلى تعبير وجه مارتن المتصنع: عذرًا، لكن كوليت تنتظرني على العشاء.

أجاب مارتن: لا بد وأنكِ جائعة. لا تقلقي سنتصل بكوليت لنخبرها. أنا متأكد أن الأمور ستكون على ما يرام. انطلق مارتن إلى المنزل وكله ثقة أنني سألحق به.

تلاقت نظراتي أنا وفيشر.

حركت شفتي بلا صوت *أنا آسفة*. هزَّ فيشر كتفيه فأثارت هذه الحركة الذكرى في نفسي. ذكرى أبي عندما كان ينطوي على نفسه عند حلول الشتاء.

العشاء

بمجرد دخولنا، اتجه والد فيشر إلى مؤخرة المنزل.

قال مارتن: سآخذ حمامًا. سوف أكون جاهزًا بحلول العشاء.

ذهبت والدة فيشر إلى المطبخ وعادت حاملة الجعة ثم اتجهت إلى المكان نفسه الذي ذهب إليه مارتن. سمعت صوت صنبور ماء الاستحمام يفتح. ثم شممت رائحة المياه وهي تنتقل من الفتور إلى الدفء إلى السخونة. جلت ببصري في أرجاء الغرفة فرأيت أريكة زرقاء مهترئة وسجادة باهتة منسوجة باللونين الأحمر والأصفر مفروشة على الأرض. ومع ذلك، كانت جميعها نظيفة بدقة.

أرتني والدة فيشر الهاتف الموضوع على الطاولة قرب الأريكة، في أثناء عودتها عبر غرفة المعيشة.

قالت لي: يجدر بكِ الاتصال بكوليت حتى لا تقلق.

دارت عيناها بيني وبين صالة المنزل وبين المطبخ فرأيت كم هي رقيقة كعصفور في جسد إنسان، بشعرها الأصهب وعينيها الخضراوين وحركتها الدؤوبة اليقظة.

رفعت سماعة الهاتف بتردد، ثم طلبت الرقم وأنا أراقب فيشر وهو يتبع أمه إلى المطبخ. لم ينبس فيشر بكلمة مطلقًا بعد. حاولت معرفة ما يفكر به

من خلال رائحته والتعبير المرسوم على وجهه وهو يمضي إلى المطبخ لكن لم أشم سوى رائحة السمك وكان وجهه خاليًا من التعبير.

سمعت صوت كوليت من السماعة يقول: مرحبًا.

- هذه أنا.

- حمدًا لله. أين أنتِ. لقد اتصلت المدرسة وقالوا أنكِ هربت في منتصف اليوم ولم يعرف أحد إلى أين.

- أنا في منزل فيشر.

انقطع سيل كلمات كوليت فجأة ثم قالت: ماذا؟

- هل يمكنني المكوث حتى العشاء؟

ساد صمت مدروس في الجانب الآخر من الخط طويلًا ثم قالت كوليت: هل أنتِ بخير؟

- نعم. لا.

قالت كوليت بنبرة حازمة: يجب علينا التحدث يا إيميلين. ما حدث اليوم...

- أنا أعلم.

ساد الصمت ثانية.

- سأجعل هنري يأتي لاصطحابكِ في الثامنة.

- حسنًا.

كدت أشم رائحة القرفة المكسوة بالقلق في صوتها عبر الهاتف.

أنهيت المكالمة ثم ذهبت لأقف على عتبة باب المطبخ. رأيت فيشر ووالدته يعملان تلقائيًا في صمت. كان فيشر يساعد والدته بمهارة فائقة، فعرفت كيف استطاع أن يصبح شريكًا مهمًا في عملية تنظيف الأكواخ. كان فيشر ووالدته يناولان بعضهما الأواني في صمت بحركات صغيرة محسوبة لا تتخللها صلصلة للسكاكين أو طرق للقدور. كانا يعملان معًا كفريق، مما جعلني أشعر بالغيرة على نحو ما، حتى وإن كنت أعرف أنه لا يحق لي الشعور بذلك. علاوة على أنهما كونا فريقًا من نوع مختلف.

كان ماء الاستحمام ما يزال جاريًا.

سمعنا مارتن ينادي: مارديل. أجفلنا جميعًا من أثر الصوت، إلا أن والدة فيشر فتحت الثلاجة وأخرجت علبة جعة أخرى ثم اختفت.

سألت فيشر عندما لم يكن هناك أحد سوانا: هل ستعود إلى المدرسة؟

كان عليَّ التحدث إليه. ومع ذلك لم أستطع قول الأمور الأخرى التي شغلت ذهني. *هل ستصبح على ما يرام؟*

أدار فيشر رأسه وقال: لا أدري.

- لكن هذا ليس عادلًا.

قال فيشر ببلادة: بالطبع. ليس هذا عادلًا.

***

- كنت قد أصبحت صيادًا بالفعل عندما قابلت هذه المرأة الجالسة هناك.

انقضى نصف وقت العشاء المكون من الدجاج المشوي والبطاطس المهروسة، لكن رائحته اللذيذة أصبحت جافة بسبب التوتر العالق في الجو. وقع على والدة فيشر عبء توزيع الأطباق معظم الوقت حتى يتسنى لها التأكد أن طبق زوجها ممتلئ. كان والد فيشر يشرب علبة جعة خامسة، من دون أن يعبأ بالعد.

واصل مارتن حديثه وهو يسترخي في مقعده: كانت مارديل أجمل ما رأته عيني، بشعرها الأصهب وعينيها الخضراوين الواسعتين. رأيتها تقف على جانب الطريق فوصلتها إلى البلدة. أخبرتني أنها أيضًا تحب البحر وأنها قد تساعدني في الصيد. ظننت أنني عثرت على المرأة المثالية كما يحدث في القصص الخيالية.

كان من الصعب عدم التحديق إلى مارتن وهو يقص القصة بزهو كبير، وهو يحرك يده وتتغير التعبيرات على وجهه بحماس كبير.

- وعليه، فقد تزوجنا. لكنها لم تكف عن التقيؤ في كل مرة نبحر فيها ونبتعد عن الكوخ. كنت أنا الشيء الوحيد التي استطاعت هذه المرأة أن توقعه في شباكها. كما أن السمك كان ينفذ بجلده عندما كانت معي، فالسمك يستطيع تمييز وجود شخص كاذب على متن القارب.

قالت والدة فيشر بهدوء: مارتن.

واصل مارتن الحديث رغم ذلك وهو يضيق عينه ويبرم جانبًا من شفته العليا: هذا حقيقي. *إنه يشعر بالاحتقار.*

عرفت كيف أجمع الأدلة كما علمني فيشر. *إن التعبيرات المصطنعة لا تأتي بخير أبدًا.*

اتكأ مارتن بثقله الآن على مقدمة الكرسي وهو يسد المسافة الفاصلة بيننا.

- أتعلمين ما يثير السخرية حقًّا؟ لقد كان ابني يقول دائمًا إنه يكره البحر كذلك. لقد أخذته معي في إحدى المرات لكنه تصرف طوال الوقت كما لو كنت أحاول قتله. (ثم قال وهو يضحك) لقد سميته *فيشر*(1). بالطبع هذا الاسم لا يليق به.

أخذ مارتن رشفة طويلة من العلبة في يده ونحن جميعًا نترقب.

سألتني والدة فيشر: كيف كانت المدرسة اليوم يا إيميلين؟

رمقها فيشر بنظرة خاطفة.

أكمل مارتن حديثه كما لو كانت مارديل لم تتحدث: لقد شككت حتى في نسبه أحيانًا. أعني، انظري إليه.

جلست والدة فيشر باستقامة أكبر على كرسيها بينما لم يتحرك فيشر. كان فيشر نسخة طبق الأصل عن والدته، وكان والد فيشر محقًّا في هذا الصدد، فلم يرث فيشر لو قليلًا من عينيه الداكنتين أو شعره الفاحم.

ثبت مارتن نظراته عليَّ وهو ينفث دخان سيجارة كان قد أخرجها ثم أشعلها وهو جالس قبالتي على الطاولة.

- رغم هذا، أنا لا أنقض العهد الذي أخذته على نفسي. كما أنني حظيت أخيرًا الآن بمساعد حقيقي بعدما تبين أن فيشر لا يكره المياه على أي حال.

التفت مارتن إلى فيشر وحدق إليه بنظرات شديدة الجفاء.

---

(1) اسم فيشر، وبالإنجليزية Fisher يعني صياد السمك.

توتر فيشر.

اندفعت قائلة: وماذا عن المدرسة إذن؟

التفت مارتن إليَّ ثانية فندمت على الفور أنني لم أُبقِ فمي مغلقًا.

قال مارتن وهو يأخذ نفسًا آخر من سيجارته: لا يحتاج الصيادون إلى الذهاب إلى المدرسة. كل ما ينبغي لهم معرفته هو الصيد.

قالت والدة فيشر ثانية: مارتن.

هب مارتن قائلًا بكلمات مزلزلة: ماذا؟

مال فيشر ناحيتي ثم قال: ألا تريد منكِ كوليت العودة إلى المنزل بحلول السابعة؟

أومأت برأسي وأنا ممتنة لتلك الكذبة.

سألته ماردیل: هل يمكنك إيصالها بالسيارة يا فيشر؟

قال مارتن صارمًا: ليس لدينا ما يكفي من الوقود.

- لا يمكننا أن ندعها تعود عبر الغابة.

هب فيشر واقفًا: سأمشي معها حتى المنزل. هم مارتن بالوقوف.

قال مارتن: فيشر.

ثم رأيته وهو يبسط يده اليمني.

نظر فيشر إلى مارتن بنظرات محمومة. انحنت والدة فيشر إلى الأمام فحك كرسيها في ألواح الأرضية الخشبية. تراجع فيشر إلى الخلف.

قال فيشر وهو يجذبني نحو الباب: هيا بنا يا إيميلين.

أدرت رأسي لأنظر إلى والدة فيشر وهو يسحبني بعيدًا لكن نظراتها كانت مثبتة على زوجها.

***

وقفنا في ممر السيارات وفيشر يحاول إنارة مصباح يدوي. أمسى الجو باردًا والسماء ملبدة بالغيوم.

قلت: أنا آسفة. الذنب ذنبي.

- لا ليس هذا ذنبكِ.

فجأة سمعنا صوت ارتطام طبق على الأرض يأتي من غرفة الطعام فقال فيشر: يجب علينا الذهاب، ثم ضرب المصباح بقوة فأنار.

مشينا على الطريق المظلم الذي تحفه الأشجار المتشابكة من كل جانب في صمت. هممت بالمشي بجانب رأس الطريق، لكن فيشر انعطف دون أن يحتاج حتى إلى النظر. أطبق علينا الظلام بعد أن سرنا قرابة متر فأدار فيشر المصباح خلفه حتى ينير لي الطريق.

- ألا تحتاج إلى الضوء لترى أين تسير؟

- أنا بخير.

بدا كما لو أن كلماته قد علقت في الأشجار وخيوط الكذب تتدلى منها.

- هل أنت بخير حقًّا؟

- نعم، ولا.

- ما هذا الذي دار في منزلكم؟

- هذه طبيعة أبي.

اتضحت الصورة في ذهني الآن بعد أن جمعت الخيوط بعد مرور وقت أكثر مما ينبغي. تذكرت ملابس فيشر ذات الأكمام الطويلة، وغيابه عن المدرسة، ونوبات غضبه. وقلت له: ألا يمكنك فعل أي شيء. ما رأيك بإبلاغ الشرطة؟

دفع فيشر فرعًا من الطريق ثم قال: لن تشهد أمي ضد أبي أبدًا يا إيميلين.

- لكن...

- دعيني آخذكِ إلى المنزل فحسب.

استيقظ الحنين في داخلي ثانية عندما سمعته يقول كلمة المنزل.

مشينا في صمت وذهني مشتت. كنت أنا السبب في ذهاب فيشر معي أنا وهنري بالقارب. فأنا لم أحاول استيعاب ما كان يحاول قوله لي. بل إنني لم أفكر إلا بنفسي عندما ذهبت إلى عقر داره لأنني كنت بحاجة إليه فأججت النار في كومة قش دون أن أعلم.

إلا أن المعرفة الكافية لم تنقصني حقًا. فقد كبرت على سماع القصص الخيالية حول الآباء الذين تركوا أبناءهم في الغابات وزوجات الآباء الشريرات اللاتي كن يتحدثن إلى المرايا. كانت الأدلة كلها أمام عيني، ومع ذلك لم يستطع ذهني تصور كم كانت هذه الشخصيات التي قرأت عنها حقيقية حتى بعد كل ما مررت به منذ أن تركت الجزيرة. فأنا لم أستطع احتمال هذه الحقيقة.

أيقظني صوت فيشر من شرودي وهو يقول: ها قد وصلنا.

رفعت نظري فرأيته ينظر إلى أسفل حيث كوخ هنري وكوليت. كانت أضواء المنزل كلها منارة، وانقشعت الغيوم بينما كنا في الغابة، فانعكس البدر على صفحة الماء. أدركت فجأة تمام القمر وكدت أشعر بالتيار يسحبني إليه.

تعالي إليّ.

استدار فيشر ليصعد أعلى التلة إلا أنني لم أستطع تركه يعود إلى ذلك المنزل. فقد كنت أعلم ما سيكون بانتظاره.

إنه خطئي.

- لا تذهب يا فيشر.

قال فيشر بنبرة ناضجة وجافة وساخرة: ترى أين يمكنني الذهاب إذن؟

فجأة، تراءى لي الحل.

- الجزيرة.

انطلقت الكلمات بسرعة من فمي من دون تفكير ومن دون أدنى حساب للمنطق أو للعواقب.

- ماذا؟

- يمكننا الذهاب معًا؟ أنا أعرف كيف يمكننا الاعتماد على أنفسنا.

صمت فيشر ورأيته وهو يفكر وقرأت اللهفة على وجهه. ثم نظر إلى القمر بعينين واسعتين.

- القناة...

أحسست بالأمل في كلماته فانتهزت الفرصة: يمكننا فعل ذلك يا فيشر.

- وماذا عن القارب؟

تشتت ذهني. فأنا لم أفكر بهذا الأمر لكنني لم أستطع الاستسلام الآن فأخذت نفسًا عميقًا.

- يمكننا أخذ قارب هنري. إنه يستخدمه في توصيل الطلبيات وقد قمنا بتوصيلها بالفعل.

كم بدا هذا الأمر بعيدًا وهو لم يمضِ عليه سوى يومين؟ كم تغير العالم تمامًا منذ ذلك الحين. للحظة تذكرت الآن تلك الحياة الأخرى على متن القارب مع هنري وكيف أراني الجزيرة وأعادها إليَّ.

حدق فيشر إلى عيني مباشرة ثم قال: هل تستطيعين فعل ذلك؟ أعني أخذ القارب؟

لم يكن فيشر يحملني عبء الاختيار لكن توجب عليَّ الاختيار على أي حال.

ترددت فيما يجب عليَّ فعله. *لا، لا أستطيع فعل هذا* بهنري. ومع ذلك، أومأت برأسي.

قال فيشر: حسنًا. كان فيشر عازمًا على العودة وقال: يجب عليَّ العودة على أي حال. يجب أن أخبر أمي.

- لا. لا نملك الوقت.

أدركت أن عليَّ المضي في الأمر وإلا سأتراجع عن فعله.

قال فيشر: سأسرع ثم هب يجري أعلى التلة.

الهروب

راقبت فيشر حتى اختفى بين الأشجار ثم التفت للنظر إلى النور الساطع من المنزل وقلبي يرتجف. ما هذا الذي أفعله؟ لقد اعتنى هنري وكوليت بي منذ خمسة أعوام، وحتى الآن وكانا ملاذي وقت الشدة وسمعت صوت مودتهما حتى عندما أحباني بصمت.

تذكرت كوليت وهي تتكبد عناء اصطحابي كل يوم بعد المدرسة، وهنري وهو يعطيني دروسًا عن الحياة عبر فرشاته ومطرقته. أما أنا فقد كنت على وشك خيانتهما مخلفة ورائي العواقب كما فعلت من قبل. كنت قد أقسمت ألا أعود لهذا أبدًا، لكن كان عليَّ حماية فيشر.

حاول ذهني تغليب المنطق. حدثت نفسي أن أبي لم يكن له سواي، وأن خيانتي له قد تركته وحيدًا، أما هنري وكوليت فسيكونان بصحبة بعضهما وسيتعافيان من أثر الصدمة، بل قد يتفهمان حتى ما سأفعله، فقد كانت كوليت في يوم من الأيام فتاة تحب السفر، وقد فر هنري يومًا بحثًا عن السلام والأمان. لذا حدثت نفسي أن الأمور ستصبح على ما يرام ورددت العبارة كما لو كنت أردد إحدى الترانيم.

عدت محدثة نفسي. *هذا ما سيحدث بالطبع. كما يحتمل ألا تكون مارديل تتعرض لضرب مارتن الآن كذلك.*

كل ما تأكدت منه هو أن فيشر سيقع تحت قبضة أبيه إن لم نهرب. وسيصبح هذا خطئي. لذلك أصبح كل شيء هينًا في سبيل إنقاذه من هذا المصير.

***

قالت كوليت وأنا أدلف من الباب: آه يا طفلتي العزيزة. كاد أن يحطمني ذلك الحب الذي يقطر من صوتها. ظننت لوهلة، مأخوذة بحديثها العذب، أنهما قد يستطيعان مساعدتي وفعل شيء ما إن أخبرتهما الأمر برمته.

لكن عندما هممت بفتح فمي حضر هنري إلى صالة المنزل ومفاتيح القارب في يده. تحقق هنري بسرعة من سلامتي وهو يتفحص وجهي ويديَّ ثم سألني: هل أنتِ بخير؟

فهمت حينها أنهما قد كانا يعرفان بشأن مارتن ولا شك لكنهما لم يفعلا شيئًا. لم أدرِ ما أصابني بالضيق أكثر، معرفتهما بالأمر أم عدم معرفتي به. وهكذا، جعلت موجة الغضب التي اعترتني تلك تغرق الكلمات التي كنت سأنطق بها وتفلتني من قبضتهما.

قلت وأنا أتجه إلى غرفة نومي: أريد النوم فحسب.

- إيميلين، يجب علينا...

صفقت الباب خلفي ثم استندت إليه وقلبي يدق بقوة. بعد قليل من الوقت، عادت كوليت إلى المطبخ آخذة رائحة الحبهان وعجين الخبز معها. قطع دودج الصالة ببطء حتى وصل إلى عتبة بابي وأخذ يحك به لكنني لم أستطع فتح الباب له خوفًا من البكاء.

***

قضى هنري وكوليت وقتًا طويلًا في المطبخ يتهامسان. أما أنا فقد استلقيت على فراشي في انتظار خلودهما للنوم.

لم يتوقف ذهني عن التفكير وأحسست بالتيار يجذبني إليه. تأكدت شيئًا فشيئًا أنني لا أفعل هذا الأمر فقط لأجل فيشر، فقد كان عليَّ الذهاب إلى الجزيرة من أجلي أنا. في الواقع، لمعت الفكرة في رأسي منذ أن بدأنا توصيل الطلبيات إلى الجزر مع هنري، لكنها كانت ضربًا من الخيال حينها. أما بعد

العثور على هذا المقال، عزم شيء ما في داخلي على العودة، العودة إلى البحيرة وإلى كوخنا ومعرفة ما إذا كان الرجل في ذلك المقال ينتسب إلى ذلك الأب الذي عرفته في ذكرياتي. كان عليَّ جمع كل الخيوط معًا لأرى إلى أين ستقودني.

لكنني لم أكن لأفعل ذلك إن لم أذهب إلى كوخ الجزيرة.

هممت بالتركيز على التفاصيل ووضع خطة لأشتت ذهني. كنا ما نزال في شهر سبتمبر، وعرفت أنه سيكون هناك طعام وفير لنجمعه عندما نصل، فقد قال هنري إن المكان ليس به أحد، كما أن الكوخ سيكون بحالة جيدة إن حالفنا الحظ.

حاولت الاسترخاء وأنا أتذكر المهارات التي تعلمتها وأنا طفلة في حضن تلك الأشجار الشاهقة الحانية. رفضت التفكير في شعور هنري وكوليت عندما يجدان غرفتي فارغة. كما رفضت التفكير فيما سأشعر به عند جمع الطعام من حول الشاطئ من دون سماع صوت ضحكات أبي.

خلد هنري وكوليت إلى النوم بعدما مر وقت بدا أنه لن ينتهي، وبت أنصتُ إلى سكون الليل. دسست بعض الملابس في حقيبة ظهري عندما سمعت صوت إيقاع شخير هنري الهادر ثم وضعت المقال وزجاجة العبير المختومة بالشمع الأخضر، ثم فتحت الباب بحذر. كان دودج يغط في سبات عميق بسبب كبر سنه عند الطُرقة بالخارج. نظرت إليه للحظة، ثم خطوت حوله بحذر في طريقي إلى المطبخ.

كنا بحاجة إلى المستلزمات الأساسية، مثل الطحين والأرز والملح. كما أخذت بضعة أكياس من أكياس البقالة ثم نشلت مفتاح القارب من العَلَّاقة المُعلَّق بها قرب الباب. لمحت ظل فيشر من النافذة وهو جالس على عتبة درجات الشرفة. ارتديت حقيبة ظهري واختطفت الطعام ثم ذهبت إلى الباب الأمامي.

وقلت لنفسي وأنا أسمع الباب يغلق خلفي: *امضي في طريقكِ فحسب يا إيميلين.*

***

قرأت على وجه فيشر ما أشعر به فسألته: هل أنت بخير؟

قال فيشر: لم توافق أمي على القدوم.

ثم ابتلع ريقه. عانقنا بعضنا.

قال فيشر: حسنًا، لنذهب.

كانت رحلة خروجنا من المرفأ شاقة. لم نجازف بتشغيل المحرك لذا توجب علينا التجديف لكن القارب لم يكن مصممًا ليعمل بهذه الكيفية. اندفعنا إلى الأمام ببطء شديد رغم تجديفنا المستميت. كان كل منا يجلس عند أحد طرفي القارب، لكن القارب كان يميل إلى الجوانب إذا لم نقم بالتجديف في اللحظة نفسها. وأصبح المد الذي احتجنا إلى عونه لاحقًا عدونا. كنت أسمع المد وهو يجري نحو الصخور على الشاطئ. كان حديث الصخور والماء ذلك دائمًا مثل موسيقى تُطرب أذني لكن ليس الآن، فقد أخبرتنا الصخور أننا نخسر سباقنا مع المد.

شعرت بألم مسامي حاد لبثور تتكون في التقوس بين إبهامي وسبابتي. وكادت عضلات رقبتي تصرخ من رفع رأسي المستمر. نظرت خلفي بحثًا لأرصد أي ضوء في أي من نوافذ هنري وكوليت.

- هل يجدر بنا...

الاستسلام. العودة.

- لا.

أغمضت عيني حينها ثم ركزت سمعي على صوت ضربات فيشر وهو يجدف ثم استدعيت كل ذرة من قوتي لتتركز في ظهري وذراعي ويديَّ. عندما كنا نتقدم إلى الأمام ببطء، بدأت أشعر بالقارب وهو يتأرجح قليلًا مع تيار المد في المياه البعيدة. وبدأت رائحة الأشجار تخفت لتغطي عليها رائحة الماء والملح.

بعد ذلك، خرجنا بضربة واحدة من المجاديف. فتحت عيني فرأيت الجزر في الأفق البعيد بالكاد كخط أسود رفيع بين المياه المتلألئة والسماء المظلمة. أدهشتني القدرة على الرؤية خلال الليل عندما لم يحجبك شيء كالأشجار والتلال عن القمر.

جذب المد مقدمة القارب نحو الجنوب بطول الساحل، فأدار فيشر المفتاح فبدأ هدير المحرك. أدار فيشر دفة عجلة القيادة بقوة وقادنا عبر التيار نحو الجزر. أما أنا فقد وجهت وجهي نحو الرياح لأنعم بهبوب الهواء النقي والندى ونحن ننطلق نحو الشرق.

وقلت لنفسي: *لا تنظري إلى الخلف.*

***

أضاء القمر صفحة الماء في سباقنا عبر المضيق. وتزين العالم بانعكاس اللونين الفضي والأسود الساحرين. حولت السماء الساطعة سطح الأمواج من اللون الفضي إلى الأبيض وهو ما لم نكن لنلاحظه إذا لم نكن نراقب صفحة الماء بدقة حذرًا من قطع الأخشاب الطافية.

لم ألتفت إلى الخلف قط إلا عندما رأيت أول صف من الجزر. وعاهدت نفسي أن تكون هذه المرة الأولى والأخيرة. راقبت الأمواج المتراقصة بحثًا عن قوارب ثم توقفت. كانت هناك حركة في الأفق نفسه، وصفحة الماء تنبلج حتى يرتفع ماؤها ثم يهبط الماء ثانية.

ناديت وقلت مشيرة إلى الوراء: فيشر، انظر.

التفت فيشر: ماذا ترين؟

- أبطئ السرعة.

- حقًّا؟ كنا مسرعين إلى وجهتنا لما يقارب الساعة.

- نعم. انظر إلى الخلف.

أبطأ فيشر المحرك وأنا في انتظاره أراقب ذلك الخط في الأفق الذي تحول إلى سباق محموم. ومن ثم انبلجت صفحة الماء عن شيء رفيع أبيض وأسود ارتفع كالقوس في مظهر احتفال مؤكد.

قلت وأنا أضحك: دلافين. إنها دلافين.

سارعت نحونا المئات من الدلافين التي جاوزت سرعة القارب بمراحل. تجاوزتنا الدلافين بذيولها اللامعة وظهورها البراقة في أسراب تلو الأخرى. وقفنا مشدوهين لما يقرب من عشر دقائق والدلافين تجري حول القارب. تجاوزَنا آخر سرب من الدلافين أخيرًا فلحقناها بأنظارنا وهي تمضي قدمًا

تاركة الزبد خلفها.

قال فيشر: كان هذا ترحيبًا ولا شك.

***

وصلنا إلى جزيرتي في الوقت المناسب قبل ارتفاع المد. كان هناك ضوء كافٍ لرؤية الصخور على جانبي القناة والمياه تندفع فوقها في موجة غضب عارم، حتى ونحن في غمار المتاهة المظلمة للأرخبيل. أدركت أن الماء أعمق مما يبدو، فقد قضيت ساعات طوالًا أحدق إلى هذه المياه في اليوم الذي غرق فيه أبي وأنا أحاول أن أحفظ كل تفصيلة من تفصيلات هذه المياه وهي تندفع نحو الصخور المتخفية بالكاد.

سألني فيشر: ما رأيكِ؟

كان المد ما يزال مرتفعًا عندما نظرت إلى سطح المياه.

قلت له: ليس بعد.

انتظرنا، ثم أشرقت الشمس شيئًا فشيئًا فاستطعنا رؤية الزبد الذي تدفعه الأمواج يتناقص بمرور الوقت. بعد ذلك، تباطأ الماء في القناة ثم توقف ببساطة كخروج النفس الأخير. رأيت الجزيرة تدعونا إليها بإنزال جسر القلعة.

قلت لفيشر: الآن. فأدار المحرك. كان الارتفاع شاهقًا حولنا وبدأ شروق الشمس يحول الأشجار من اللون الأسود إلى الأخضر. ودار الزبد في دوائر عشوائية مرتبكًا من توقف حركة الماء فجأة. طفت طحالب ثور البحر الطويلة حولنا كمخلوقات بحرية عجيبة ذات ذيول نحيلة فأعاقت رؤيتنا.

لكننا واصلنا المسير محاولين الإبحار في أي اتجاه بدا أنه منتصف القناة عندما انتشرت المنحنيات وطعنات الصخور في كل مكان. سمعنا صوت احتكاك عنيف بأسفل القارب استمر طويلًا ثم أعقبه آخر بإحدى جهاته. كان فيشر قابضًا على عجلة القيادة بقوة بينما أنا أنظر بعيني المتعبة بحثًا عن حركة على سطح الماء. تقدمنا ببطء نحو منحنى آخر ثم الذي يليه والذي يليه حتى عبرنا الصخور بعد فترة وجيزة. وأدركت حينها أنني وصلت.

أنا في موطني.

العودة

صاح فيشر فرحًا عندما عبرنا القناة وحملت الرياح صدى صوته عبر البحيرة الساكنة فطارت الطيور فزعًا. وقفت إلى جانبه عند عجلة القيادة وقلبي يدق بقوة وأنا أنظر إلى الشاطئ.

لم يتغير الشاطئ وظلت مياهه البيضاوية تبدي الحفاوة ذاتها كما عرفتها دائمًا. كسا المد المرتفع الشاطئ بأكمله تقريبًا تاركًا أعشابًا بحرية ملفوفة في مقدمته كالأوشحة المهملة.

تذكرت *حفلة حوريات البحر* وغصت في ذكرياتي. شممت أريج أعشاب البحر والأرز وبلح البحر والملح التي شكلت عالم جزيرتي بأكمله كما شممت رائحة عادم الديزل تمتزج بذلك الأريج وأصبحت فجأة في الثانية عشرة من عمري مجددًا، أختبئ في الغابة وأنا أراقب قاربًا أبيض اللون يحضر إلى البحيرة ويشطر عالمي إلى نصفين.

كنت أنا من حضر بالقارب الآن، القارب المسروق. نفضت هذه الأفكار عن رأسي ثم قفزت إلى الرمال وربطت الحبل حول صخرة، فقفز فيشر إلى جانبي.

قال فيشر وهو يضمني معانقًا: لقد نجحنا. ضمني فيشر طويلًا فأشعرتني رائحته الحانية بالاطمئنان وأنني في موطني مجددًا، لكنني أحسست برائحته

تطغى على رائحة الشاطئ حولي وعاد إليَّ صوت أبي هامسًا: تتغير *الذكرى* بمجرد تغيير *الرائحة*.

ابتعدت عن فيشر فنظر إليَّ في حيرة. لم أعرف كيف أفسر له ما أشعر به فقد عشت على هذه الجزيرة وحدي أنا وأبي قرابة ثلاثة عشر عامًا، لكنني عدت إليها مجددًا من دونه، وذهني مشتت بالقصة المذكورة في المقال، وها أنا أعانق فتًى لم تسرِ رائحته إلى هذا المكان قط، وأنا على علم بأن كل أمر أفعله يغير من حقيقة كل أمر عشته من قبل.

جلت بنظري إلى ما وراء فيشر إلى الشجيرات الوافرة بالتوت، التي اصطفت على صفحة الشاطئ وذكرى أبي عالقة في الهواء كما عبث النسيم بإبر الأشجار فبدت مثل وقع الأقدام على الطريق.

قلت وأنا أتشبث بأول فكرة تطرأ على ذهني، فقد كان عليَّ فعل شيء ما: جامعو الطعام، هيًّا!

- ماذا؟

- هيا بنا لنعثر على بعض الطعام.

***

جمعنا الطعام لما يقرب من الساعة وأنا أراقب فيشر طوال الوقت، وقد حلت عليه السكينة بعدما حالت القناة بينه وبين أبيه. تحركت أصابع فيشر الطويلة بعناية بين التوت وجذور لسان الحمل البحري، ولاحظت كيف يمسك ما يلتقطه بعناية من دون أن يهرسه، وكم شعر بالراحة والثقة كما كان يشعر دائمًا وهو يحصد الثمار في حديقة كوليت.

بدأ عبير الجزيرة يمتزج به شيئًا فشيئًا، وعلقت صبغة صلال التوت الداكنة كقطع الليل المظلم على بنانه، واختلطت حرارة نبات الهليون البحري بأنفاسه. وعندما انحسر المد وعاد المحار إلى نشاطه المعتاد اندفعت دفقة من المياه إلى وجهه. وقف فيشر ضاحكًا وهو يمسح الماء، لكن رائحة الملح والبحر ظلت عالقة بشعره كعلامة استحسان. وبدأت الجزيرة تطغى عليه بروائحها رويدًا رويدًا.

أما أنا، فلم أعرف ما إذا كنت أنتمي إلى هذا المكان بعد. كنت أنا السبب في موت أبي وعدت الآن أحمل معي عبء حكايات قد تقتل ما تبقى من الذكريات.

سألني فيشر بعد فترة: أليس علينا أن نتأكد من أن الكوخ بحالة جيدة؟

- بالطبع.

كانت قدماي لا تقويان على حملي وأنا أسير على الطريق، فبت أجرها جرًّا. زاد نمو شجيرات الصلال خلال الأعوام الخمسة الماضية فغطت على ما حولها بكثافة كما لو كانت تعرف ما أحضرت معي، واحتجت الاعتماد على غريزتي وذاكرتي أكثر من نظري.

كلما اقتربت أنا وفيشر من الوصول إلى الكوخ، زاد تخيلي لما قد نجده، كأن يكون السقف منهارًا أو أن أرى السناجب تعشش في الأسرة، أو الأدراج، أو حجرة المؤن، أو حشوة الكرسي الكبير. سمعت من قبل عن أعمال تخريب متعمدة، ففكرت في احتمالية أن يكون شخص ما قد استقل قاربًا عبر القناة ثم عثر على الكوخ وأضرم به النار.

كما فكرت في أسوأ احتمالية على الإطلاق. أن أجد كل شيء على النحو الذي تركته في عصر ذلك اليوم الذي حضر فيه هنري وأخذني معه. لم أتذكر كثيرًا مما حدث في آخر أيامي على الجزيرة لكنني ما زلت أتذكر آلة أبي مضرجة بدمائها، والزجاجات الفارغة مبعثرة مثل أعواد القش.

أحسست أنني لم أستحق العودة إلى هنا لعدة أسباب. كما أنني فتشت الغابة بحثًا عن علامة ترحاب لكن الصمت كان مطبقًا في محيط الأشجار، وامتنعت الطيور عن الغناء. وكانت رائحة توتري الحادة واللاذعة هي كل ما أشمه.

قلت لفيشر ونحن نقترب: دعني أذهب أولًا. أومأ فيشر وظل في مكانه.

أما أنا فجاوزت آخر الأشجار وابتعدت عن ظلمتها حتى وقفت عند مدخل فناء الكوخ. رأيت كيف نمت الأعشاب الضارة بكثرة في حديقة الخضراوات أمامي. وكيف تهدلت كومة الأخشاب، التي رُتبت بعناية من قبل، في حالة من الفوضى، وكيف نمت بتلة في منتصفها. رأيت كيف كانت الطبيعة تُخضع المكان إلى سيطرتها رويدًا من جديد، حتى وقع بصري على الكوخ وهو يقف شامخًا رافعًا هامته إلى السماء. كان سقفه صلبًا كما كان دائمًا حتى داعبني

أمل أهوج أنني سأجد أبي في الداخل على نحو ما. تمنيت أن أجد *أبي*، لا ذلك الشخص الذي قرأت عنه في المقال، ولا ذلك الشخص الذي قضيت معه آخر شهوري المروعة على الجزيرة.

أحسست بفيشر وهو ينتظر خلفي فنفضت تلك الأفكار عن رأسي ثم مشيت عبر الساحة والعشب الرطب الطويل يخشخش تحت قدمي. اعتليت درج السلم، ثم وقفت ووضعت يدي على مقبض الباب وأغمضت عيني. لم أرد النظر، ثم سمعت صوت أبي عندما كان يقف بجانب قن الدجاج وهو يقول «*خذي نفسًا يا إيميلين*».

قطعت الأفكار خيوط ذكرياتي فتساءلت: *تُرى من كنت يا أبي؟* لكن صوت أبي ظل بالعذوبة نفسها. أحسست بنفسي تتوق إلى صوته حتى وأنا أحمل ذلك المقال المطوي في حقيبة ظهري بأطرافه الحادة.

ثم عدت لسماعه وهو يقول: *دعي العبير يكشف عن نفسه.*

فتحت الباب فكانت رائحة الغبار الذي تراكم على مرور السنين والوحدة في انتظاري.

الآن، أطلقي لخيالكِ العنان، واستمعي إلى القصة.

سارت الروائح للترحيب بي فوجدت بعضًا من رائحة الحطب والتبغ والتفاح المجفف ورائحة شيء آخر غريب عن المكان.

فتحت عيني.

رأيت جدار الأدراج منظم وأدراجه مغلقة. كما كانت حجرتي وسريري مرتبين وموقد الخشب جاهز للإشعال. بدا كل شيء نظيفًا ومحببًا وموضوعًا في مكانه كما كان دائمًا. أخذت نفسًا آخر ثم لاحظت لمحة خافتة من رائحة نشارة الخشب وفطائر القرفة.

إنه *هنري*. لقد فعل ذلك كله من أجلي حتى من دون أن يعلم متى كنت سأعود يومًا، أو ما إن كنت سأعود على الإطلاق، أو ربما كان يعرف هو أكثر مما عرفت أنا.

أما أنا فقد رددت الجميل بسرقة قاربه.

قلت في فضاء الغرفة: هنري، أنا آسفة. ثم قلت: أنا ممتنة لك.

أخرجت آخر زجاجات أبي من حقيبة ظهري ومشيت إلى الجدار ثم فتحت الدرج الذي كان يحوي الزجاجة المختومة بالشمع الأزرق من قبل ثم وضعتها بداخله. وظننت على وجه يشوبه الشك أنني سمعت تنهيدة ارتياح من داخل الدرج.

***

أطل فيشر برأسه من الباب لاحقًا بعد مضي عشرين دقيقة فوجدني أجلس على الأرض. لم أستطع الجلوس على الكرسي الكبير، فسيخبرني اتساع يديه كم تغيرت عن تلك الفتاة التي اعتادت الجلوس فيه في حضن أبيها.

رأيت كيف كان فيشر يجول بنظراته في الكوخ فتساءلت عن رأيه به.

سألني فيشر: كيف تشعرين؟

- لا بأس. الأمر غريب.

سألني فيشر متحيرًا: هل تريدين العودة؟

- لا.

كنت أريد البقاء فقد قطعنا شوطًا طويلًا.

لم يكن هناك داعٍ لسرد الأسباب التي نعرفها بالفعل والتي دفعتنا إلى القدوم. كانت فترة الظهيرة تمضي كالمعتاد وكان موعد ارتفاع المد التالي سيحل في غضون بضع ساعات، وكانت هذه آخر فرصة لعبور القناة لمدة شهر كامل. كانت هذه آخر فرصنا للمغادرة وآخرها لقدوم شخص آخر.

جلس فيشر على الأرض بجانبي ثم قال: أخبرتني أمي أنها ستقول لأبي أنني ذهبت إلى المدرسة. يجدر بذلك أن يبطئ بحثه.

- كوليت وهنري سيعلمان أننا أخذنا القارب.

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أفكر فيما سيشعران به عندما يدخلان إلى غرفتي ويجدان المرفأ خاليًا.

- يجب عليهما الاستعانة بقارب آخر أصغر لعبور القناة. سيستغرق هذا وقتًا.

تذكرت كيف شعرت عندما رأيت الكوخ لأول مرة ثم تذكرت الرحلات التي أبحرت فيها مع هنري وكيف أرشدني شيئًا فشيئًا إلى هذه الجزيرة.

هذا المكان قادر على شفاء الآلام لكن إذا أراد المرء ذلك.

فكرت في احتمالية أن يتفهم هنري سبب قدومي إلى هنا واحتمالية إقناعه لكوليت أن تمنحنا بعض الوقت.

لم أرد التفكير بوالد فيشر بتاتًا.

قلت لفيشر: ربما يحالفنا الحظ.

واصلنا الصمت لبعض الوقت واستمر فيشر بتفحص الكوخ ثم قال أخيرًا في دهشة: هل كنتِ حقًّا تعيشين في هذا المكان؟

أومأت برأسي.

قال فيشر مشيرًا إلى الأدراج: فيم تستخدم هذه كلها؟ أردت إخباره عندما رأيت نظرة الفضول على وجهه، لكنني لم أستطع. تذكرت أبي وهو يفتح درجًا ويخرج منه إحدى زجاجات العبير فاتحًا لي نافذة على عالم لم أعرفه من قبل. كما تذكرت صوت احتكاك زجاجات العبير في حقيبتي التي استعملتها لجمع الطعام وأنا أهبط من على درجات السلم متجهة إلى الجرف.

لذلك قلت له: سيتأخر الوقت. لا يجدر بنا البقاء هنا، فهذا أول مكان سيبحثون فيه.

***

ذهبنا نختبئ على بُعد مرمى السمع من فناء الكوخ رابضين تحت الشجيرات. مسحت الجو بأنفي بحثًا عن رائحة البنزين وكانت آذاننا متأهبة لسماع صوت محرك ما. مر الوقت وحل الظلام وعلا صوت خشخشة العصافير والسناجب في الشجيرات حولنا. شعرت بعضلات رجلي تسترخي فمددتها على الأرض وشعرت بالبلل ينخر في سروالي. جلس فيشر بجانبي وتلامس منكبانا ونحن ننتظر.

سألني فيشر بهدوء: لماذا أتيتِ أمس إلى منزلي؟

تذكرت كيف ظهرت أمام عتبة داره أقلب الكثير من الأمور رأسًا على عقب.

قلت له: أردت الاطمئنان عليك. عدلت من جلستي فشعرت بالهواء البارد ينسل بين منكبينا.

- فقط؟

كان يجدر بي معرفة أنه يستطيع ترجمة ما أشعر به كما يفعل مع الجميع.

قلت والضوء قد تلاشى في الأفق تقريبًا: لقد اكتشفت أمرًا ما. أخبرته عن المقال وعن ديلان وعن هروبي من المدرسة.

استطعت الشعور بابتسامته في الظلام وهو يقول: أحقًّا ركلتي ديلان بين رجليه؟

- نعم.

- أحسنتِ.

أخذ فيشر بالضحك لكنه حاول كتم صوته ثم قال: ما رأيكِ إذن، في المقال؟

- أنا متأكدة أن المقال يتحدث عن أبي، لكنني لا أدري ما يعنيه هذا.

كل ما عرفته هو أن كل الأمور تغيرت. كانت آخر مرة تغيرت فيها وجهة نظري عن أبي على نحو جوهري عندما عرفت بأمر حوريات البحر، لكنه كان ما يزال هنا لأصرخ في وجهه لأنه حجب عني الحقيقة بأكملها. ومع ذلك ظل يخلد إلى النوم في سريره أسفل حجرتي رغم كل شيء.

والآن، تعين عليَّ كشف الحقيقة بأن أجعل ذكرياتي، ذكرياتي الخدَّاعة، تمثل للشهادة أمام بضع كلمات مكتوبة على قصاصة ورق.

جلست أنا وفيشر في صمت، بينما الأشجار تخلد في سبات عميق والغابة تستتر تحت جنح الظلام. انتظرت أن يطرق أذني صوت قدوم هنري ومارتن. وانتظرت أن يطرق أذني صوت أبي.

أصبح الجو باردًا فاقتربت أنا وفيشر من بعضنا حتى أحاطني بذراعيه فاندسست أكثر بقربه ممتنة لدفء جسده. اختبأت أنفاسي في انحناء رقبته واختبأت أنفاسه هو بين تموجات شعري وغلبنا النعاس على هذه الحالة. استيقظنا مع أول شعاع من أشعة الصباح والسكينة قد أرخت بظلالها على الغابة.

همس فيشر في أذني قائلًا: لن يأتوا.

الجزيرة

كان شعور الارتياح بأن مارتن لم يقتفِ أثرنا تقريبًا أكبر من الاستيعاب، ثم أعقبه إدراك ضرورة الاعتماد على أنفسنا للنجاة لما يقرب من الشهر، أو طوال فصل الشتاء بأكمله. عدنا إلى الكوخ مجددًا ووقفنا ننظر إلى الاثني عشر رفًّا الفارغة في حجرة المؤن. وحاولت أن أتناسى آخر مرة رأيتها بهذا المنظر.

سألني فيشر وهو يفيق من نشوة ابتهاجه: ماذا علينا أن نفعل؟

كان علينا البدء من الصفر، بغض النظر عن المستلزمات التي استطعت إحضارها مثل بعض أكياس الخميرة والسكر، وأيضًا أعواد الثقاب التي دستها والدة فيشر في جيوبه. كان علينا الاضطلاع بأعباء كثيرة، من جمع المحار وبلح البحر وأعشاب البحر وحصاد التوت، وترتيب كومة الحطب وقطع المزيد منه، وتمهيد الطرق.

بدت هذه المهام شاقة لكنها كانت جميعها أعمالًا يدوية أستطيع القيام بها مستعينة بقوة جسمي. وكان الاختيار بينها وبين مواجهة والد فيشر أو العودة إلى المدرسة واضحًا. أمسكت إحدى سلال جمع الطعام من الركن المجاور لموقد الخشب وناولتها لفيشر.

قلت له: هيا بنا، لنقم بذلك.

أوقفت تتابعَ سيل الذكريات وأمسكت السلة الأخرى وانطلقنا.

***

كنت أُمضِي وقتي كله في المدرسة وأنا أحاول إخفاء المهارات التي حباني إياها أنفي. أما الآن فقد توقفت عن القلق من أن يسخر مني أحد، وسرت حيث يدلني. استخدمت مهاراتي تلك في العثور على الفطر، وثمار التوت البري، بل وتمكنت من إيصالنا للكوخ عندما ضللنا الطريق عبر مسار تنمو به النباتات بكثرة. تمكنت من شم الجفاف في قطع الحطب القابلة للاستخدام في كومة الحطب، ورائحة العطن العفنة والزلقة في القطع الأخرى. كان كل نَفس أخذته في السنوات الخمس الماضية بمنزلة تهديد بفضح حقيقتي. أما على الجزيرة، فقد أصبحت قادرة على الشعور بهويتي مجددًا. وفي نعيم تلك اللحظات، لم أخجل من دس أنفي في لحاء إحدى الأشجار أو رفعه إلى السماء والتئام شملي بأبي على نحو سهل بسيط بعد أن التأمت أفضل صفاتي بأفضل صفاته على نحو طرد صورة ذلك الرجل في المقال من مخيلتي.

قال لي فيشر: إنكِ تبدين مختلفة هنا.

بدا على فيشر الاختلاف كذلك. راقبت كيف خلع درع ذلك التيقظ الحذر من على صدره. بدا ذلك على عينيه أولًا. هبت فيهما الحياة ورغبة الاكتشاف، ثم انبسط فمه وأخذ يمشي الهوينا. وعندما رفع الفأس ليشطر قطع الحطب شعت من عضلاته طاقة مكبوتة بدا أنها تلمع في الهواء. كانت رائحته دائمًا تشبه رائحة الأشجار، لكن رائحته الآن تشبه رائحة ميلاد جديد، رائحة البراعم التي تزهر إيذانًا بقدوم الربيع.

سألني فيشر وهو يبتسم ابتسامة عريضة حاملًا الفأس: هل ستمدين لي يد العون أم ستكتفين بالمشاهدة؟ أمسكت الفأس ووقفت بالوضعية المناسبة. رفعته عاليًا ثم هبطت به على قطعة الحطب فشعرت بقوة الضربة تسري أعلى ذراعيَّ. اعتدت قطع الأشجار لصنع الحطب عندما كنت طفلة، لكنني أصبحت أطول وازددت قوة الآن. دفعت رأس الفأس في الصدع الذي أحدثته فانشطرت قطعة الحطب إلى نصفين.

في تلك الليلة، أشعلنا النار فغمر الدفء والنور الغرفة. كما طهونا حساء بلح البحر والمحار المتبل بالبصل البري والهليون البحري، وتناولنا الطعام مرتاحي البال في أوانٍ خشبية في حجم قبضة اليد، ثم صنعت منقوع شاي التنوب، وراقبت فيشر حين وصل البخار إلى أنفه.

قال فيشر مبتسمًا: ربما نستطيع إنجاح هذا الأمر.

- ربما نفعل.

شغلتني نفسي بما ينبغي فعله، وقلت لنفسي إن علينا العمل للنجاة. أطلقت لجوارحي العنان في فعل ما يلزم خلال النهار، لكن زارتني الأفكار في المساء. نمنا في الكوخ طوال الليالي التي تلت أول ليلة قضيناها في الغابة. نمت أنا في حجرتي ونام فيشر في فراش أبي. استلقيت في فراشي أنصت إلى أنفاس لم تكن هي أنفاس أبي، وأنتظر الهمس المألوف لأوراق العبير التي لم تعد هناك بعد الآن. ترى ماذا كانت ستخبرني حينها، إن عرفتُ فقط ما الذي يتعين عليَّ الإنصات إليه؟ ترى من كان الرجل الذي اختبأ داخلها؟ ترى هل كانت أيٌّ منها تحمل رائحة أمي؟

جمعت في ذهني كتابًا يحمل قصصًا عن أبي ووضعتها جنبًا إلى جنب، فكان الكتاب غير منطقي بالمرة. كان أبي بطلي. كان أبي كاذبًا. أحبني أبي. اختطفني أبي. لقد قتلته. كانت هذه الجملة الأخيرة، هي الحقيقة الوحيدة المؤكدة في كتابي عن أبي.

لم أفهم كيف يستطيع المرء الشعور بالانتماء والغربة في مكان ما في آن معًا. كانت الجزيرة كما هي، قوانينها وجمالها لم ولن يتغيرا، لكنني أنا من تغيرت. لم أستطع معرفة كيف أو إلى أين أنتمي. كنت أتوق إلى أن أصبح الطفلة التي عاشت هنا، لكن توجب عليَّ التخلي عن تلك الطفولة إن أردت أن أعرف أبي. أردت أن أخبر فيشر ما فعلته، لكن لم أدرِ كيف أبدأ، أو ربما لم أرد فعل ذلك في حقيقة الأمر.

وعليه، تجاهلت ذلك السؤال في عيني فيشر كل ليلة بعد أن نطفئ الموقد الخشبي ويتجه هو إلى الفراش وأتجه أنا إلى حجرتي في العلية وحدي.

***

مر قرابة أسبوعين على قدومنا إلى الجزيرة عندما شعرت بقدوم رياح الخريف قبل أوانها. أصبح الهواء ثقيلًا ثم صاخبًا، وسددت الريح لكماتها إلى ألواح السقف المصنوعة من خشب الأرز، وخرخرت المزاريب. ذرع فيشر الكوخ جيئة وذهابًا بخطوات مرتفعة الصوت.

قلت له: إنها مجدر عاصفة.

لكنه لم يرد.

انقطع فرع من شجرة قريبة وسقط متحطمًا على شرفة الكوخ. أجفل فيشر من أثر الصوت ورفع تلقائيًّا إحدى يديه ليقي بها وجهه.

قال فيشر: اللعنة.

واصل فيشر ذرعه للكوخ جيئة وذهابًا مرتعبًا من كل صوت مفاجئ قابضًا كفيه بتوتر. عندما مرت العاصفة أخيرًا، خر فيشر على الكرسي الكبير وأغمض عينيه مرهقًا مثل تلك الأشجار التي حطمتها العاصفة في الخارج. جلست على الأرض ووضعت رأسي على ركبته.

قلت له: أخبرني، رجاءً.

كانت كلماتي بمنزلة مد يد العون.

استغرق فيشر، مثقل الكاهل، بعض الوقت ليستطيع أن يلقي عن ظهره حمل هذه القصة وأن يطلق سراحها من تلك الزنزانة السرية الغريبة التي حبسها فيها. قال فيشر في النهاية: في بداية الأمر، لم يضرب أبي أيًّا منا. لكنني كنت أترقب حدوث الأمر. قد أحسست بذلك حتى عندما كنت صغيرًا.

تذكرت أبي الذي أحاطني بذراعيه عندما كنا نقرأ معًا، وتذكرت حتى عندما انهار كل شيء أنني لم أفكر يومًا أنه سيلحق بي الأذى.

تحرك فيشر في الكرسي ثم قال: كانت أمي تزرع حديقة خضراوات، وعلمتني كيف أعتني بها. كانت في أول الأمر تأخذني معها لتبقي عينها علي، لكنني أصبحت أساعدها حقًّا عندما بلغت الخامسة. أحببت قضاء الوقت معها هناك، كما أنها جعلتني أشعر أنني أستطيع الزراعة.

توقف فيشر عن الحديث فوجدت رائحة ما تتجمع وتسوَد، بمنزلة ذلك الطين الأسود الذي يتجمع تحت الفطر.

قال فيشر: أتذكر أول قطفة طماطم أحصدها. كنت قد حصدتها جميعًا بنفسي وكانت كثيرة جدًّا لدرجة أنني رفعت طرف قميصي لأجمعها به. كنت أشعر بالفخر كثيرًا.

سمعت صوت حركة رأسه ثم قال: كان أبي يقف على درجات الشرفة وسألني ماذا كنت أحمل. ظننت لبرهة أنه أراد فعلًا رؤيتها لذلك فردت قميصي ليرى كل هذه الطماطم الرائعة. قلت له: «انظر ماذا صنعت أنا وأمي». لكنه ضربني فحسب، صفعني على وجهي.

كان الكوخ هادئًا وأنا أنتظره أن يكمل.

- لن تغادر أمي أبدًا. لقد طلبت منها مرارًا وتكرارًا.

تذكرت كيف رفض أبي مغادرة الجزيرة حتى بعد قدوم الدبة واغتصابها لكل ما كنا نملكه.

- لماذا لا تريد القدوم معي؟

لم أعرف الإجابة، ولم أظن أنني سأعرفها قط. لذا، دسست نفسي بجانبه في الكرسي ووضعت ذراعي حوله.

***

بدا كما لو أن بابًا قد انفتح بعد ذلك، لم يكن اتساع الفتحة كبيرًا لكنه كافٍ لاختلاس النظر. بدأت الحكايات التي لم نحكِ عنها من قبل تنسل منا ونحن نصنع العشاء أو نمهد الطريق أو نسير على شاطئ البحيرة.

اعتاد أبي أن يقص عليَّ قصصًا عن جاك، صائد العبير...

كنت أنام أحيانًا في المرأب...

كانت لدي عنزة....

لم يسمح أبي لأمي بقيادة السيارة...

لا وجود لحوريات البحر...

أريد قتل أبي.

توقفت عن الحديث. لم أستطع النطق بجملة *أما أنا فقد فعلت*. لم أدرِ كيف أخبره حقيقة ذلك الشعور الذي يتخيله. كيف أن ذلك الفعل لا يزهق

روحًا واحدة فقط، بل روحين، روح من تقتله وروح الإنسان الذي ظننت أنه يسكن جوانحك.

أخبريه.

لكنني قلت بدلًا من ذلك: كانت هناك دبة.

***

تآلفت خواطرنا من جراء تتابع القصص، فتآلفت معها جوارحنا. وضع فيشر يده أسفل ظهري وأنا أعد الشاي، فغرست أصابعي في تموجات شعره الأصهب لأمسك بإحدى خصلاته. وفي تلك الليلة استقرت رائحته على بناني، وتوحدت مع رائحتي إيذانًا بميلاد عبير جديد متصف بالكمال.

أردت أن أخبره *أنا من رمت الزجاجات في البحر. أنا السبب في انهيار كل شيء*، لكنه أحاط وجهي بكفيه ثم قبلني.

قلت لنفسي مجددًا، *هيا أخبريه، لن يكون هذا الأمر صائبًا حتى تخبريه.*

لكنني كنت فتاة في السابعة عشرة من عمري، أسكن وحدي في جزيرة مع فتى أحببته منذ أول مرة رأيته فيها يجلس في المقعد المجاور لي. لذلك، أغمضت عيني وبادلته القبلة ثم صعدنا معًا إلى حجرتي في العلية.

الجرف

استيقظت في الصباح، فوجدت الشراشف عابقة برائحتنا وأرجلنا متشابكة كجذوع الأشجار. عرفت بمجرد أن تحركتُ أن رائحتنا الجديدة تلك ستتطاير من الأغطية وتختفي في خضم روائح الحياة العادية في الكوخ. لذلك بقيت ساكنة أتدثر بالأغطية. نظرت إلى جدار الأدراج الشاهق أمامي فتمنيت لو كانت آلة أبي معي لأحفظ عبيرنا معًا في هذه اللحظة النقية.

بعد ذلك، تحرك فيشر وفتح عينيه بابتسامة عريضة.

***

أصبحت قصتي الخيالية التي تمنيتها دائمًا حقيقة تقريبًا، فقد كنا طفلين في الغابة نهتم بشأن بعضنا بعضًا. أمضينا أيامنا في تزويد حجرة المؤن مغتبطين ومتجاهلين أي فكرة عن احتمالية عدم احتياجنا إلى هذه المؤن في النهاية. حملت سلال طعامنا الكثير منه، كما وجدنا شجرة جافة متساقطة صالحة تمامًا للتقطيع. بمرور الوقت، أصبحت السماء ملبدة بالغيوم إيذانًا بقدوم الخريف. لم نستطع رؤية القمر ولم نكترث لذلك. لكن اختفاء ضوء القمر كان يعني اختفاء الضوء، لذلك ارتأينا الخلود للنوم مبكرًا لنرَشد استخدام الشموع ملتمسين الدفء في أحدنا الآخر. كان ذهني صافيًا وبالي مرتاحًا عندما كان فيشر يخلد إلى النوم بجواري، فتناسيت ما دار عنه المقال

وتلك الأسابيع التي قضيتها مع أبي على الجزيرة. كنت أخلق ذكريات جديدة لي أنا وحدي، وقررت عدم الاكتراث بالوقت من فرط نشوتي.

***

حضر فيشر إلى الكوخ ظهر أحد الأيام ثم نادى عليَّ قائلًا: يا إم، لقد اكتشفت شيئًا.

- ماذا؟

- إنها مفاجأة، يجب أن أُريكِ.

كان الحماس باديًا في عينيه الزمردتيْن.

ارتديت معطفي فوق القميص الذي خلدت للنوم فيه واتبعته إلى الخارج. كان الجو على وشك التغير، وظهر ذلك في استسلام الأشجار وجفاف التراب استعدادًا لطقس أكثر برودة. كان من الغريب أن أجد رائحة الغابة وهي تتريث، وتحد من سرعتها استعدادًا للدخول في سبات، بينما كان كل شيء بداخلي نشيطًا ونابضًا بالحياة.

أخذت نفسًا فشعرت بالهواء البارد يداعب شعيرات أنفي التي كانت ما تزال عابقة بعبيرنا المتشبث في قميصي. أصبحت لأول مرة في حياتي أتطلع إلى قدوم الشتاء بنهاره القصير. ابتسمت وأنا أرى فيشر يزيد خطواته من فرط الحماس.

قادني فيشر إلى ما وراء حديقة الخضراوات الهادئة، لكنه سار إلى عكس اتجاه الممر الممهد المتجه إلى البحيرة، سائرًا خلال الطريق الذي تنمو فيه النباتات بكثرة. التقط أنفي رائحة ما، فعرفت الطريق الذي سنمر فيه بالسير في هذا الاتجاه، لكن كان من المحتمل أن نفوته إذا كان مستترًا بقدر كل الطرق الأخرى.

لكن فيشر لم يفُته. توقف فيشر عن السير ووقف عند المنعطف المؤدي إلى الجرف مبتسمًا ثم قال: لقد وجدت مكانًا لا مثيل له.

تتابع في ذهني سيل الذكريات التي كنت أحاول تناسيها، فتذكرت كيف جريت بطول هذا الممر وأنا أحمل حقيبة جمع الطعام الممتلئة بالزجاجات. كما تذكرت وقوفي على الجرف وأنا أرفع يدي.

إنه خطئي.

كان يجدر بي إخبار فيشر بالحقيقة من قبل. وأن أخبره أنني أتمنى أن هذا الممر لم يخلق على وجه الأرض. لكنني لم أفعل، أما هو فقد عثر على أكثر مكان تمنيت ألا يعثر عليه قط. سرت نحو فيشر وأمسكت ذراعه.

قال فيشر: لقد أتيتِ إلى هنا من قبل بالفعل، أليس كذلك؟ أظن أنني بالغت فيما كنت أرجوه، لكن على أي حال يجدر بنا الذهاب...

- لا.

توقف فيشر عن الحديث ونظر إليَّ ومظاهر البهجة تختفي من وجهه على مهل.

قال فيشر: أخبريني.

كانت الأسرار تغص في حلقي، ولم أستطع تصور ما ستصبح عليه هذه الجزيرة، وماذا سيجري لي أنا وفيشر إن ظهرت هذه الأسرار على الملأ. كانت الكلمات أشبه بالروائح في هذا الصدد، فهي تغير حتى الأنفاس التي تسري في جوفك.

أدرت رأسي مرة واحدة.

تحولت عين فيشر الرحبة والمعبرة إلى الجمود ثم قال: لقد أخبرتكِ كل شيء، بل إنني أخبرتكِ أمورًا لم أُسر بها إلى أي أحد غيركِ.

نظرت إليه، وتذكرت كيف كنا قبل ثلاث ساعات فقط نستلقي في السرير، يتدثر كل منا بدفء جسد الآخر. أقنعت نفسي في نشوة ذلك النعيم الذي شعرت به أنني منحته كل شيء، لكنني كنت أخدع نفسي. لقد أخفيت عن فيشر هذه الحقيقة لأنني لم أرده أن يعرف ما فعلت، لقد أردت أن أتخفف من عبء ما قد حدث من قبل وأنا أتصرف على سجيتي فقط، كما لو أن هذا كان سيصبح ممكنًا على الإطلاق.

بيد أنني اكتشفت أن الأمر كانت له وجوه أخرى أكثر مما ظننت، فقد كانت ذكرى وجه أبي المنتصب في الماء ناظرًا إليَّ، الذكرى الوحيدة التي تخصني أنا وأبي وحدنا. كانت هذه الذكرى، على نحو غريب، الشيء الوحيد الذي بقي بمنأى عن قصص الآخرين أو روائحهم، وبذلك أصبحت هذه الذكرى وورقة العبير الوحيدة التي لم أحرقها كل ما تبقى لي.

قلت لفيشر: لا أستطيع، هذا الأمر يخصني.

حدق فيشر إلى وجهي لبرهة ومرارة كلماتي تنطبع كالصفعة على وجهه.

قال فيشر: وهو كذلك.

استدار فيشر وسلك الممر للعودة وتركني وحدي.

***

سلكت أنا الطريق الآخر المؤدي إلى الجرف وأنا أمضي عبر همهمات الشجيرات التي نمت بكثرة.

توقفي. توقفي. توقفي.

لم أتوقف، كما لم أفعل من قبل، قبل مرور خمس سنوات عندما سلكت هذا الطريق رمحًا بحقيبة ممتلئة بالزجاجات. صفعتْ أوراق الأشجار وجهي ويديَّ لكنني واصلت المسير حتى تحررت من قبضة الشجيرات الأخيرة.

رأيت الجرف بأم عيني. كان الجرف باردًا ورماديًّا والسماء والبحر مبسوطيْن في الأفق خلفه بلا نهاية.

كم زرت هذه البقعة في منامي، وكم كنت قادرة على تمييز كل خط نُحت في الصخور وكل رائحة من روائح السماء والماء. استطعت أن أشم رائحة أوراق الشجر تتحول إلى تراب مسجى على الأرض كما كانت تمامًا فيما مضى. كما استطعت أن أشم رائحة خوفي وأرى أبي يقفز أمام عيني، وأصبح الزمان يدور في عجلة لا تتوقف.

دفعت نفسي إلى الوقوف على حافة الجرف والنظر إلى المياه في الأسفل وعزمت أن أبقى كذلك حتى أرى وجهه.

وعندها، جثوت أجهش بالبكاء.

***

لا أدري كم بقيت هناك، فقد أفرغت ما في جعبتي من البكاء، على فيشر والمدرسة والخليج والأيام الأخيرة التي قضيتها في الكوخ من دون أبي. بكيت حتى لم أعد قادرة على الوقوف أو الجلوس وحتى شعرت بالصخور على وجنتي.

كانت الرائحة هي ما أفاقني مما كنت فيه -الديزل- وصوت المحرك القادم من بعيد. وقفت على قدمي أفتش صفحة الماء قبالتي وعضلاتي ترتجف. بعد عدة دقائق، رأيت قاربًا صغيرًا يلوح في الأفق يطوق حافة الجزيرة، يقف رجلان في مقدمته فانحنيت. لم يكن القارب مألوفًا لي لكنني ميزت هنري يقف خلف عجلة القيادة ومارتن يقف إلى جواره وعرفت فجأة إلى أين يتجهان.

***

سلكت طريق العودة جريًا وأنا أعد الأيام التي مرت في ذهني. كيف أخطأنا؟ هل غفلنا عن مرور الوقت؟ كم من الوقت لدي قبل انحسار المد؟ أدركت أنني لا أملك الكثير من الوقت، لكنني واصلت المسير والجذور تمسك بقدمي وفروع الأشجار تصفع وجهي.

وصلت إلى الفناء وفتحت باب الكوخ لكن فيشر لم يكن هناك. فتشت الغرفة، فرأيت أن إحدى سلال جمع الطعام غير موجودة.

تخيلت فيشر وهو يعود إلى الكوخ غاضبًا ومتألمًا، ثم يمسك إحدى سلال جمع الطعام راجيًا أن يثبت أنه ينتمي هو الآخر إلى هذه الجزيرة ثم يتجه خارجًا.

إنها البحيرة، آخر مكان وددت أن يكون فيه.

***

عندما خرجت أخيرًا من الغابة، رأيت ثلاثتهم يقفون على الشاطئ. واجه كل من فيشر ووالده الآخر كزوجين من الأعمدة المنتصبة، ووقف هنري على الجانب. رأيت فيشر قابضًا كفه خلف ظهره ثم ميزت نفحة من رائحة كريهة حادة ونهمة.

صرخت قائلة: توقف.

رآني هنري وبدا الارتياح على قسمات وجهه.

ناداني: إيميلين.

التفت فيشر نحوي، فَهَمَّ مارتن بسحب قبضة يده للخلف ثم لكمه في فكه.

فيما بعد

قال هنري بحزم لما أعهده عليه من قبل: يكفي هذا. حتى إن مارتن تراجع للخلف. ظل فيشر منبطحًا على الأرض حيثما وقع محدقًا إلى والده، وكانت الكدمة على فكه حمراء وغاضبة، لكن النظرة على وجهه هي ما أخافتني.

أشار هنري إلى القناة حيث بدأ سطح الصخور يظهر على صفحة الماء.

قال هنري: علينا الذهاب الآن، وإلا سنعلق هنا لمدة شهر.

حدث كل شيء بسرعة شديدة وكان أكبر من قدرتي على الاحتمال، فلم يستطع جزء كبير من عقلي تجاوز مرحلة هرولتي على الطريق نحو البحيرة.

قال فيشر بعد أن نهض على قدميه: لن أذهب.

سار مارتن تجاهه مجددًا، فعلمت أن فرصة الانتصار معدومة، فلن يستطيع مارتن تحمل إهانة المغادرة من دون ابنه، بل وسيلجأ لكسر شوكته وحمله على المغادرة بالضرب.

أو –دار في خلدي احتمال آخر أكثر رعبًا– سيظل مارتن هنا شهرًا كاملًا. لبرهة، لم أحتمل تخيل مارتن وهو يبسط يده على الأشجار وأغراضنا في الكوخ، وأن تفسد رائحته كل شيء.

لذلك قلت مجددًا: توقف، سنغادر معكما.

توقف مارتن، ونظر فيشر إليَّ شاعرًا بالخيانة.

يا إلهي ماذا فعلت لتوي؟

قال هنري بعد أن رأى الفرصة سانحة وهم بالتحرك سريعًا فلم يدعُ مجالًا للنقاش: حسنًا إذن، مارتن ستأتي أنت معي. أما أنت يا فيشر فخذ قاربي واعبر به القناة.

رأيت مارتن يكبح جماح غضبه.

قال هنري لمارتن: يعرف فيشر كيف يستعمل القارب. ثم نظر إلى فيشر مجددًا وقال: بعد عبور القناة، اتبعني حتى الخليج، هل فهمت؟

لم يتحرك فيشر.

قال هنري: الآن، وإلا فلا.

نظر إليَّ فيشر نظرة أخيرة ثم خطا نحو القارب الأبيض الصغير.

قلت لهنري فجأة: زجاجة أبي، إنها ما تزال في الكوخ.

- لا وقت لدينا.

***

كانت رحلة العودة خاطفة مقارنة برحلتنا نحو الجزيرة منذ شهر مضى. عبرت أنا وفيشر القناة بالكاد، والصخور تحك باطن القارب ونحن نغادر. وبمجرد خروجنا في المياه المفتوحة، لم نسمع سوى صوت المحرك وصفع الماء لمقدمة القارب. أخذت الشمس في الغروب ويد فيشر تقبض على دفة عجلة القيادة بقوة في صمت. كنت دائمًا أظن أن فيشر يشبه والدته، لكنه كان حتمًا أشبه بوالده حينما كان واقفًا هناك وذراعاه متصلبتان وفمه جامد وقاس.

ناديت عليه: فيشر.

قال فيشر: ليس الآن.

ثم أدار رأسه. لم أدرِ إن كان ذلك بسببي، أم بسبب الأمواج، أم بسبب أبيه، وتساءلت حينها إن كان سيخبرني بالإجابة على الإطلاق.

***

كانت كوليت تقف في انتظارنا تحت أضواء الرصيف الكبيرة وذراعاها تطوقان والدة فيشر. وبدا على وجهيْهما الارتياح ثم الخوف. قفزت كوليت تقريبًا إلى قاربنا عندما اقتربنا أكثر ثم احتضنتني.

- يا فتاتي العزيزة، لقد أخفتنا بشدة.

ظلت والدة فيشر تنتظر وعيناها مثبتتان على ولدها، لكنه لم ينظر إليها عندما توقف هنري على الجهة الأخرى من الرصيف. خرج فيشر من قاربنا بخطوات متثاقلة واتبعه والده.

قال مارتن لزوجته مادًّا يديه: المفاتيح. فناولته مارديل إياها، ثم قال سائرًا على الرصيف باتجاه شاحنتهم: هيا بنا.

قالت كوليت: العشاء جاهز...

- لا، شكرًا لكِ.

ثم غادروا جميعًا.

قلت والشاحنة تَهِم بالمغادرة: لا يمكننا أن ندعهم...

هزت كوليت رأسها والإرهاق بادٍ عليها ثم قالت: أتظنين أننا لم نحاول من قبل؟

***

جلست أنا وكوليت وهنري معًا على المائدة. تكدست الأطباق بالطعام أمامنا لكن بدا ويكأننا نسينا الغرض منه.

خاطبتُ كوليت وهنري قائلة: كان الذهاب إلى الجزيرة فكرتي أنا، فأنا لم أستطع أن يلقى باللوم على فيشر.

قالت كوليت: كان النهار طويلًا بما يكفي، سنتحدث عن ذلك غدًا.

وعرفت أن الأمر لن يمر مرور الكرام.

رغم ذلك، أنبأني حدسي أن اليوم لم ينتهِ بعد. كنت قد حدثت نفسي أنني أنقذ فيشر بإخراج والده من الجزيرة، لكنني زدت الأمور سوءًا فقط، فقد عادوا إلى المنزل الآن، من دون شهود، بيد أن ذلك لن يحدث أي فارق على أي حال.

ذهبت إلى فراشي وجلست هناك بملابسي أنتظر. كانت الساعة الثالثة صباحًا عندما أتت كوليت إلى غرفتي وقالت: الأمر يتعلق بفيشر.

***

كان رواق المستشفى أمامي طويلًا بلا نهاية وفارغًا، لكن الروائح كشفت لي الأمر برمته. أخبرتني عن الدم والحب والخوف من وراء قناع روائح المبيضات والمنظفات الذي يستر هذا كله، وما ينفك حتى ينزع.

وقفت والدة فيشر بجانب حجرته ويدها وراء ظهرها وإلى الخلف منها سرير عليه فيشر. هرب من وجهه لون بشرته المعتاد وسكنه كل الألوان الأخرى، ورُبطت إحدى ذراعيه بجبيرة. لم يغطِّ لباس المستشفى صدره بالكامل، فرأيت ما يشبه علامة نعل حذاء.

ذهبت إلى سريره ولمست أصابعه ففتح عينيه لكنه بدا أكبر سنًّا وأكثر همًّا حتى إنني استطعت بالكاد التعرف عليه.

همست وقلت له: أنا آسفة، أنا آسفة.

في الجهة المقابلة من الغرفة، وقفت ممرضة قرب كوليت وهنري فسمعت همهمتها وهي تقول: لم أستطع إقناعها بتركه.

وعندما التفتت، رأيت مضرب كرة القاعدة في يد والدة فيشر.

أضافت الممرضة: هي من وضعت حدًّا للأمر.

سألتها كوليت: أين والده؟

- في الغرفة قرب الردهة. سيصير كلاهما بخير.

قال هنري بنبرة من عدم التصديق ملأت الغرفة: بخير؟ لن ينتهي هذا أبدًا إلى خير.

ردت الممرضة وإجهاد مناوبة الليلة الطويلة بادٍ عليها: لقد خيطت جروحهما فحسب.

تناهى من أسفل الردهة صوت صعب التمييز لرجل في حالة هياج فقبض فيشر على يديه بقوة قرب يدي.

***

جلستُ على أحد جوانب سرير فيشر وجلست والدته على الجانب الآخر. نادرًا ما غادرت والدته الغرفة، لكنها لم تذهب قط في اتجاه غرفة زوجها في نهاية الردهة.

لم نتكلم أنا وهي كثيرًا حال جلوسنا عند طرف السرير -*هل يمكنني أن أُحضر لكِ بعض الطعام؟ ينبغي لكِ الحصول على بعض الراحة*- لكنني لاحظت كيف راقبت فيشر كما لو كان طائرًا على وشك التحليق بعيدًا. لم يتكلم فيشر هو الآخر إلا نادرًا ليجيب عن أكثر الأسئلة ضرورةً. رجوت أن تترك أمه الغرفة لبعض الوقت حتى أستطيع التحدث إليه، فقد كان هناك الكثير من الأشياء التي احتجت قولها ومعرفتها. لكن عندما غادرت أمه الغرفة حتى دخلت ممرضة ما لتقيس ضغط دمه أو حرارته.

لذلك، فقد حاولت التعبير عما أريد بيدي، أن أبعث برسالة ضمنية إلى مكان بعيد، بأن أشبك أصابعي بأصابعه أو أن أتلمس ذلك الطرف من جبهته الخالي من الكدمات.

إلى أين ذهبت يا فيشر؟

***

أتت الشرطة المحلية إلى المستشفى في اليوم التالي، وانتهت إلى أن ما حدث كان مشاجرة عنيفة متبادلة الأطراف لذلك لن توجه اتهامًا إلى مارتن. أظلمت عين فيشر بسماع الأخبار، أما هنري فقد اشتاط غضبًا ولحق بالشرطي خارج المبنى. اصطحبني هنري إلى المقصف لشرب القهوة عندما عاد.

قال لي هنري: إن مارتن وفيشر يتبادلان الاتهامات. كما أن الشرطي زميل مارتن في لعب القمار ويقول إنه شخص رائع. كذلك ماردیل... إنها ما تزال عازمة على عدم توجيه التهم له.

- لماذا؟ أنا لا أفهم.

- وأنا أيضًا كذلك.

كان تعبير وجهه يوحي بيأس متجذر صامت.

لاحقًا، عندما اقتربت من غرفة فيشر، سرى إلى مسامعي دون قصد حديث فيشر ووالدته معًا.

قالت والدة فيشر بصوت يشبه صوت شخص طاعن في السن: الوعد وعد يا فيشر.

- يا إلهي. أمي، هل تعين حقًّا ما تقولين؟
- هذا صعب عليه أيضًا.

صدر عن فيشر صوت يشبه الضحك لكن تحول إلى تأوه من الألم ثم قال: هذا محض هراء.

اندفعت والدة فيشر من الغرفة فمرت بي، ورفع فيشر رأسه فرآني أقف هناك.

قال فيشر: أسمعتِ.. فأومأت برأسي.

قال فيشر عندما جلست بجانبه: يجب عليَّ الرحيل. لا يمكنني البقاء هنا.

تذكرت ما قاله على الجزيرة حين قال: أريد قتل أبي. لكن عينه الآن كانت تعكس هول شخص حاول بالفعل.

قلت له: سأرحل معك. لا تتركني.

- أنت تعيشين في بيئة طيبة يا إيميلين. إنكِ محاطة بأشخاص يحبونكِ ويمكنكِ إنهاء تعليمكِ المدرسي.

كان كمَن يبني بكلماته جدارًا تقطر منه المرارة، فأردت أن أنقب فيه بحثًا عن الحب.

قلت له وأنا أنحني إلى الأمام: لا يهمني.

أغمض فيشر عينيه متعبًا.

قلت له: هذا خطئي، أنا آسفة.

أدار فيشر رأسه لكن من دون أن يفتح عينيه.

دخل الغرفة طبيب لم أره من قبل ففحص التقرير الذي يحمله بيده ثم ابتسم ابتسامة عريضة نحو فيشر.

- لدينا أخبار سارة أيها الشاب. إنك تتعافى بشكل جيد وستعود قريبًا إلى المنزل.

***

في النهاية، تم تسريح فيشر من المستشفى بشكل غير متوقع عقب ثلاثة أيام من تسريح والده. تلقت كوليت اتصالًا من والدة فيشر مبكرًا في صباح أحد الأيام فأسرعنا إلى الذهاب إلى المستشفى، وفتحنا باب غرفة فيشر بابتهاج كاذب.

كان فيشر قد ذهب بالفعل ووقفت والدته قرب السرير تحدق إلى علامة رأسه على الوسادة.

التفت إليها وأنا ألومها لأنها كانت تستطيع إيقاف هذا أيضًا، لكن عندما رفعت رأسها، ألجمني الألم الذي رأيته على وجهها.

***

كانت هناك رسائل قصيرة متروكة على الطاولة المجاورة للسرير، واحدة لوالدة فيشر وواحدة لي. كانت رسالة والدة فيشر تقول ببساطة: *اعتني بنفسكِ*، أما رسالتي فقالت: *أنا آسف*. وكان اسم فيشر يذيل الورقة.

اختفى فيشر وتركني ولم يترك لي سوى رسالة. لم أستطع التصديق.

جلست على السرير والورقة في يدي، وعقلي يسترجع كل ما قاله لي في المستشفى بحثًا عن الأدلة. فكرت أن هناك شيئًا ما قد يقودني إليه، فقد ترك هانسل وجريتل[1] فتات الخبز حتى يُقتفى أثرهما. ظننت أنني لو استطعت فقط التحدث إليه، فستصبح الأمور أفضل.

لكن لم تكن باليد حيلة.

***

فيما بعد، رصدت صندوق البريد كالأسد الذي يطارد فريسته. لم أستطع تصور أن هذه الرسالة هي آخر ما قد يقوله لي فيشر، فقد خضنا الكثير معًا، وأصبح يحمل كل منا الكثير في قلبه للآخر. لكنني تذكرت كيف حملت عيناه تلك النظرة في أول يوم وصل فيه للمستشفى، كيف أن ألمه المعنوي فاق أي ألم جسدي لاقاه من قبل. أردت أن أخبره أنَّ هذا لا يهم، وأنني أعرف حقيقته،

---

(1) هانسل وجريتل أو بيت الحلوى حكاية خيالية مشهورة للأطفال، دوَّنها الأخوان جريم الألمانيان، لصبي وفتاة ضاعا في الغابة.

وأنه ذلك الفتى الذي كان في الجزيرة الذي تحسس بأصابعه سيقان نبات لسان الحمل البحري ومسد تموجات شعري.

لكنني علمت أيضًا أن بعض الأشياء عصية على الإصلاح، وأن بعض الجروح غائرة لا تندمل.

فتحت كوليت موضوع المدرسة فتقيأت فقط من جراء الفكرة، وأرجعنا جميعًا السبب إلى التهاب المعدة، إلا أنها راقبتني هي وهنري بانتباه، فالتحدث عن الأمر كان يفوق الاحتمال.

***

أخيرًا وبعد قرابة أسبوعين وصلني خطاب.

عزيزتي إيميلين، أنا بخير. لقد حصلت على عمل في مشتل. من الجيد لمس الطين بيدي والاعتناء بالنباتات كما أنني وجدت مكانًا أقيم به.

أنا آسف على تركِكِ بتلك الطريقة، لكن ذهني مشغول بكثير من الأمور الآن. أستطيع رؤية ابتسامتكِ ورغبتكِ في المساعدة لكنكِ لا تستطيعين فعل شيء فأنتِ لم تختبري هذا الشعور.

سأكون بخير وسأكتب لكِ قريبًا.

نظرت إلى الخطاب وإلى جملة: *أنتِ لم تختبري هذا الشعور.*

عدا أنني اختبرت ذلك الشعور جيدًا، فقد وقفت على الجرف وشاهدت أبي ينظر إليَّ. ورأيت أقبح ما فيَّ بسبب ما فعلت وتصدعت روحي إلى نصفين.

ومع ذلك، فأنا لم أخبر فيشر بذلك قط، وفضلت الإبقاء على سري النفيس، والآن فقد رحل فيشر.

قلبت المظروف الأبيض الخفيف بين أصابعي، فرأيته معنونًا بالإرسال إلى الخليج السري واسمي مكتوب عليه. لم أجد به عنوان المُرسِل، ولكن وجدت طابع المدينة البريدي فحسب.

ترى كيف لي أن أعثر عليه؟ رفعت الخطاب إلى أنفي فوجدت رائحة الطين ولمحة من رائحة فيشر لكنني كنت بحاجة إلى المزيد.

جلست هناك أنقر على هذا الخطاب بأصابعي كما لو أستطيع أن أدفعه للكلام، وأحسست أن الأسرار التي أبقاها الناس عني هي ما شكلت عالمي بأسره.

قلت لنفسي: *كفى، لا مزيد من الأسرار*.

البحث

عدت إلى المدرسة في اليوم التالي. تناهى إلى سمعي همس الطلاب بمجرد أن فتحت باب الصف، لكن بدا عليهم الاختلاف الآن، فهم لم يتحلقوا حولي ليدسوا أنوفهم في أمور لا تعنيهم، بل حافظوا على المسافة بيننا.

تلك الجزيرة...

شهر كامل...

لقد كان على شفا الموت...

كانت أصواتهم خافتة تتناول القصة كما لو كانت شيئًا براقًا خطيرًا.

مشيت نحو مقعدي، فرأيت ديلان مادًّا رجليه عبر الممر وعيناه تحدقان إلى عينيَّ والطلاب الآخرون يترقبون. توقفت قبالته مباشرة وبادلته التحديق.

قلت لنفسي: *هيا، لنرَ ما سيحدث.*

بقيت هناك حتى سحب ديلان رجليه تحت كرسيه.

***

لم يعد لي أصدقاء برحيل فيشر، لكنني كنت الآن مثار جدل جديد حول قصة الجزيرة الخيالية، تلك القصة الزاخرة بأسرار صراع البقاء والشجاعة،

وربما مطارحة الغرام، لذلك انتظرتني الفتيات في المقصف على أحر من الجمر.

- ماذا فعلتما هناك؟
- أين ذهب؟
- هل تشتاقين إليه؟

طُرح هذا السؤال الأخير بلوعة ولهفة.

لم أجب قط، إلا أن ذلك لم يهم. ربما كان من الأفضل أن تجرد القصة من التفاصيل الحقيقية، كما يحدث غالبًا في القصص الخيالية.

لكنني سئمت الخيال. كان الكمبيوتر السبب الوحيد لرغبتي في العودة إلى المدرسة. ذهبت إلى المكتبة في أثناء فترة الغداء، فبحثت أولًا عن المشاتل الموجودة في المدينة، والتي كان عددها تسعة وأربعين. *تسعة وأربعين.* ظهرت خارطة بها علامات حمراء براقة تنتشر عبر شبكة من الخطوط والألوان التي بدت أكبر من المحيط.

تذكرت جيسي، تلك الفتاة التي عملت لدينا في فترة الصيف، القوية والمحبة للمغامرة وهي تتحدث عن المدينة.

إنها تعج بالبشر ويمكنكِ الضياع فيها. الضياع، على نحو جيد.

لم أستطع تصور ذلك. كنت أعرف أنه لا يمكنني الذهاب ببساطة بحثًا خلال هذه الشبكة التي لا تنتهي، فقد كنت بحاجة إلى شيءٍ ما، مثل دليل. لكن ترى كيف يمكنني العثور عليه؟ هذه حياتي، مثل سلسلة لا تنتهي من أبواب مغلقة بلا مفاتيح.

***

عدت أدراجي وبحثت مجددًا عن أبي. استعنت بأمينة المكتبة لتعلمني كيف أفرز نتائج البحث حسب التاريخ، فكتبت بعد ذلك جون *هارتفل* في خانة البحث ثم نقرت على النتيجة الأولى.

ثنائي العبير الاستثنائي

ذا ديلي صن

12 مارس 1999

تخيل أن تسافر عبر الزمن إلى الماضي بنفحة واحدة، أن تعيش مجددًا تلك الذكرى العابقة برائحة غليون جدك، أو عطر مدرسك في الصف الأول، وأن تعود إليها متى شئت، عبر كاميرا بولارويد للروائح.

أحدث جون هارتفل وفيكتوريا وينجت ضجة في عالم العطور العام الماضي باختراع العندليب، وهو جهاز لامع يناسب حجم اليد، يلتقط روائح ذكرياتنا ويحتفظ بها إلى الأبد. في غمضة عين، أحدثت وينجت وهارتفل نقلة ثورية في الطريقة التي ننظر بها إلى الروائح، لكننا اكتشفنا عندما زرناهما في منزلهما المتواضع أن الاهتمام بالروائح ليس أمرًا غريبًا عليهما.

جون وفيكتوريا ثنائي لا ينفصل كرمز ين ويانج[(1)] الأسطوري، ويحمل جون شعار العلم بينما تعتبر فيكتوريا قلب الأعمال التجارية النابض. التقى جون وفيكتوريا في شركة عطور عندما كان يعمل جون في وظيفة مرموقة تقتضي السفر حول العالم للعثور على روائح جديدة لتستخدم في كل شيء بدءًا من العطور الراقية وحتى مسحوق غسل الأطباق، بينما كانت فيكتوريا ما يسمى بالأنف المسؤول عن صنع هذه العطور.

---

(1) دائرة الين واليانج، دائرة تتكون من شكلين متضادين، الأبيض والأسود، ترمز لكيفية عمل الأشياء في العلم الصيني القديم.

أعربت فيكتوريا ضاحكة: إننا نود أن نقول إننا كنا نحظى بعلاقة تقليدية، فهو كان يصطاد العطور ويجمعها، وأنا أطبخها.

استوحيت فكرة جهاز العندليب عندما كان الزوجان يتناولان عشاءهما في إحدى الليالي في مطعم ما، وعرض عليهما شاب في مقتبل العمر أن يلتقط صورتهما بكاميرا بولاريود.

تقول فيكتوريا: لقد بهرتني الفكرة. إننا نود دائمًا أن نلتقط صورًا لحياتنا. وبالطبع تعد الكاميرا اختراعًا رائعًا لكن ماذا إن أمكننا فعل الشيء نفسه عبر الروائح؟

توقفت فيكتوريا برهة تتأمل عالمًا آخر لا يستطيع الآخرون عداها رؤيته ثم أضافت:

إن الروائح تبقي ذكرياتنا حية، وتمكننا من السفر عبر الزمن للحظة واحدة. إننا أردنا أن نصنع شيئًا يمنح الناس هذا الشعور وقتما يشاؤون.

أضافت فيكتوريا بابتسامة مشرقة: وبمجرد أن عثرنا على الفكرة، أصبح التنفيذ مسؤولية جون، فهو رجل العلم.

تم طرح جهاز العندليب في الأسواق بحلول عيد الميلاد، فتحولت شركة فيكتوريا وجون المتواضعة، سنتوجرافي، إلى قصة نجاح ضخمة. كما فاقت مبيعات العندليب التوقعات الأولية التي بلغت 10,000 وحدة في الشهور الثلاثة الأولى. علاوة على أن الشائعات تدور حول طرح أسهم الشركة في البورصة لاحقًا هذا العام. يخبرنا حدسنا أن جهاز العندليب إن واصل نجاحه الباهر، فسنعاود مجددًا زيارة هذا الثنائي الاستثنائي لكتابة مقال في إصدار منازل الأغنياء والمشاهير الخاص بنا.

نُشرت صورة بجانب المقال، بها رجل حليق في مقتبل العمر، مختلف عن الأب الذي عرفته، وبجواره امرأة فاتنة الجمال، بيضاء البشرة ولها شعر أسود مموج طويل. كانت ابتسامتها مشرقة وابتسامته توحي بعدم الراحة. فأبي لم يكن ليود أن يكون محط ذلك الاهتمام كله.

دققت أكثر في الصورة، فلاحظت شيئًا آخر، وشاحًا فضفاضًا، بين الفضي والرمادي مربوطًا بأناقة حول عنق المرأة. ميزت ذلك الوشاح، فقد أضرمت به النار.

جلست هناك لوقت طويل، ثم عدت مجددًا إلى قائمة النتائج، وبحثت خلال الروابط. ركزت هذه الروابط على الأخبار السيئة، فقد كانت عبارة عن سلسلة من المقالات الرنانة التي تتحدث عن تقارير تستقصي وتسرد بشكل مروع ومقنع ضياع ذكريات من عروض للزواج ولحظات ميلاد وعطلات للأبد، فقد كان ثمن هذه الذكريات غاليًا، وكان المحامون سعداء للمطالبة به. تردد ذكر اسم فيكتوريا وينجت في تلك المقالات، لكن في الغالب باعتبارها أحد المخدوعين، بينما كثُر توجيه النقد اللاذع لجون هارتفل، الذي اختفى بعد ذلك، ومن ثم تكالبت وسائل الإعلام على نقل ظهور فيكتوريا على شاشات التلفزيون تستجدي عودة طفلتها.

لكن التقارير فضلت نقل أخبار اختفاء جون هارتفل من على وجه الأرض تمامًا كاختفاء الروائح الذي تعهد اختراعه حفظها للأبد. بعد ذلك تم استعادة أجهزة العندليب وأفلست شركة سنتوجرافي، ثم تعذر العثور على جون هارتفل وتوقف البحث عنه.

سمعت صوت الجرس فنظرت إلى الساعة. وجدتها الثالثة عصرًا. كنت قد قضيت فترة الظهيرة بأكملها في المكتبة. لم يأتِ أحد للعثور عليَّ، وبدا أن أمينة المكتبة الجالسة على مكتبها لم تلحظ وجودي. لكن عندما هممت بالمغادرة على أي حال، انحنت أمينة المكتبة مستندة إلى مرفقيها.

- هذه أول وآخر مرة.

فتساءلت عما تظن أنني كنت أبحث يا ترى.

***

لم أدرِ كيف أتصرف حيال المعلومات التي عثرت عليها. وعندما عدت إلى الخليج، تفحصت صندوق البريد لكن وجدته فارغًا. تمشيت على الطريق الخشبي الواسع نحو المطعم الذي كان متحفًا للحيتان في يوم من الأيام. كان المطعم هو الآخر خاليًا الآن ومظلمًا ومغلقًا حتى قدوم الموسم.

تسللت عبر الباب الجانبي وجلست في إحدى المقصورات ذات الأرائك حمراء اللون المصنوعة من الجلد. أغمضت عيني محاولة استدعاء رائحة المكان عندما شممتها أول مرة، عندما عثرت على عظام الحوت تسبح في الهواء، لكنني لم أجد سوى رائحة كريهة لزيت البطاطس المقلية ورائحة السمك العالقة التي لا تزول بسهولة، كقصة تُخفي الأخرى في طيها.

فكرت في ذلك الأب الذي عرفته، وكيف اعتنى بتلك الزجاجات في الأدراج كما لو كانت تحمل في داخلها العالم بأسره، وتساءلت، إن كان حقًا محتالًا كما يَدَّعي كثير من الناس، إذن فلماذا أحب أوراق العبير؟ لماذا فجع عندما بدأت الروائح في الاختفاء؟ كذلك، إن كان اختراعه فاشلًا قد جلب الوبال على حياته، فلماذا لم يكرهه ويحطمه كما فعلت أنا؟ فقد كان أدعى بفعل ذلك مني. لم يكن أي من هذا منطقيًا بالنسبة لي.

كما كانت هناك مسألة أخرى، لماذا لم يخبرني قط عن فيكتوريا وينجت إن أحبها بالقدر الذي تحدث عنه المقال؟

تذكرت إجابته عندما سألته حين كنت طفلة لم لا أُمَّ لي؟ فقال لأنني معكِ. لم أسأله حينها مجددًا، لكنني الآن أردت أن أعرف.

***

في المرة التالية التي استطعت فيها استخدام الكمبيوتر، بحثت عن فيكتوريا وينجت. كانت هناك ما يشبه الفجوة الزمنية، قرابة خمس سنوات أو ما شابه، بعد الإعلان عن إفلاس سنتوجرافي، ثم بدأت النتائج تظهر مرة أخرى فيما يتعلق بعطر جديد.

وبالرغم من ذلك، لم أجد مقالًا مخصصًا للحديث عنها إلا بتاريخ عام 2010.

فيكتوريا وينجت تنطلق

نحو آفاق جديدة من خلال شركة أنفاس

ذا ديلي صن

28 أكتوبر 2010

فيكتوريا وينجت، أكثر من مجرد اسم ساطع في عالم النجاح. قبل عشر سنين مضت، انهارت شركتها، سنتوجرافي، في خضم ادعاءات بالاحتيال. قضت وينجت العقد التالي لانهيار شركتها في الكفاح للوصول إلى مكانتها السابقة كأحد أهم المبتكرين في مجال صناعة العطور.

والآن، نجحت وينجت من خلال شركتها الجديدة، أنفاس، في تسليط الضوء على ابتكار علامة تجارية عطرية لأسواق التجزئة، لخلق بيئة عطرية فريدة للمتاجر والفنادق وحتى المطاعم.

أعربت وينجت في مقابلة حديثة لها: إن حاسة الشم أقوى الحواس، فهي تتصل مباشرة بمشاعرنا. لذلك فقد فكرنا في تحسين تجربة العميل بشكل ضمني. وفي شركة أنفاس، فنحن نهتم بأدق التفاصيل.

أتريد أن تحض زبائنك على قضاء مزيد من الوقت في متجرك؟ أثبتت الدراسات أن حاسة الشم أداة تسويقية مهمة، لذلك فإن رش رائحة اليوسفي والفانيليا في الهواء قد تدفع الزبائن إلى عدم الانشغال بتقدير الوقت الذي يقضونه في التسوق بنسبة 26 بالمئة. علاوة على ذلك، كشف استقصاء أُجري على النوادي الليلية في ولاية لاس فيجاس بأن تعطير أماكن ماكينات القمار بعطر جذاب قد أدى إلى ارتفاع المبالغ المالية التي يدفعها المقامرون بنسبة 45 بالمئة.

وتُقدر صناعة ابتكار علامة تجارية عطرية بقيمة ما يزيد على 3000 مليون دولار، وتزعم وينجت بأن لديها قائمة بزبائن مشهورين، لكنها لم تفصح عن أسماء أي منهم بسبب مزاعم الخصوصية. كما تحفظت وينجت عند سؤالها عن شريكها وزوجها السابق، جون هارتفل، الذي اختفى منذ أكثر من عشر سنين مع طفلتهما الرضيعة.

لم يكن بيدي حيلة سوى المضي قدمًا، وقد أصبحت شركة أنفاس هي سبيلي في التطلع نحو المستقبل.

***

جلست أحدق إلى الشاشة، محاولة استيعاب كل ما قرأته، لكن شيئًا واحدًا فقط قد علق في ذهني.

لقد توقفت عن البحث عني. ولم تذكر اسمي حتى.

فكرت حينها في فيشر، وفي أبي، فقد كان شعور فقدان شخص عزيز مألوفًا لي. *كيف استطاعت أمي الاستسلام؟*

رن الجرس، فنظرت أمينة المكتبة إليَّ وقالت: عليكِ الذهاب.

أغلقت الصفحة ثم أغلقت الكمبيوتر. تحولت الشاشة إلى اللون الأسود فشاهدت فيها انعكاس صورتي. رأيت شعري الأسود المموج وبشرتي البيضاء وأدركت الشبه بيني وبين أمي.

ومع ذلك اختلفت عنها؛ فأنا ما كنت لأتوقف يومًا عن البحث.

القميص

الصباح التالي كان السبت مطلع نوفمبر، وكان الجو باردًا وماطرًا. ذهبت إلى المطبخ، فتعجبت لرؤية والدة فيشر تجلس قرب كوليت وتحتسي القهوة معها، فأنا لم أرها منذ ذلك الصباح في المستشفى.

قلت لها في سري بحنق: *أنتِ السبب في رحيله*.

التفتت إليَّ كوليت وقالت: ها أنتِ ذي يا إيميلين. نظرًا لأنكِ الآن تعافيت من التهاب المعدة، فقد حان الوقت لتنظيف الأكواخ جيدًا، فهي تحتاج إلى دهان جديد كما يجب غسل الستائر. ستأتي مارديل في نهاية الأسبوع لمساعدتكِ. كان صوت كوليت حانيًا كعادته لكن حازمًا في الوقت نفسه. وكان من الواضح أن عقابي على سرقة قارب هنري كان مؤجلًا فقط وليس لاغيًا.

أضافت كوليت وهي تنحني لتربت على رأس دودج: أنا ودودج قد تقدمنا في السن نوعًا ما وأصبحنا غير قادرين على أداء تلك المهام الشاقة. نظر دودج الذي أصبح متحفظًا منذ عودتي نحوي. واصل دودج القدوم إلى غرفتي مساءً، إلا أنه كان ينام تمامًا عند الباب بدلًا من عند فراشي كما لو كان يمنعني من المغادرة.

سألتني مارديل: هل لديكِ مانع من ذلك؟

بدت ماردیل متعبة وأكثر نحافة، حتى وإن كانت قد اعتلت عرش التعب والنحافة بالفعل، إلا أنها كانت ما تزال تعيش مع زوجها. ومع ذلك، فقد كنت ما أزال لا أستوعب السبب، كما لم يفعل فيشر أيضًا. كانت كثير من الأمور تختبئ خلف ستار الحقيقة.

لكن عندما نظرتُ إلى كوليت التي كانت ترفع حاجبيها في ترقب، كان من الواضح أن عملي مع ماردیل سیکون أمرًا واقعًا، سواء أردت ذلك أم لم أُرد.

- بالطبع لا.

***

جعلتنا كوليت نباشر عملنا أولًا في الكوخ الأزرق. لم أدخل الكوخ منذ آخر أيام الصيف، حينما كنت أحاول بشدة ألا أفكر في فيشر. مرت كثير من الأمور منذ ذلك الحين، إلا أنني عدت إلى الكوخ مجددًا، وذهني مشغول بفيشر. بعض الأشياء لا تتغير قط.

كان الجو باردًا، وكنت أنا وماردیل نرتعش من البرد، حتى بدأت مدفأة الحائط بتدفئة الجو. اتجهنا نحو السرير لننزع الشراشف، فذهبت ماردیل تلقائيًا إلى الجهة التي كنت أقف بها دائمًا عندما كنت أغير الشراشف مع فيشر.

قالت ماردیل وهي تتراجع إلى الخلف بعدما كدنا نصطدم ببعضنا: آه، أنا آسفة.

لقد اعتادت فعل ذلك مع فيشر هي الأخرى. للحظة تأملتها وهي تعيش في ذلك البيت، وتتجه إلى كل زاوية من زوايا السرير لتغيير الشراشف وحدها ولم أستوعب كيف كانت تطيق ذلك.

قلت لها: لا بأس ثم ذهبت لأقف في الجهة التي اعتاد فيشر الوقوف بها. نزعنا كل الشراشف والأغطية وأنزلنا الستائر قبل أن ندفع الأثاث إلى وسط الغرفة.

أتى هنري وهو ينفض المطر عنه محضرًا علبًا من طلاء أصفر لطيف، وشريطًا لاصقًا أخضر، وعصوان مثبت بهما بكرتي دهان.

حدثني هنري بنظرة ذات مغزى قبل أن يتجه نحو الباب: سيدخل هذا السرور على قلب كوليت. وكان من الواضح أنه لن يتناسى هو الآخر ما حدث بسهولة.

***

وضعت ماردیل الشريط اللاصق على الأطر بينما جهزت أنا بكر الدهان وفرشت مشمعًا على الأرض. كانت دقة والدة فيشر قاتلة، فقد كانت في كثير من الأحيان تزيل الشريط اللاصق وتعيد لصقه ثانية لتتأكد أنها فعلت ذلك بشكل مثالي.

قلت لها بعد مضي وقت ما: سيختبئ هذا الجزء خلف السرير.

أجفلت وارتعدت وأصابعها تتحرك سريعًا لتلمس حافة الشريط اللاصق.

- أنا آسفة. كل ما أعنيه أن هذا الجزء لن يظهر كثيرًا.

أدارت ماردیل رأسها واستكملت ما كانت تفعله، فحاولت ألا أركز كم كانت حركتها تذكرني بفيشر. في نهاية المطاف، انتهت ماردیل، فوضعنا بكر الدهان في الطلاء ودهنا به الحوائط من أعلى إلى أسفل. كانت ماردیل تعمل بسرعة وبلا كلل، فظننت في بادئ الأمر أنها أقوى مما يوحي به مظهرها، إلا أنني أدركت قرب نهاية اليوم أنها لم تكترث ببساطة بالتعب، كما لو لم يكن جسدها لتعبأ به من الأساس.

سألتها أخيرًا: هل وصلتكِ أخبار عن فيشر؟ لم أستطع منع نفسي من السؤال حتى وأنا متأكدة أن فيشر لن يرسل أبدًا خطابًا قد يعثر عليه والده.

أومأت ماردیل برأسها على أي حال ثم قالت: من كوليت.

لكنني لم أكن على علم بذلك. سألتني ماردیل بدورها: هل وصلكِ خطاب أيضًا؟

أومأت أنا الأخرى برأسي.

سألتني ماردیل كذلك: هل أخبركِ أين هو؟

شعرت كم كان من الصعب عليها سؤالي.

- لا.

نظرنا إلى بعضنا وعلم كل منا حينها أنني لن أخبرها حتى وإن عرفت أين يكون، فلا يجب أن يعرف مارتن أبدًا أين هو.

لم نتحدث كثيرًا فيما عدا ذلك في عطلة نهاية الأسبوع الأول، فقد كنا نحاول إيجاد لغة تواصل مشتركة بطرح سؤال رسمي تلو الآخر، وذكرني ذلك بتلك الأيام التي جلسنا فيها بجوار سرير فيشر في المستشفى.

هل يمكنكِ أن تناوليني هذه القماشة؟

هل تودين تناول الغداء؟

وعلى الرغم من ذلك، ازدادت الأسئلة في ذهني نهمًا، تلك التي خطرت في بالي حقًّا، بقضاء مزيد من الوقت مع والدة فيشر.

لماذا واصلت العيش معه؟

كيف استطعت أن تسمحي لفيشر بالذهاب؟

ظننت أنني أستطيع أن أضع يدي على حقيقة أمر ما على الأقل، إن كان يتوجب عليَّ العمل مع ماردیل. بالطبع لن يكون هذا سهلًا فقد كانت ماردیل مثل فيشر عندما شهدنا هبوب أول عاصفة كبرى في الجزيرة، كما أن أحداث الأسبوع الماضي زادت الطين بلة.

كان أبي قد علمني أن الهدوء هو السبيل الوحيد للتواصل مع حيوان هائج. لذلك ألزمت نفسي بالتروي، ولم أنشغل بمقدار الوقت الذي يمر. كانت ماردیل بنهاية اليوم تختفي سالكة ذلك الطريق المرتفع كما يتطاير الدخان لكنني كنت موقنة من عودتها، فقد تعاهدت لكوليت بذلك، وقد عرفت قدر ما تحفظ ماردیل وعودها.

***

أمضيت فترة الغداء في الأسبوع التالي في المكتبة، لكنني لم أجد الكثير عن أمي. حققت شركة أنفاس، خلال السنوات الخمس الماضية، نجاحًا ضخمًا، وأصبحت قائمة عملائها، الذين أفصحوا عن أنفسهم الآن، تتضمن فنادق ومتاجر تحتفي بشراكتها مع الشركة كعلامة على تفانيها في خدمة عملائها، إلا أن الأخبار لم تذكر شيئًا عن حياة فيكتوريا وينجت الشخصية كما لم تذكر أي شيء عن أبي.

رغم ذلك، القراءة عن العطور نبهتني، في مختلف الأحوال، إلى أنني لم أفكر قط في استخدام حاسة شمي، التي طالما مثلت جزءًا كبيرًا من حياتي من قبل، بالطرق التي يتحدث عنها المقال، فقد كانت فيكتوريا تتحدث في المقال عن العطور كما لو كانت عصا سحرية تستخدمها كيفما شاءت.

تساءلت، إن كانت العطور تخلب لب الزبائن فتجعلهم يفقدون الشعور بالوقت أو يقامرون بمبالغ قد لا يملكونها، فهل يا ترى يمكن أن تستخدم لجعل شخص يبوح بسر ما؟

***

عندما عدت إلى المنزل ذلك اليوم، وصلني أخيرًا خطاب من فيشر في صندوق البريد يقول فيه: *المشتل بخير، والشبان الذين أقيم معهم لا بأس بهم، والمدينة كبيرة.*

كانت كلماته جافة وغنية بالمعلومات، لكنني لم أستطع لومه، حتى وإن كان خطابه أشبه بتقرير كتبه طالب متردد بعنوان: *كيف أمضيت عطلتي في المدينة*. لقد أردت أن أعرف أخبار فيشر لكن تألمت من حصولي على خطاب لم يفصح عن كل الأمور التي أردت معرفتها مثل قوله *أنا أحبكِ، وأشتاق إليكِ*. شعرت بعظم المسافة بيني وبينه مع كل خطاب يرسله إليَّ كما لو مشاعره تجاهي أخذت تفتر شيئًا فشيئًا، وتساءلت إن كان فقط يرسل إليَّ الخطابات من باب الواجب. إلا أنني لم أملك طريقة لمعرفة الإجابة.

كان عنوان المُرسِل ما يزال مجهولًا، لذلك لم أستطع الرد على خطاباته.

لم تكن بيدي حيلة، لذلك ازددت إصرارًا على معرفة السر الذي تخفيه ماردیل. وفكرت أن يصبح الكشف عن ذلك السر هديتي لفيشر.

هل ترى مقدار حبي لك؟ لقد فعلت هذا من أجلك.

***

أدركت افتقاري للوسائل المناسبة لذلك انتظرت وراقبت. بدأت ماردیل بالشعور بالراحة بمرور الوقت تقريبًا كما فعل فيشر في صيفه الأول في الخليج. عندما كانت ماردیل تصل نهار أيام السبت، كانت حركاتها تتسم بالتوتر والضغط، لكنها تصبح أكثر انسيابية بمرور الساعات، فقد توقفت عيناها عن البحث كما لم تواصل إعادة عمل المطلوب منها، وأصبح انتقالها الجديد إلى عالمنا أكثر سهولة بمرور كل أسبوع. وقرأت على وجهها في كل مساء علامات التردد في سلوك طريق أعلى التلة.

انتظرت قدوم اللحظة المثالية، والحصول على خطاب آخر من فيشر لكن لم يحدث شيء من ذلك، ومضى أسبوعان منذ حصولي على آخر خطاب منه.

ترى أين أنت يا فيشر؟ هل لا تزال تحبني؟ ترى هل أحببتني بالفعل من قبل؟

فكرت في الأسباب التي قد تدفعه إلى نسياني، أو في احتمالية شعوره بالألم، في مكان ما لا يمكنني العثور عليه قط. لم أدرِ ما الإحساس الذي يجدر بي الشعور به، أيجدر بي الشعور بالغضب أو الحزن أو حتى الضياع، إلا أن ذلك لم يكن بجديد، فقد كان عالمي رحبًا بالأمور التي لا أدري عنها شيئًا.

***

في السبت التالي، أرسلتنا كوليت لتنظيف الكوخ الأحمر، عبر فرك الشقوق بفرش الأسنان وتلميع الفرن من الداخل ليصبح ناصع البياض.

قالت كوليت وهي تهم بإرسالنا: سيكون من الرائع فعل ذلك.

لمحت طيف ابتسامة على شفاه مارديل وهي تعقب على كلام كوليت ونحن نسير على الممر الواسع: من السهل عليها قول ذلك. كانت هذه أول ابتسامة لها.

قد حان الوقت.

***

كنت ما أزال أحتفظ بالقميص الذي ارتديته في يومي الأخير على الجزيرة مع فيشر، ذلك القميص الذي كان عابقًا برائحته. لم أتصور وقتها كيف سينتهي اليوم، لكنني خبأت القميص عميقًا عندما عدت إلى الخليج في خزانة ملابسي. كنت أخرج القميص من حين لآخر وأرفعه إلى أنفي لأحظى بلحظة أخرى على الأقل مع فيشر ثم أضعه ثانية في مكانه.

كنت أسأل رائحته: *أين أنت يا فيشر؟ اكتب إليَّ رجاءً.*

في صباح السبت، أخرجت القميص وارتديته، فأرسلتني رائحته إلى الجزيرة لكنني ارتديت فوقه كنزة نظيفة لتغطيه وتحجب رائحته.

حان الوقت لتساعدني يا فيشر.

***

كنت أنا وماردِيل نعمل في مطبخ الكوخ الأحمر. واصلتُ السكوت وحاولت أن تصبح حركاتي متزامنة مع حركاتها كما كان يفعل فيشر، وبعد مضي ما يقرب من الساعة، ارتفعت حرارة جسمي وأخذت رائحة القميص تتقد وتتضاعف. خلعت كنزتي من دون النظر إلى والدة فيشر وجعلت رائحته تنساب في الغرفة.

عرفت بخبرتي كيف تستطيع الروائح محاصرتك وتقوض دفاعاتك وتشغل ذهنك وقلبك. ربما يستغرق ذلك وقتًا. لاحظت أمارات التغيير والانشراح على وجه ماردِيل، ورأيتها تنظف بعمل حركات دائرية بطيئة بيدها. رفعت ماردِيل رأسها ونظرت إلى خارج النافذة، نحو الماء، وعندما تحدثت، لم تكن تخاطبني حقًّا، كما لو كانت تظن أنها إن وجهت كلماتها تلك إلى العالم الخارجي فستظل سرًّا على نحو ما، أو ربما كانت تحاول أن تقطع كلماتها تلك الأرض وصولًا إلى فيشر.

استهلت ماردِيل الحديث، وهي تفرك الإسفنجة في أحد الأماكن قائلة: كان أبي لاعب كرة قاعدة وأحب ضرب الأشياء. لم نمتلك الكثير، لكن إن طلب أحد ما أمرًا إضافيًّا، فسيبرحه ضربًا ويطرده من المنزل. كان أبي يسافر مع الفريق، لذلك لم يقضِ كثيرًا من الوقت معنا، لكن أمي كانت تغدو حاملًا في كل مرة يعود فيها إلى المنزل. وإن لم تكن أمي جاهزة... رمقتني ماردِيل بنظرة خاطفة ثم قالت: إذن، فسيعثر على غيرها.

وقفت إلى جانبها بلا حراك، أستمع إلى كلماتها كما لو كانت تسر بكلماتها كما ترمي الأحجار في بئر عميقة.

قالت بعد فترة من الزمن: كان الاختيار دائمًا يقع على أختي الكبيرة، حتى تغير الاختيار في إحدى الليالي. كنت حينها قد بلغت السادسة عشرة فحسب. هربت من المنزل صباح اليوم التالي قبل استيقاظ أي أحد. التمست

توصيلة من السيارات المارة في الطريق خروجًا من المدينة. أقلني مارتن، كان مارتن قد قدم إلى المدينة لشراء معدات للصيد. كان بالغ الطيبة وبدا أن القدر جمعنا معًا. سألني مارتن إلى أين كنت أذهب فقلت له «إلى أي مكان لا يجدني فيه أحد» قال إنه يعرف المكان المناسب تمامًا. ضحكت ماردیل عبر هز كتفيها أكثر من إصدارها صوتًا ثم أضافت: حسنًا، إحقاقًا للحق فإن مارتن ليس كذابًا، لكنه...

نظرت رغمًا عني إلى ذراعيها وإلى الكدمات البادية عليها في بعض الأماكن.

- أنا أعلم. لكنه لم يكن دومًا كذلك.

- لماذا لم تتركيه؟

هزت ماردیل رأسها وقالت: ترى إلى أين كنت سأذهب؟

أضافت ماردیل بعد برهة: أتعلمين، كان مارتن الشخص الوحيد على الإطلاق الذي أخبرني أنني كنت جميلة. لقد اعتاد مارتن، عندما تقابلنا أول مرة، أن يحيط وجهي بكفيه وينظر إليَّ. لقد كنت أنا الكاذبة، فقد أخبرته أنني أستطيع الإبحار معه بالقارب وأننا نستطيع العيش بسعادة.

أردت أن أجادلها وأقول لها إنها لم تكذب سوى على نفسها، لكنني لم أستطع الحديث. نظرت ماردیل إليَّ وقالت: اعتاد مارتن أن يخبرني أن سمك السلمون يعود دائمًا إلى النهر نفسه ليضع بيضه، وقال إن الرائحة تعيده مجددًا إلى المنبع. ربما نحن أشبه بالسمك أكثر مما نعتقد، كل ما أعرفه أنني شعرت بأنني عدت إلى المنزل عندما قابلت مارتن.

ضحكت ماردیل مجددًا ضحكتها الغريبة ثم قالت: أظن أنه كان ينبغي لي أن أعرف أن هذا نذير شؤم، أليس كذلك؟

شعرت بأنني أغرق، فركزت على رائحة فيشر حتى وأنا أدرك أنها أخذت في التطاير من القميص.

- لماذا لم تخبري فيشر بأي من ذلك؟

- لأحميه.

كانت إجابتها سريعة، وكلماتها منمقة بتأثير سنين من التفكير.

- من ماذا؟

تذكرت نظرة فيشر وهو ممدد على سرير المستشفى ونعل الحذاء مطبوع على صدره، وبدا لي أنها لم تحمه على الإطلاق.

قالت ماردیل: من نفسي.

لم أستطع سوى التحديق إليها وأنا معقودة اللسان. حاولت ماردیل العثور على الكلمات المناسبة، كما لو كان منطقها لا يحتاج إلى التبرير.

قالت ماردیل أخيرًا: عندما وُلد فيشر ولفوه وأحضروه لي، بدا مثاليًّا. لقد كان شديد *النقاء*، أتفهمينني؟ وفكرت أنه إن لم يعرف من أين أتيت، فسوف يظل نقيًّا كما كان. ربما لم أستطع إيقاف مارتن، إلا أنني أستطيع حمل ذلك الوزر عنه.

- لكنه أراد أن يعرف، لقد طلب منك ذلك.

بدا على قسمات وجهها الحزن والعزم معًا.

قالت ماردیل: لن تستطيعي فهم ذلك حتى تختبريه بنفسكِ يا إيميلين. وأنتِ أمامكِ وقت طويل حتى تفعلي.

ثم أمسكت الإسفنجة وواصلت التنظيف مجددًا.

الاختيار

عندما كنا أصغر سنًّا، علمني فيشر كيف أترجم التعبير المرسوم على وجه أحدهم وأكتشف كذبه. وبمرور الوقت، عرفت أن للكذب رائحة أيضًا. كانت رائحة الكذب شديدة الحلاوة، كما لو كانت بحاجة إلى خداعك بعطرها أيضًا، لكنني لم أشم رائحة الكذب تنبعث من مارديل قط طوال حديثها عن فيشر يوم السبت ذاك. بالطبع كانت الأسباب التي سردتها عن عدم مغادرتها وعن عدم إخبارها لفيشر غير منطقية تمامًا بالنسبة لي، إلا أنها كانت كذلك بالنسبة لها، فقد كانت تؤمن حقًّا بصدق ما تقول، وكانت تخبرني الحقيقة، حتى وإن كانت تُعتَبَر حقيقة فقط من وجهة نظرها. فقد وجدت رائحة ذلك.

فكرت في خطابات فيشر والمقالات التي وجدتها على الكمبيوتر وطبعتها، وتمنيت أن لو كان لها رائحة كأوراق العبير، وأن تفضح الكذب وتزف الصدق مع القصص التي تكشف عنها، فقد كنت سأهتدي حينها إلى الحقيقة كما فعلت مع والدة فيشر. في النهاية، على أي حال، ربما لن يكون ذلك مهمًّا، فقد تكون هذه القصص حقيقية تمامًا كقصصها، ولم أعرف إن كانت ستتشابه مع قصصي. وأدركت أنني لن أعرف قط إلا عندما أتقصى عنها بنفسي، حتى أعثر على فيشر، وأمي.

***

مع ذلك، كان من المستحيل العثور على فيشر من دون الحصول على أدنى فكرة عن مكانه، لذلك رجوت أن يصلني خطاب آخر، أو أن أجد دليلًا، أو عنوانًا. مر أسبوع فتأجج القلق في نفسي وعبث بأفكاري. في المساء، كنت أستلقي على السرير وأنا موقنة من كرهه ونسيانه لي، وفي الصباح كنت أُبغِض نفسي لأنني شككت في أمره. وعاودتُ الكرة نفسها مرارًا وتكرارًا.

عاهدت نفسي أنني سأنطلق إلى المدينة على أي حال، وأقتفي أثره، وأجد أمي إن لم يصلني خطاب بحلول عيد الميلاد.

حل عيد الشكر وانقضى، ثم خرجنا لقطع شجرة لعيد الميلاد، كما ساعدت كوليت في خبز الفطائر، وتحريك مشروب الشوكولاتة الساخنة التي أحبت صنعه من الصفر، وتحققت من صندوق البريد، وقمت بحل واجبي وأنا أتظاهر أنني سأكون موجودة لحضور حفل التخرج. أخذت دودج في نزهات قصيرة، فقد كانت هي كل ما تستطيع أرجله المسنة تحمله. ثم تحققتُ من صندوق البريد مجددًا. كنت قد انتهيت أنا وماردیل من تنظيف الأكواخ، لكنها واصلت القدوم إلى الخليج على كل حال، وساعدت كوليت في أمر الحجوزات. تحققتُ من صندوق البريد مجددًا. وبحلول اليوم الأخير من عطلة عيد الميلاد، شعرت بالضجر، فأرسلتني كوليت إلى الخارج لمساعدة هنري في إصلاح الدرابزين حول سطح المطعم.

كان البرد قارسًا، والغيوم منخفضة، تحمل ذلك النوع من النسيم الذي يتخلل أيًّا مما ترتدي. لم أدرِ لماذا كنا نعمل على إصلاح الدرابزين في ذلك الوقت من العام، لكنني أحببت الطرق على أي شيء. قضى هنري معظم الوقت واقفًا خلفي، مشيرًا إلى المكان بينما طرقت أنا. أحسست بقوة الطرقة ترتد على ذراعيَّ وتدفعني إلى الاسترخاء.

قال لي هنري وأنا أطرق مسمارًا فجعلته معوجًا: انتبهي إلى أظافركِ. ابتسم هنري منحنيًا، ليلتقط رأس المسمار بمطرقته وينزعه، ثم قال: حاولي مجددًا.

واصلنا فعل ذلك لوقت ما، كما اعتدنا العمل معًا دائمًا، من دون التحدث كثيرًا. كانت كوليت هي من تكثر الحديث، وربما كان ذلك سبب إخباري لهنري.

قلت لهنري بدون أن أرفع نظري به: لقد اكتشفت من أكون.

- حقًّا.

لم يلاحقني هنري بالأسئلة وتمكنت أن أعبر عن نفسي من خلال المساحة التي منحها لي. شرعت بإخباره ما قرأت على شبكة الإنترنت، فأحاطني بذراعه عندما وصلت إلى الجزء المتعلق بآلة أبي.

سألني هنري: ألا تظنين أن كوليت تستحق سماع ذلك أيضًا؟

كان هنري محقًّا، لذلك عدنا أدراجنا إلى المنزل ونحن نستمع إلى قرع نعالنا على الألواح الخشبية حيث نسير. كانت كوليت على وشك الانتهاء من تحضيرات العشاء عندما دخلنا.

قالت لنا كوليت: حضرتما في الوقت المناسب وهي تضع شرائح اللحم المطهوة ببطء على طبق التقديم، وأصبح عبير المكان حولنا عبيرًا ملكيًّا.

قال هنري مخاطبًا كوليت: إيميلين لديها ما تقوله لنا. وضعت كوليت زبدية من البطاطس المهروسة على الطاولة وجلست وهي تنظر إليَّ عبر الطاولة.

سألتني كوليت: ما الأمر؟

أخذت نفسًا، اختزن جميع روائح المطبخ في داخلي، ثم أخبرتهما عن أبي وعن أمي وعن جهاز العندليب وعن الزجاجات التي أبقاها أبي في الأدراج.

قالت كوليت: أتذكر القراءة عن هذه الآلة عندما ظهرت أول مرة، إلا أنها اختفت فجأة. وظللت دائمًا أتساءل عما حدث.

كان هنري يراقبني وهو يومئ برأسه ببطء ثم قال: لذلك أردتِ العودة مجددًا لإحضار الزجاجة. تلك التي تركتها في الجزيرة.

- نعم. أظن أن أبي قد صنعها لأنه أراد اختبار عمل الآلة، ولمعرفة كم ستعمر الأوراق أو شيء من هذا القبيل. وقد كانت هذه الزجاجة تحمل عبير الكوخ في الجزيرة، ورائحتنا معًا.

قال هنري: آه.

- فضلًا عن أن مقالات الإنترنت لا تفصح عن الكثير، وأنا أود معرفة الحقيقة.

قالت كوليت بنبرة داعمة: بالطبع يحق لكِ ذلك، لكنني رأيت كيف كانت تراقبني كما فعلت عندما وصلت أول مرة قبل عدة سنين، كما لو كنت أشبه بالمد الذي يعود كما جاء.

اعتادت كوليت أن تخبرني حينها «*إنكِ هدية أُرسلت لي في أكثر وقت لم أتوقعها به*».

كنا قد انتهينا من تناول الطعام بحلول ذلك الوقت، وذهب دودج الذي كان يتوسل إليَّ للحصول على فتات اللحم طوال نصف الساعة الماضية، ليحك الباب الأمامي. صحبني هنري عندما ذهبت لاصطحاب دودج خارجًا، ووقفنا على الشرفة في أوج ليلة شتوية.

سألني هنري: هل أخبرتكِ كوليت من قبل كيف جاءت إلى هنا؟

- لقد قالت إنكما تقابلتما في حديقة في مدينة نيويورك، وأنه قد عُرض عليك وظيفة هنا، وأنك سألتها القدوم معك.

كنت أتذكر تلك القصة بعد مرور كل تلك السنين.

- هل أخبرتكِ أنها لم توافق؟

نظرت إليه مشدوهة وقلت: لا.

ضحك هنري بلطف ثم قال: لقد فعلتْ، فقد قالت إنها لن تستطيع السفر إلى أقاصي البلد مع شاب تعرفت عليه للتو. أما أنا فقد سافرت بعيدًا. أمضيت هنا أسبوعًا شعرت فيه بالأسف على نفسي، وأجلد ذاتي. لكن في ظهر أحد الأيام، رأيتها تسير على الممر الطيني نحوي وقالت لي إنها أخطأت بتركي أبعد عنها. ابتسم هنري وقال: كانت هذه أجمل لحظة في حياتي.

فوق الخليج، ابتعدت الغيوم بما يكفي لسطوع القمر.

قال هنري مشيرًا إليه: لقد أصبح القمر بدرًا. وسيرتفع المد غدًا. تذكرت الليلة التي هربت فيها أنا وفيشر معًا، ثم أمسكت بيد هنري واقتربت من رائحة الطلاء ونشارة الخشب التي تنبعث منه.

قلت له: هنري. لم أرغب في تركك أنت وكوليت عندما فعلت.

قال لي هنري وهو يضع يده الخشنة على يدي: أنا أعلم. كما لن ترغبي بذلك في المرة التالية أيضًا. لا بأس عليكِ.

***

في اليوم التالي، كانت السماء خالية من الغيوم، وعندما عدت من المدرسة علمت أن هنري استغل الطقس الجيد لتوصيل طلبياته إلى الجزر. عادة كان هنري يعود بحلول الساعة الرابعة، لكنه عاد يومها بعد حلول الظلام بكثير، وكانت كوليت على وشك الاتصال بخفر السواحل.

عندما سمعت صوت محركه أخيرًا، ذهبت إلى الرصيف لمقابلته.

قلت له: إن كوليت تمر بانهيار عصبي.

ضحك هنري بهدوء وقال: بالطبع.

ثم مد يده في القارب وأخرج حقيبة قماشية وقال: هذه لكِ.

أمسكت الحقيبة بتردد وميزت بها شيئًا ما أسطوانيًّا غير ثقيل على الإطلاق، ثم أخرجته في اندهاش، فقد كانت زجاجتي.

- شكرًا لك.

- ظننت أنكِ ستكونين بحاجة إليها.

عندما اقتربنا من المنزل، فُتح الباب الأمامي.

صاحت كوليت: هل أصبت بأي أذى أيها الرجل العجوز؟

غمز هنري لي بطرف عينه ثم قال: هل يمكنكِ وضع الحقيبة في مكان غير مكشوف؟ فقد قالت كوليت أنها ستقطعني إربًا إن عبرت القناة مجددًا.

***

تلك الليلة، حزمت أغراضي عندما خلد هنري وكوليت للنوم، لكنني تركت لهما رسالة هذه المرة.

أنا ذاهبة لمعرفة الحقيقة. أعدكما أنني سأتصل. مع حبي، إيميلين.

وضعت الزجاجة في حقيبة ظهري للمرة الثانية، ثم انحنيت واحتضنت دودج، وطبعت قبلة على رأسه.

- سأعود مجددًا.

لم يفتح دودج عينيه، لكنه تزحزح عن الطريق.

الجزء الثالث

المدينة



الوصول

كانت هناك حافلة واحدة فقط تغادر إلى المدينة يوميًّا في تمام الساعة الثامنة صباحًا. ارتعشت يداي وأنا أعد المال اللازم لشراء التذكرة، فقد غادرت المنزل وأنا أحمل معي 387 دولارًا كانت هي حصيلة البقشيش الذي ادخرته من سنوات تنظيفي للأكواخ. لم أكن بحاجة ماسة إلى المال عندما أقمت في الخليج، لكن النقود التي ادخرتها لوقت الحاجة بدت قليلة جدًّا عندما شقت الحافلة طريقها مغادرةً المحطة.

انطويت في مقعدي قرب النافذة، وذراعي ملفوفة حول حقيبة ظهري وأنا أشاهد الحافلة تمر بالأشجار الكثيفة الخضراء المنتصبة كالبنيان المرصوص يتخللها ومضات من مساحة قطعت منها الأشجار، أو مجمع منازل، أو متجر أو اثنين صغيرين كنت قد درست الخرائط في أطلس كوليت، لكن تلك الكيلومترات متناهية الصغر في الأطلس تحولت الآن إلى طرق وجبال وغيرها من روائح الركاب، كروائح شطائر الديك الرومي والقهوة المحترقة، وروائح قطط وكلاب وعشاء الليلة الماضية عالقة بثيابهم.

كان جسمي يؤلمني، فقد أمضيت ليلة طويلة وقطعت شوطًا أطول للوصول إلى الحافلة. اندسست أكثر في مقعدي كما لو كانت ذراعاه وظهره

صدفة تمنحني الأمان. غلبني النعاس فأصبحت بالكاد أعي من دخل وكيف تغيرت الروائح وأصبحت أكثر حدة.

***

استيقظت على صوت بوق صاخب لأجد نفسي وسط غابة من المعدن والزجاج وأبراج أطول من الأشجار تناطح السحاب.

غاصت الحافلة في بحر من السيارات التي كانت تعوي في طريقها نحو التقاطعات وتكدس الناس على قارعة الطريق خافضين رؤوسهم ومثبتين نظراتهم على هواتفهم التي يحملونها في أيديهم كما لو كانوا يتضرعون. رأيت رجلًا يشبه كومة من أوراق الشجر يجلس على صندوق وهو يعزف على الجيتار، وكلبًا في مثل حجم السنجاب، يعدو على قوائمه سوداء اللون. أحسست بالروائح تتضاعف وتحاول اختراق زجاجة النافدة وصولًا إليَّ.

كنت قد شاهدت من قبل مدنًا على التلفزيون لكنني لم أشعر بسطوتها على الطبيعة، وتساءلت كيف لأحد أن يعثر على أحد هنا؟ كنت قد حزمت في حقيبتي طقمين من الملابس، وقائمة بالعناوين، وقميص فيشر، وزجاجة أبي المختومة بالشمع الأخضر، وكانت بطلات القصص الخيالية ينطلقن في مغامرتهن وفي جعبتهن أقل بكثير مما أحمله، ولكن ساعدهن السحر، إلا أن السحر في هذا المكان لم يكن سوى صورة لحورية بحر تبتسم على لوحة لأحد المتاجر.

وأنا عرفت ماذا تمثل حوريات البحر.

توقفت الحافلة وانفتح بابها، فاندفعت إليها روائح عوادم السيارات والزيت الساخن والقهوة الباردة وعطن البول، ورائحة التعرق الحادة من جراء الخوف، وأنات الحنين العميقة، يغطيها جميعًا دخان ضباب الأسفلت والبلاستيك، فانزلقت في مقعدي ورفعت كنزتي على أنفي.

انطلقت الحافلة ثانية في الزحام بعد أن أقفلت أبوابها، فأغمضت عيني وحاولت أن أحبس أنفاسي وأنا أتخيل رائحة الخميرة اللطيفة وهي تتوسد الخبز، واستقبال التراب للمطر، ثم دسست أنفي في أعلى حقيبة ظهري محاولة العثور على رائحة قميص فيشر وعلى بشرته.

بعد فترة من الوقت، توقفت الحافلة مجددًا وأطفأت محركها هذه المرة. فتحت عيني فرأيت السائق ينظر إليَّ.

قال السائق: هذه نهاية الخط.

تساءلت، *ما هذا الذي أفعله؟*

طقطق السائق بلسانه بنفاد صبر.

قلت لنفسي: *امضي في طريقك فحسب يا إيميلين.*

***

وقفت أمام محطة الحافلات وأنا أحاول أن أستجمع قواي والبنايات الشاهقة تحيطني من كل جانب. عرفت بوجود نزل للشباب عندما أجريت بحثًا على الكمبيوتر في المكتبة، لكن الخريطة التي رأيتها على الشاشة أصبحت بلا معنى في خضم هذه الفوضى كلها.

سألني سائق الحافلة: هل تعرفين إلى أين أنت ذاهبة؟

قلت وأنا أناوله الورقة التي كتب عليها العنوان: أنا أحاول العثور على هذا المكان.

تبين أن السائق شخص عطوف، فقد كانت لديه ابنة في مثل عمري وأصر أن يمشي معي حتى يوصلني إلى نزل الشباب، وأن يعطيني كذلك ما أسماه جولة بالمكان. كنا نمشي وسط أجمة من البنايات حتى انتهينا إلى مجرى مائي قد يستوعب خمسين أو حتى مئة خليج سري.

قال سائق الحافلة وهو يشير بيده: هذا هو المرفأ. كانت على أطراف المرفأ مبانٍ ذات أبراج وأبواب تبدو عليها الأبهة.

سألته: هل هذه قصور؟

ضحك السائق ثم قال: فقط للأغنياء.

قادني سائق الحافلة عبر ممر خشبي يمتد بين رصيف المرفأ وصف طويل من المباني المبنية بالطوب الأحمر الباهت. ذكرني قرع نعالنا الخفيف على الخشب العتيق بالمنزل فتشبثت بألحانه كدرع يقيني أصوات الضوضاء الأخرى. مررنا بمطاعم تطل على الماء وبأناس حسان يضحكون على

الرصيف. انتشت معدتي برائحة الجبن الذائبة والثوم المحمص والليمون البارد والشوكولاتة الدافئة لكن عقلي أفاق من نشوته عند رؤية الأسعار المكتوبة على اللافتات الموضوعة خارج الأبواب، وعرفت أنني لن أستطيع تناول الطعام في أي من هذه الأماكن.

عدنا مجددًا إلى المدينة عبر سلسلة منعطفات معقدة نحو اليمين واليسار ثم سرنا في زقاق طوبي ضيق تصطف على جانبه متاجر صغيرة جدًّا تنبعث منها جميعًا روائح مركزة بالغة الحلاوة والقوة، ثم قابلْنا حشدًا من السياح يحملون الكاميرات وتتقافز أصواتهم على الجدران، فسلكنا طريقنا وسطهم كمن يسبح عكس التيار.

كيف لي أن أجدك على الإطلاق هنا يا فيشر؟

قال سائق الحافلة بمجرد خروجنا من الزقاق: ها قد وجدته. أجفلت مما قاله، فقد ظننته يعني فيشر لوهلة، لكنني رأيته بعد ذلك يشير عبر الشارع نحو مبنى أصفر ضيق محشور كالشطيرة بين مطعم ومدرسة لتعليم اللغات.

- هل ستكونين على ما يرام؟

أجبته بما كذبته بنفسي: بالطبع.

ربت السائق على كتفي ثم ذهب.

***

دفعت الباب بأيدي مرتجفة ثم هرعت إلى الداخل. دفعت نظير الإقامة لأسبوع وأعطيت المال إلى شابة لها شعر أسود فاحم اللون ترتدي حلقًا يشبه خطاف سنارة الصيد، فأعطتني مفتاحًا وقالت لي: رقم عشرة.

صعدت طابقين من السلالم ثم سرت في ردهة طويلة حتى وصلت إلى غرفتي شديدة البساطة على عكس الفوضى المنتشرة في الخارج، المكونة من سرير معدني بثلاثة طوابق ومغسلة بيضاء. كانت النوافذ طويلة والأرضية مفروشة بالبلاط الخشبي الذي بدا جميلًا في يوم من الأيام، إلا أنه لم يرَ يومًا تنظيفًا مثل تنظيف كوليت العميق، كان ثمن الإقامة في النزل رخيصًا على أي حال، وكنت أمتلك ما يكفي من المال إن أنفقت بعناية.

قبل ذلك، أنفقت بضع عملات معدنية ثمينة في بهو النزل للاتصال بهنري وكوليت من الهاتف العمومي.

حدثتني كوليت بصوت مذعور قائلة: أين أنتِ؟ هل أنتِ بخير؟

- أنا في المدينة. إنني بخير. وأنا أقيم في نزل للشباب.

- لقد أخفتني.

- أنا أعلم. أنا آسفة.

- هل تريدين العودة إلى المنزل؟ يمكن لهنري القيادة والذهاب لإحضاركِ.

أضناني الحنين وأنا أسمع صوت طوق دودج المعدني على وعاء الماء.

رغم ذلك قلت لها: لا. ليس بعد، فلا أستطيع الاستسلام من أول يوم.

تحدثنا لبضع دقائق أخرى، لكن النقود نفدت فسمعت صوت طنين الهاتف المستمر بعد انتهاء المكالمة. مرت بجانبي فتاة، فرفعت نظرها من على شاشة هاتفها البرَّاقة.

قالت لي وهي تسير: هل هذا الشيء ما يزال يعمل؟

***

وقفت أمسك بسماعة الهاتف في يدي وكل ما أريده هو الصعود ثانية إلى تلك الغرفة البسيطة الهادئة والاختباء. لم أدرِ بالضبط ماذا ظننت أنه سيحدث عندما سأصل إلى المدينة. ربما تخيلت أنني سأرى شعر فيشر الأصهب يتوهج كمنارة وسط شارع مزدحم أو ربما تأملت أن يرشدني حبي إليه بالفطرة. لكن المدينة لم تكن كما تخيلتها قط، فالمحيطات تبدو صغيرة مقارنة بها، والفطرة تلفظ فيها أنفاسها الأخيرة. احتجت خطة أعتمد عليها.

سمعت في ذهني صوت أبي وهو يقول لي: *قيمي الوضع يا إيميلين، واحذفي المتغيرات وحددي القرار الأمثل.*

لذلك أصبحت عازمة على اكتشاف المكان في الخارج، فوجدت محل بقالة صغيرًا بالجوار. اشتريت منه جرة من زبدة الفول السوداني ورغيف خبز وخريطة للمدينة. عندما عدت إلى نزل الشباب وجدت جدولًا للحافلات فحملت أغراضي وذهبت إلى سريري وأعددت شطيرة ثم فردت الخريطة وعلمت

جميع المشاتل باللون الأخضر وفمي يلوك الخبز الجاف المدهون بزبدة الفول السوداني، ولم أتوقف حتى حددت أماكن المشاتل التسعة والأربعين جميعًا.

بدت العلامات كسرب من الأسماك في محيط شاسع فنظرت إليها وقد خفتت شعلة الحماس تلك التي قادتني حتى هذه اللحظة. لم تبلغ الساعة سوى الثامنة، لكنني فرَّشت أسناني في المغسلة واستلقيت على أحد الأسرة وتدثرت بالأغطية وتغطيت حتى أنفي.

لم يهاودني النوم. كنت وحدي في الغرفة، وشعرت بفراغها يكاد يطبق على صدري. لم أقضِ قط أي ليلة بمفردي سوى تلك الليالي التي قضيتها في الكوخ بعد موت أبي فارتعشت من عودة الذكريات إليَّ ثانية. كنت أتوق إلى أن ينام فيشر بجواري، أو أن يستلقي دودج حتى عند الباب. تناهى إلى سمعي أصوات الجلبة في الردهة حيث يضحك شباب في مقتبل العمر، ويتحدث أناس بلغات لم أفهمها، كما لم تتوقف في الشارع ضوضاء الزحام أو الصراخ العارم القاسي من أحدهم أو عويل سيارات الإسعافات في الليل.

حضر رفقائي في الغرفة لاحقًا بعد عدة ساعات وهم يتحدثون بثقة وحماس مثل الطلبة الذين يعملون في الخليج السري في فترة الصيف، لكنهم أخفضوا أصواتهم بقهقهات مخمورة عندما علموا بوجودي. تقلبت في السرير وأنا أتشبث بحقيبة ظهري وأغمض عيني بقوة أملًا أن يزورني النوم.

***

دارت أيامي في فلك تناول شطائر زبدة الفول السوداني وركوب الحافلات وعدم الوصول إلى شيء. كنت أعود كل ليلة إلى نزل الشباب، وإلى رفقاء غرفتي المتغيرين والغرفة يفوح منها رائحة البتشول[1] مرة والبنزهير[2] والملح مرة أخرى. أصبحت أحلامي مملوءة بلغات لم أعرفها لكنني استطعت تمييزها. كنت أشعر بالغيرة وأنا أنصت إلى ضحكاتهم ونكاتهم وخططهم الكبيرة، لأن المدينة لم تمثل لهم سوى محطة في الطريق، ولم تكن سوى

---

(1) البتشول أو الباتشولي أو البطشولي نوع من النباتات يستخدم في صناعة العطور والكحول.

(2) الليمون الأخضر.

مكان يصنعون فيه الذكريات أو يحظون فيه برفقاء قبل استكمال الرحلة. كنت أستلقي في السرير وأنا أتخيل عثوري على فيشر ومفاجأته بقبلة.

أن أقول له عثرت *عليك*.

لكن ذلك لم يحدث، فقد كان كل ما فعلته التنقل بين مقاعد الحافلات القاسية والتحدث مع ملاك مشاتل متجهمين. وعندما وصلت إلى المشتل السادس عشر، ضاع وجه فيشر في وسط مئات من الوجوه التي رأيتها كل يوم فوجدت صعوبة في وصف شكله.

كنت عادة ما أقول: *له شعر أصهب وعينه خضراء اللون*. نسيت كيف يرفع حاجبه الأيسر، قليلًا فقط، عندما يود أن يرسل لي إشارة ما، أو الندبة البيضاء الصغيرة التي حصل عليها في إبهام يده اليمنى عندما كان يجمع بلح البحر من البحيرة، فتلك المدينة شديدة الكِبَر والسرعة لا تعبأ بمثل تلك التفاصيل الرقيقة.

ترى هل أضعتني أنت أيضًا يا فيشر؟

***

عدت إلى نزل الشباب عند نهاية الظهيرة، بنهاية اليوم السادس من البحث. كنت متعبة جدًّا لكن تملكني الضجر فلم أستطع البقاء في الداخل، لذلك ذهبت إلى رصيف المرفأ لأستنشق رائحة الماء المالح. تاهت رائحة ماء البحر في غيمة من ضباب السيارات والقوارب والطائرات المائية، وجثمت الخرسانة على أنفاس التربة فأوثقت الأغلال في رائحة الطبيعة تحتها. واصلت سيري متجاهلة صوت الضوضاء ومحاولة السير فحسب حتى يُعيِيني التعب وأصل إلى أي مكان آخر.

عندما رفعت رأسي، وجدت نفسي على أطراف مساحة واسعة من العشب والأشجار. لم تكن غابة، لكنني واصلت السير على طريق خرساني مؤدٍ إلى منحنيات لينة منحدرة، حتى بدأت الروائح بالتغيير. كنا ما نزال في الشتاء، لكن المكان كان عامرًا بالحياة. عثرت على شجرة صنوبر فاتجهت نحوها ودسست أنفي في شقوق لحائها.

همست لها: مرحبًا *بكِ*. شعرت بأنفاسي تبعث الدفء في ساق الشجرة وتحيط بوجهي، فسرت أحمل التحية من شجرة لأخرى وأستنشق رائحة التنوب والأرز والكرز والتفاح وروائح أخرى لم أميزها. عندما بدأ الظلام يخيم على المكان، سرت مجددًا نحو النزل. بالطبع كان مستقبلي حافلًا بمزيد من الحافلات، إلا أنني حملت رائحة النسغ على بنان أصابعي.

***

ضاعفت مجهوداتي للعثور على فيشر بعد ذلك العصر الذي قضيته في الحديقة وأنا أخبر نفسي بحقيقة أنني لا أملك خيارًا آخر. لكنني تنقلت من طريق مسدود إلى آخر في عالم أسمنتي يموج بمقاعد قاسية ومبانٍ تشبه بعضها بعضًا.

في صباح اليوم العاشر، ذهبت إلى المشتل رقم سبعة وأربعين في نهاية أطراف المدينة. كنت قد تعلمت بمرور الوقت ألا أتحدث إلى الإدارة، فقد كانت المعلومات الجيدة تأتي من الأشخاص الذين يحملون الطين في أيديهم. وجدت شابة تعتمر على رأسها قبعة لكرة القاعدة وترتدي مئزرًا عليه شعار المشتل. وقفنا في الصوبة والهواء عابق برائحة الزهور التي من الطبيعي ألا يحين أوان ينعها بعد وهي تتغنى *حل الربيع*، في مفارقة واضحة مع الجو في الخارج.

سألتها: هل هناك شاب اسمه فيشر، يعمل هنا؟ كنت في هذه المرحلة أقول الكلمات تلقائيًّا، حتى لو في أثناء نومي.

أدارت الفتاة رأسها وهي تسقي أصيصًا تلو الآخر بخرطوم المياه.

واصلت السؤال: شعره أصهب؟ وعينه خضراء اللون؟

- آه، أتعنين جاك؟

تسارعت نبضات قلبي، وحدثت نفسي: *بالطبع، بالطبع سيتخذ لنفسه ذلك الاسم*.

قلت وصوتي يعلو من فرط الحماس: هل هو هنا اليوم؟

- أوه، لا. لقد طُرِد قبل قرابة ثلاثة أشهر. كانت هناك حادثة ما تتعلق بإحدى الفتيات...

قرأت الفتاة التعبير المرسوم على وجهي فقالت: يا إلهي كم أنا خرقاء. هل هو صديقكِ؟

أومأت برأسي لكنني لم أعد أنصت لما تقوله بعد ذلك.

لقد عثر فيشر على فتاة أخرى.

لم أدرِ كيف أتصرف حيال هذه الفكرة، فلم نكن أنا وفيشر مثل الطلاب الآخرين في المدرسة الذين اعتادوا الدخول في علاقات وإنهائها كما لو كانوا ينتقون الأصداف على الشاطئ، فقد كنا دومًا نصف أحدنا الآخر منذ أول لحظة تقابلنا فيها، وقد نفترق، لكن لا نُستبدل. كان هذا إيماني الوحيد، والنجمة التي أضاءت عتمتي، حين كفرت بما عدا ذلك منذ أن مات أبي قرابة خمس سنوات.

عندما رحل فيشر، خطرت في بالي العديد من الأفكار، عن الأشياء التي ربما قد حدثت له في المدينة، لكنها لم تتضمن قط شيئًا من ذلك القبيل، فلم أفكر قط في أكثر الاحتمالات وضوحًا.

يا لغبائي، كان يجدر بي أن أعرف، أنه تعرف بالطبع على فتاة أخرى، فتاة لم تخن ثقته.

سألت الفتاة التي تعتمر قبعة كرة القاعدة: ماذا حدث؟

- انظري، لا يجدر بنا أصلًا الحديث عن ذلك. لقد كانت فوضى عارمة.

سارت الفتاة لتغلق الخرطوم فاتبعتها.

- هل تعلمين إلى أين ذهب؟

أغلقت الفتاة الصنبور ثم نظرت إليَّ بإشفاق: سمعت أنه لم يأتِ حتى لأخذ راتبه الأخير.

وقفت محاطة بتلك الأزهار الخدَّاعة وحسبت الوقت في ذهني. لقد مرت ثلاثة أشهر منذ توقفت آخر خطاباته.

لقد قلقت وانتظرت وذهبت للبحث عن فتى لم يود أن يتم العثور عليه أصلًا، وكنت مخطئة منذ البداية، وكنت أعيش في عالم الأحلام، مجددًا. في النهاية، كنت كما الحشائش الضارة في المشتل، نباتات يجب أن تُقلع وتفسح المجال لنباتات أفضل وأجمل.

ولم أكن النصف الآخر لأحد.

أسررت في نفسي *عليك اللعنة إذن*، لكن كانت كلماتي مائعة وليست حازمة، ولم أدرِ أوجهت تلك الكلمات له أم لنفسي.

***

عدت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي، ولم يتبقَّ معي سوى ثلاثين دولارًا، والتي لا تكفي أصلًا ثمن رحلة عودتي بالحافلة إلى الخليج السري. لقد رحل فيشر، واختفى عندما ازدادت الأمور سوءًا وطوى صفحة حياته القديمة وفتح صفحة جديدة، تمامًا كما فعل أبي.

لقد كانت والدة فيشر تقول إن *سمك السلمون يعود دائمًا إلى نفس المنبع*، لكنني كنت أتباهى بأن وضعي مختلف، وأن خياراتي كانت أفضل، لكن ربما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لنا جميعًا.

لذلك، رميت حقيبة ظهري على البلاط الخشبي قرب السرير، فانقلبت وتدحرج منها جرة زبدة الفول السوداني الفارغة تقريبًا، ومعها خريطتي. انبرت طيات الورقة من كثرة الاستخدام وأصبحت العلامات التسعة والأربعون مبهمة. حدقت إليها لحظةً. ومن ثم أخرجت قلمًا أحمر وعثرت على عنوان آخر ورسمت دائرة حوله.

عنوان شركة أنفاس.

شركة أنفاس

كانت واجهة مبنى فيكتوريا مصنوعة من الزجاج الأخضر في وسط مبانٍ مصنوعة من الطوب، كما لو كان نهر يجري والطين على ضفتيه. رمقتني موظفة الاستقبال الجالسة على المكتب الأمامي بنظرة متوجسة عندما دخلت، تقيمني من رأسي إلى أخمص قدمي، فتنبهت فجأة لما رأته بالفعل، فقد كنت أرتدي سروالَ جينز قديمًا وأحمل على ظهري حقيبة حمراء باهتة اللون لها أيدٍ بالية، كما لم أغسل شعري منذ أسبوع لأنني لم أملك كلفة الاستحمام. لكن أحدًا لم ينتبه إليَّ على متن الحافلة، لكن هذا المكان لم يكن كالحافلة بالطبع.

وضعت المرأة يدها على الهاتف، لكن رجلًا يرتدي بذلة سوداء مشدودة ذهب إلى مكتبها فتفتح وجهها كالزهرة ونسيت أمري تمامًا. شعرت بالراحة، فتسللت لأجلس على أريكة جلدية لا ظهر لها لأتوارى عن أنظار المرأة خلف أصيصين أسودين طوال لنبات الصفصاف، واستطعت من مكاني هذا أن أراقب المصعد والمدخل، فقد أردت رؤية أمي قبل أن أخبرها من أكون.

كنت قد وصلت في أثناء وقت الغداء، دخل رجال ونساء مهندمون إلى البهو. راقبتهم وأنا أستنشق عبق الهواء حولي، لم يكن عبير المكان طبيعيًّا لكنه صنع على نحو جميل، وكان مزيجًا من سحر الطبيعة الناعم، من أريج العشب والماء وشيء آخر.

توصلت إلى نتيجة، *إنه المال*، وضحكت لأول مرة تقريبًا منذ أن وطئت بقدمي هذه المدينة.

تذكرت كيف اقتبس المقال عبارة: *نحن نهتم بأدق التفاصيل.*

دخل من الباب الدوار رجل أكبر سنًّا يرتدي سروالَ جينز وقميصًا عاديًّا، وشعره الأبيض معقود على شكل ذيل حصان قصير، في مفارقة صارخة مع الأبهة المحيطة به. عندما مر الرجل، شممت نفحة مما يشبه دخان الغليون فذكرتني بالكوخ. كدت أتبعه لكنني بقيت حيث أنا وانتظرت. عندما جلست رهن الانتظار، أدركت أنني لم أكن متأكدة مما أظن أو أتأمل أن يحدث. لقد كنت أبحث عن امرأة ظهرت على شاشات التلفزيون تتوسل عودتي، لكنها كانت المرأة ذاتها التي توقفت عن البحث عني، ولم أكن متأكدة أيهما سأجد، أو أنها تريدني من الأساس.

كان أملي الحقيقي الوحيد، بعد ما عرفته عن فيشر، أن أملك الفرصة في اختيار ما إن أردتها أنا أم لا.

***

راقبت البهو لقرابة ثلاث ساعات، فبدأت معدتي تقرقر. كانت بحوزتي شطيرة أخيرة في حقيبة ظهري لكنني لم أرد لفت انتباه موظفة الاستقبال.

كنت على وشك الاستسلام عندما فتحت أبواب المصعد مجددًا وخرجت منه امرأتان. كانت إحداهما شابة لها شعر أشقر بلاتيني مقصوص بعناية ليصل إلى كتفها، أما الأخرى فقد كانت تقف على الجهة المقابلة لي، لكنني استطعت رؤية ملابسها الأنيقة البسيطة باللونين الأبيض والأسود. كان شعرها مرفوعًا وانسابت منه بضع خصل سوداء مموجة، وفاح من عطرها رائحة العسل والعنبر، قادمًا تجاهي.

همس لي *تعالي إليَّ*.

قمت وسرت خلفهما عبر البهو وأنا أتجاهل نظرات موظفة الاستقبال. وعند الباب الدوار الأمامي، التفتت المرأة ذات الشعر الأسود المموج إلى الفتاة الشقراء.

قالت لها بنبرة لا تحمل سوى رد واحد: هل تظنين أنكِ على قدر المسؤولية؟

- بالتأكيد يا سيدة وينجت. وأنا ممتنة جدًّا لثقتكِ بي.

وضعت فيكتوريا يدها على الباب الدوار ثم قالت: جيد. أنا أتطلع لرؤية ما ستقومين به، ثم دخلت إلى الباب الدوار وتركت الفتاة الشقراء مع ما تبقى من عطرها. أسرعت خلف فيكتوريا وأنا أدفع الباب الثابت على اليمين ببلاهة.

ناديت عليها: من فضلكِ.

استدارت فيكتوريا وحدقت إليَّ من رأسي إلى أخمص قدمي ثم قالت لي بتشديد الميم: نعم؟ أحاطني عطرها فأصبح من الصعب عليَّ التركيز.

قلت لها وأنا أدفع الكلمات من حلقي دفعًا: اسمي إيميلين. وأنا أظن أنكِ ربما تكونين أمي.

سمعت شهقتها الحادة. أدارت فيكتوريا رأسها، لكنني لم أستطع أن أعرف أكان ذلك من جراء الغضب أو خيبة الأمل. قالت فيكتوريا: إن ابنتي اسمها، *كان اسمها*، فيوليت[1]. إن أردتِ أن تحاولي خداعي، يتوجب عليكِ جمع الحقائق أولًا.

يوم ميلادكِ أول أيام الربيع يا إيميلين، حين يفوح عبق زهرة البنفسج.

حدثت نفسي، *آه يا أبي. ماذا فعلت؟*

ولت فيكتوريا ظهرها لي وعرفت أنها على وشك المغادرة وأنني لن أحصل على الإجابات أبدًا إن هي فعلت، ولن أكون النصف الآخر لأحد مجددًا.

قلت دونما تفكير: كان أبي عالمًا. وكان يكره قدوم الشتاء ويعشق الروائح. واعتاد أن يقص عليَّ قصص رجل اسمه جاك صائد العبير.

توقفت فيكتوريا وعينها تعود صوبي. كان النظر إليها كالتحديق إلى إحدى تلك المرايا المسحورة ورؤية نسخة أكثر جمالًا وأكبر سنًّا وأكثر اعتدادًا بنفسها مني بكثير. لاحظتها وهي تجري تقييمًا مشابهًا وتعبير وجهها يتحول من الضيق إلى الارتباك.

- قلتِ لي ما اسمكِ؟

- إيميلين.

---

(1) فيوليت، بالإنجليزية Violet، تعني زهرة البنفسج.

بدا على وجهها علامات الإدراك ثم قالت وهي تضحك ضحكة قصيرة خالية من المرح: بالطبع. كان هذا اسم أمه.

تطلعت فيكتوريا خلفي ثم سألتني: أين أبوكِ؟ أين جون؟

أدرت رأسي، غير راغبة في نطق الكلمة. رأيت على وجهها لوهلة تعبيرًا غريبًا وخاصًّا ثم اختفى.

قالت لي بهدوء: أنتِ هنا. أنتِ معي.

وقفنا هناك، يواجه أحدنا الآخر والناس يمرون حولنا على الرصيف. لم تبدُ فيكتوريا قادرة على تحريك أي من أطرافها، ما عدا عينها التي واصلت التحديق إليَّ أكثر فأكثر.

دفعها رجل ما، فأفاقت من غفلتها، وأخرجت هاتفها ثم طلبت رقمًا ما وقالت: ألغِ مواعيدي كلها حتى نهاية اليوم. نعم، أعني ذلك.

وضعت فيكتوريا الهاتف جانبًا ثم سألتني: ما رأيكِ بغداء؟ بدت فيكتوريا كعادتها مجددًا، فيكتوريا وينجت الرقيقة الواثقة. استنشقت فيكتوريا الهواء، على نحو غير ملحوظ تقريبًا، ثم نظرت إلى حقيبة ظهري وقالت بعد أن ابتسمت: أعدكِ أنه سيكون أفضل من زبدة الفول السوداني.

***

كانت سيارة فيكتوريا منخفضة وفضية اللون، تندس من دون عناء بين الزحام. كانت يدها الرشيقة تمسك المقود بإحكام، وبدا عطرها جزءًا أصيلًا منها، كما لو كان ينبعث من كل خصلة من خصلات شعرها المموج. لم أستطع التوقف عن التحديق إليها، وتساءلت كيف لامرأة ساحرة مثلها أن تكون أمًّا، ناهيك بأن تكون أمي أنا؟ لم تكن الأمهات التي عهدت مشاهدتهن على التلفزيون أو حتى أجمل الأمهات التي رأيتهن في الخليج مثلها على الإطلاق. لم يتعلق الأمر ببشرتها أو شعرها أو عينيها فحسب، فقد كنت أحمل تلك الصفات مثلها، لكن الأمر يخص النحو الذي طوعت به تلك الصفات. فلو كنت أنا يومًا بمنزلة ورقة عبير، فستمثل هي رائحة احتراقها.

أوقفت فيكتوريا محرك السيارة أمام مبنى حجري، تكسو ممره مظلة طويلة. سار نحوي رجل يرتدي سترة خضراء، وفتح لي الباب ثم فتحه

لفيكتوريا. دهشت عندما ناولته فيكتوريا المفاتيح. لم يبدُ عليها أنها تعرفه، لكنها لم تتوجس عندما قاد سيارتها بعيدًا، وتساءلت إن كنا سنستعيدها مجددًا.

قالت لي فيكتوريا وهي ترشدني عبر الباب: هذا المكان هادئ، والطعام فيه معقول. حيتها المرأة الواقفة على الباب باسمها ثم نظرت بريبة إلى ملابسي. قالت لها فيكتوريا شيئًا بنبرة منخفضة، وبعد مشاورة هامسة استمرت لقليل من الوقت، أرشدتنا المرأة إلى طاولة معزولة تطل على الحديقة، وناولت كلًّا منا قائمة طعام ثقيلة في حجم كتاب. حضر نادل إلى طاولتنا على الفور، ووضع أمامنا كأسين من الماء المثلج، الذي تلمع في وسطه أنصاف دوائر من الليمون كأشعة الشمس. رفعت رأسي على وشك شكره لكنه كان قد ذهب بالفعل.

قالت فيكتوريا وهي تنحني إلى الأمام: لقد ساعدتهم بشأن المشرب. فقد بدا أن مبيعات شراب الرم[1] تتضاعف عند رش رائحة جوز الهند في الهواء فحسب، ثم غمزت بعينها. كنت دائمًا ما أعتبر الغمز أكثر تعبيرات الوجه التي رأيتها غرابة منذ أن رحلت عن الجزيرة. كانت الغمزة من شخص لآخر، بإغلاق إحدى العينين والآخر يشاهده، وكأنها ميثاق تفاهم بين الاثنين. لكنها لم تكن سوى سلاح استعمله ديلان. على عكس غمزة فيكتوريا التي كانت دعوة ترحاب.

حاولت قراءة قائمة الطعام، لكن ذهني كان مشتتًا من الروائح التي فاحت من المطبخ وملأت المكان، كرائحة الزبدة المذابة وشوي اللحم والتوابل الناعمة والحادة التي كانت جميعها أفضل من أي روائح شممتها من جميع المطاعم التي مررت بها خلال إقامتي في المدينة. كان لعابي يسيل، وكان أنفي يقظًا جدًّا لدرجة أنني لم أستطع سوى تصفح بعض العناصر الأولى فقط.

سمك السمور المدهون بتوابل الميسو.

لحم البط المجفف المقدم مع بيوريه قرع العسل المهروس.

---

(1) شراب كحولي.

شرائح لحم الواجيو على الطريقة النيويوركية.

لم أملك أدنى فكرة عن هذه الأشياء، ما عدا البطة، التي لم أستطع سوى الشعور بالأسف حيالها، فقد كان تجفيف لحم ذلك الطائر من فصيلة الطيور المائية بالذات ميتة نكراء.

عاد النادل مرة أخرى فسألتني فيكتوريا: ما رأيكِ أن أطلب لكلينا؟ أومأت برأسي بامتنان. سألتني فيكتوريا: هل هناك أشياء معينة لا تأكلينها؟ هل تتحسسين من طعام معين؟

أدرت رأسي نافية. لم يطرح عليَّ أحد هذا السؤال من قبل، ففي الجزيرة أكلت ما أمكنني جمعه، وفي الخليج أكلت ما وضع على المائدة. أما الآن، فقد آكل أي شيء ما عدا تلك الجرة الموجودة في حقيبة ظهري.

قالت فيكتوريا: سنبدأ بحساء المحار. وقد نطلب المزيد لاحقًا. أومأ النادل برأسه احترامًا ثم اختفى مجددًا. قالت لي فيكتوريا: إنهم يعدون الحساء من المحار الطازج. إن طعمه لا مثيل له.

أحضرت لنا شابة عقدت شعرها في ضفيرة بارعة سلة من الخبز الفرنسي الطازج الذي خرج لتوه من الفرن. شاهدت فيكتوريا وهي تدهن شريحة منه بالزبدة التي ذابت وهي تدهنها فانبعث منها رائحة زهرية ضعيفة جدًا.

قالت لي فيكتوريا مناولة: تفضلي. أصدرت قشرة الخبز التي تفتت تحت أسناني صوت قرمشة رقيقًا وشعرت بطراوة الزبدة على لساني. كان المذاق يفوق عذوبة الرائحة، وشعرت بعد قرابة أسبوعين من النوم على سرير جاف، محاطة بأناس غرباء، ومواجهة الفشل، بأنني أود أن أتوسد راحتي هذا الخبز إلى الأبد.

رأتني فيكتوريا وأنا أنظر إليها وهي ترفع كأس الماء إلى أنفها ثم تأخذ نفسًا تلقائيًا سريعًا قبل الشرب فابتسمت باقتضاب.

قالت لي: أنا أحب التأكد دومًا. فالليمون الطازج يكون مختلفًا أليس كذلك؟ لكنه عندما ينقع في الماء لفترة طويلة، تشبه الرائحة رائحة قبو أو شيء من هذا القبيل.

لم أشرب الماء بقطع الليمون قط، ولم أدخل أي قبو من قبل كذلك، لكنني فهمت ما تقصد، بأن تدفعك نفحة واحدة من رائحة ما إلى النفور، لكنني كنت أظن أنني أنا وأبي فقط من كنا نحس بذلك.

قلت لها بارتياح وحماس في الوقت نفسه: نعم.

انحنت فيكتوريا إلى الأمام باهتمام شديد ثم سألتني: إلى أين أخذكِ؟

- إلى جزيرة ما.

تذكرت الأرخبيل وقطع اليابسة مترامية الأطراف كمتاهة يصعب الخروج منها.

- كيف كانت رائحتها؟

كنت أتوقع العديد من الأسئلة عدا هذا السؤال، لكنني أيقنت أنه السؤال الوحيد المهم بمجرد أن قالته، فهو الوحيد الذي سيكشف لأحدهم كيف كان الوضع بمكان ما، أو كيف قضى أحدهم ماضيه حقًّا.

- كانت رائحتها تفوح بالأرز والتنوب والصنوبر، ودخان احتراق شجر التفاح، وماء البحر. وتلك الرائحة المعدنية التي تسبق هبوب العاصفة.

ثم أضفت وأنا أكسب مزيدًا من الثقة والحماس: وتوت السلمون والتوت البري، ورائحة التنوب العالقة في بنان الأصابع، والطين المبتل - آه، وفطر الغوشنة. توقفت وأنا أشعر بالحرج من ثرثرتي.

همست لي فيكتوريا: لقد ورثت جيناتي حقًّا.

- كانت هناك أيضًا رائحة البنفسج. لقد كان أبي دائمًا يقول إنها رائحة يوم ميلادي.

قطبت فيكتوريا حاجبيها: كان اسمكِ فيوليت، لكنكِ ولدتِ في الثاني والعشرين من شهر نوفمبر.

- ماذا؟

لم أستوعب ما قالته، فقد وافق يوم ميلادي أول أيام الربيع، حين يفوح عبق زهرة *البنفسج اليانعة في الهواء*، كما اعتاد أبي أن يقول. وكانت هذه هويتي.

قالت فيكتوريا بأسلوب جاف: أنا أتذكر، فقد كانت الثلوج تتساقط.

جلست مبهوتة في صمت، فأنا لا أعرف تلك الفتاة التي تتحدث عنها، فيوليت تلك، التي ولدت عند تساقط الثلوج، لكن حكايتها كانت أكثر دقة، ومدعمة بالحقائق، وبالتاريخ الذي كان دائمًا مبهمًا في قصة أبي، العالم والحكَّاء.

سألتني فيكتوريا بعد برهة: من عاش هناك أيضًا؟

- لا أحد.

- لا بد أن هذا كان فظيعًا بالنسبة لكِ.

حضر الحساء، في زبديات دائرية فاخرة مملوءة باللون الأبيض القشدي، ومزينة بأصداف المحار الرمادية المنثورة على سطح الزبدية، والمفتوحة كأيدٍ تصفق في سكون. أعادتني رائحتها إلى البحيرة، والماء الذي يتفجر من فتحات الرمال وأنا أجري على الشاطئ.

هناك يا أبي. ها هم. أمسك بهم.

ترى أين الحقيقة في تلك الحياة التي عشتها؟

سألتني فيكتوريا وهي تنشلني من حبل ذكرياتي إلى حديثنا مجددًا: أين تقيمين؟

نفضت الذكريات عن رأسي ثم أخبرتها بشأن نزل الشباب بتفصيل دقيق فرفعت حاجبيها أكثر.

- حسنًا، لن يكون هذا مناسبًا أبدًا. ستعودين معي إلى المنزل. لقد احتفظت دائمًا بغرفة إضافية، تحسبًا.

استنشقت العسل في عطرها وشعرت به يلفني.

وحدثت نفسي، *لقد احتفظت بغرفة من أجلي.*

المتجر

كان عمر بناية فيكتوريا يقارب مئة عام تقريبًا. تكونت البناية من أربعة طوابق صنعت من الحجر القشدي الأبيض، واستندت جدرانها إلى أعمدة منحوتة على نحو بالغ التعقيد، ولها منحنيات دقيقة وزوايا تحت كل نافذة. بدت بنايتها مثل قلعة انشقت عنها الأرض وسط المدينة التي تعج بالضجيج.

قالت فيكتوريا وهي تدفع أبواب البناية الثقيلة لتكشف بهوًا عصريًا براقًا: كان هذا متجر تسوق من قبل. كانت الأرضية مصنوعة من البلاط اللامع وفي وسط البهو طاولة زجاجية عليها زهرية طويلة بها زهرة لا رائحة لها. أدركت أنها زهرة صناعية لكنها بدت حقيقية للغاية. كان كل شيء لامعًا، لا تشوبه شائبة، يدفع الجسد والعقل للراحة. بدا التناقض بين الداخل والخارج محيرًا، لكن يبدو أن فيكتوريا لم تجده كذلك. لوحت فيكتوريا إلى شابة تجلس خلف طاولة الاستقبال.

قالت لها الفتاة وهي تتجاهل عمدًا النظر إلى ملابسي: مساء الخير يا سيدة وينجت.

سألتها فيكتوريا: كيف جرى الأمر يا بيكي؟

اتسعت حدقتا الشابة ثم ذهبت كل محاولاتها للحفاظ على المهنية هباءً: سار كل شيء على نحو رائع. نحن على موعد مساء يوم الجمعة. شكرًا جزيلًا لكِ يا سيدة وينجت.

- أنا سعيدة أن الأمر قد آتى ثماره.

قادتني فيكتوريا عبر الردهة إلى المصعد ثم قالت بصوت منخفض وهي تدوس على زر المصعد ثم تبتسم: إن بيكي حارسة عقارنا. لقد كانت تعاني من صعوبة لفت انتباه شاب ما، لذلك منحتها مساعدة عطرية بسيطة.

سرحت بخيالي في فيشر، ترى هل كنت أستطيع الحفاظ عليه إن كنت أستطيع استخدام الروائح، لا شمها فقط؟ وسيطرت على عقلي فكرة أن تلك الفتاة الأخرى ربما قد كانت أكثر ذكاءً، وعرفت ما يتوجب عليها فعله.

فتح المصعد بلا صوت فسارت نحونا رائحة عطر خفي، مزيج بين الصنوبر والحمضيات، كما لو كان يختبئ بين ألواح الجدران.

كانت فيكتوريا تراقبني، ثم سألتني: هل أعجبكِ؟

أومأت برأسي وأنا أشعر به يهم بنزع رداء روائح المدينة عني.

- إنه أحد عطوري، إنه نقلة عطرية بين الحياة العامة والحياة الخاصة، وهو يُشعر الناس كما لو أنهم في كنف منازلهم.

- هل ابتكرتِ هذا العطر؟ عمدًا؟

ابتسمت فيكتوريا وقالت: بالطبع. هذا عملي.

نظرت حولي فوجدت دليلًا لطوابق المتجر كتب على الطراز القديم: *أزياء رجالية، ملابس نسائية، عطور*. أشرت نحو العنصر الأخير.

قلت لها: كم يليق بكِ.

انطفأت النظرة في عينها للحظة ثم ابتسمت وقالت: نحن نعيش في الطابق الأخير. إن متاجر التسوق، تضع قسم العطور دائمًا قرب المدخل، لترحب بالزبائن وتجعلهم يشعرون بأن ما قد يشترونه أرخص ثمنًا مما هو عليه. لكنني أتفق معكِ، فمن الجيد معرفة أن قسم العطور كان في هذا المكان يومًا ما.

لقد قالت نحن.

فُتحت أبواب المصعد بلا صوت، فدلفنا إلى طرقة مفروشة بالسجاد بكثافة. فتحت فيكتوريا أحد الأبواب، فأطل على غرفة سقفها شديد الارتفاع فوق رؤوسنا، وأرضيتها مبلطة بالخشب الداكن اللامع، وجدرانها ناصعة البياض كصفحات السجل البيضاء. كان الحائط البعيد مثل نافذة كبيرة عملاقة، مقسمة من خلال خطوط سوداء مستقيمة، ومغطى بستائر بيضاء شفافة جدًّا، استطعت من خلالها رؤية الأفق الشاسع وراءها.

خلعت فيكتوريا حذاءها قائلة: أنا أحب حماية الأرضية.

بدت فيكتوريا أقصر من دون الكعب العالي، لكنها سارت بثقة تامة حتى وصلت إلى النوافذ وفتحت الستائر فسطع في المكان ضوء شمس الأصيل، وانعكست صورة بنايتنا على مبنى زجاجي مربع، يقع في الجهة المقابلة من الشارع، كالمرآة. بدت الخطوط العتيقة المنحنية لبناية فيكتوريا معقولة على نحو ما، حال تأملها بتروٍّ، من بعيد بهذه الطريقة.

خطوت نحو الداخل فأصدر حذاء التنس الذي أنتعله صريرًا على الأرضية فخلعته بسرعة وأنا أبحث عن مكان أخبئه فيه، فقد بدا انتعاله شائنًا في مثل هذا المكان الجميل.

رأتني فيكتوريا فقالت لي: تصرفي على راحتكِ. سأذهب لتغيير ملابس العمل هذه.

وضعت حذائي في الخزانة قرب حذاء فيكتوريا، ثم تجولت في غرفة المعيشة، وجلست على أريكة جلدية سوداء. كان المكان مختلفًا تمامًا عن نزل الشباب أو الخليج، دون ثرثرة رفقاء الغرفة، أو أصوات قوارب صيد السمك. لم يكن هناك سوى سيل السيارات التي تمر في الخارج وعطر فيكتوريا الذي يحمل رائحة العسل الحانية.

لمحت هاتفًا موضوعًا على الطاولة قرب الأريكة، وشعرت فجأة بالذنب، فأنا لم أتصل بكوليت وهنري منذ أن عرفت الحقيقة بشأن فيشر. كنت قد حدثت نفسي أنني لا أملك المال اللازم للاتصال بهما، لكن الحقيقة هي أنني عندما أصبحت قرب الهاتف كل مرة، لم أستطع سوى تذكر هنري وهو يخبرني عن سفر كوليت إليه حتى أقاصي البلد، وعن رؤيته لها وهي تسير نحوه على الطريق الطيني.

كانت هذه أجمل لحظة في حياتي.

كنت أظن أنني وفيشر سنصبح مثلهما، ولم أستطع الاعتراف بفشلي لهنري وكوليت.

لكنني الآن، كنت أملك شيئًا آخر أفتخر لإخبارهما به. يمكنني الآن مشاركتهما أخبار عثوري على أمي، وأنها امرأة حسناء وناجحة وأنها ضمتني إلى كنفها.

سرت في الطُرقة على أطراف أصابعي، حرصًا على الأرضية.

سألت من خلف الباب المغلق في نهاية الطُرقة: هل يمكنني استخدام الهاتف؟

جاء الرد خافتًا، على الفور: بالطبع.

أجابت كوليت الهاتف بعد الرنة الأولى وقالت: ها أنت ذي. هل أنتِ على ما يرام؟

- لقد عثرت على فيكتوريا، أمي.

قالت كوليت في حيرة: حقًّا، لكن الحنو تدفق مجددًا في كلماتها: كيف سار الأمر؟

أعادني الحب البادي في صوتها إلى الخليج. ورأيتني في غمضة عين أجلس معها في المطبخ، حيث رائحة عجين الخبز ودودج ونفحة خافتة من رائحة الخزامي في حسائها، ففتحت فمي، وأنا أهِم بإطلاعها على سري.

لقد انتهت علاقتي بفيشر. واسمي فيوليت. ولم أعد أعرف ما الحقيقة بعد الآن.

لكنني منعت نفسي. ربما لن أنعم بالعثور على حب حياتي، كما فعلت كوليت، الشابة الشجاعة التي أحبت السفر، لكنني لن أعود إلى المنزل خالية الوفاض بعد، فهناك جولات أخرى أستطيع الانتصار فيها هنا.

- سأقيم مع فيكتوريا لفترة. لكن فيكتوريا تمتلك هاتفًا لذلك سأستطيع الاتصال بك، سأعطيكِ إياه.

- لقد سجلت الرقم على هاتفي المحمول.

ابتسمت وأنا أسمع نبرة صوتها المألوفة التي تتشبث بها بأي تقنية جديدة يسمح هنري بها في الكوخ.

سألتني كوليت: كيف هي إذن؟ فأعادت أفكاري ثانية إلى المدينة.

- إنها جميلة، وذكية. لقد تناولنا الغداء في مطعم فاخر يقدم الحساء والمحار في أصدافه.

- حقًّا، نحن نقدم ذلك عادة لنزلائنا.

قلت لها وأنا أبتسم من نبرة الأنفة الظاهرة في صوتها: أنا أعلم.

- هل عثرتِ على فيشر؟

مرت لحظة من الصمت فسألتها: كيف حال دودج؟

سكتت كوليت قليلًا كما لو كانت تفكر فيما إن كان يجدر بها أن تفلتني من شباكها ثم قالت في نهاية المطاف: أوه، حسنًا. إنه كلب عجوز، لكن لا بأس به. هل تعرفين أنه يشتاق إليكِ؟

ابتلعت ريقي ثم قلت لها: هل لكِ أن تعطيه قبلة نيابة عني؟ سمعت صوت فيكتوريا تذهب إلى المطبخ بالقرب، فقلت لكوليت: يجدر بي الذهاب.

- بهذه السرعة؟

- نعم، لقد حضرنا للتو. سأتصل بكِ مجددًا. أحبكِ.

***

حضرت فيكتوريا إلى الغرفة بمجرد أن أغلقت الهاتف. كانت ترتدي بنطالًا ضيقًا أسود وقميصًا أبيض واسعًا، وشعرها مسدل على كتفيها. تذكرت ديلان وهو يشد خصلات شعري المموجة—*هل هذه نيولكِ يا آنسة بيجي*؟ كنت على استعداد للمراهنة بأن أحدًا لم يجرؤ على فعل ذلك لفيكتوريا.

- لقد بدوت شديدة الارتياح وأنتِ تتحدثين عبر الهاتف.

كانت فيكتوريا تحمل كوبين من الماء، فناولتني واحدًا ثم جلست. أضافت فيكتوريا: لم أكن أنصت إلى حديثكِ، لكنني استطعت تمييز نبرة صوتكِ.

أومأت برأسي ثم قلت: إن كوليت وهنري هما من قاما برعايتي بعد أن...

انتظرت فيكتوريا قليلًا ثم فردت ظهرها وسألتني: كيف كان الحال هناك؟

ذكرتني طريقتها بفيشر، كيف استطاعت أن تقرأ ما يجول بخاطر شخص ما أو كيف تجري الأمور.

لا تفكري به.

أخبرتها عن المنتجع، وعن النزلاء الذي خلفوا روائحهم بعدما غادروا، وعن تحضير فطائر القرفة والحبهان في الصباح، وعن مساعدة هنري في إصلاح النزل. لكنني لم أذكر أي شيء إطلاقًا عن متحف الحيتان أو المدرسة أو فيشر.

- كم الوقت الذي قضيته معهما؟

عددت السنوات في رأسي ثم قلت لها: خمس سنوات، وأدركت أنني قضيت تقريبًا قرابة خمس سنوات.

قالت فيكتوريا بحنان: وقت طويل. ثم قالت وهي تنظر إلى خارج النافذة، فلم أستطع رؤية وجهها: وجون، كيف...؟

- لقد غرق.

كان هذا كل ما استطعت قوله.

قالت فيكتوريا: أوه، ثم سكتت. لفت فيكتوريا سبابتها بإحكام حول خصلة من خصلات شعرها: هل أخبركِ عني على الإطلاق؟

- لا. *لم يخبرني عن أي شيء على الإطلاق.*

سألتني فيكتوريا بعد أن التفتت إليَّ الآن: كيف عثرتِ عليَّ إذن؟

- عن طريق الآلة، أعني العندليب. لقد بحثت عن الاسم عبر الإنترنت ثم وصلت إليكِ.

- حسنًا، يا لسخرية القدر.

أنَّ زجاج النوافذ من طنين السيارات في الخارج فانتبهت إلى عواء أبواق السيارات المعتاد، وصراخ طائر النورس، لكن رائحة فيكتوريا فقط كانت تغطي على المكان.

قالت فيكتوريا بنبرة حالمة استطعت تمييزها: أتعلمين، لقد صنع هذه الآلة من أجلي.

كان ياما كان، يا إيميلين.

- لقد أصر على تسميتها العندليب، رغم أني أخبرته أن اسمها لا يمت بصلة على الإطلاق بأي جهاز له علاقة بالروائح. ومع ذلك، فقد كان الاسم شاعريًا جدًا، كما لو كان مقتبسًا من قصة *روميو وجوليت*، لذلك وافقت على الاسم. لقد كره المستثمرون هذا الاسم، لكننا لم نكترث.

تذكرت القصة التي مزقها أبي من كتاب القصص الخيالية فهممت بإخبارها لكنها واصلت الحديث وهي تحدق إليَّ الآن.

- لقد انهار تقريبًا عندما ظهر أن الآلة لا تعمل. كانت ردة الفعل مروعة، وقد كان حساسًا جدًا من أمور كهذه، أتعلمين؟ لم يستطع الاحتمال، لقد أقدم فحسب... على الرحيل.

فركت عينيها لمرة واحدة، بسرعة ثم أضافت: لقد ظننته حيًا طوال هذا الوقت.

أدارت فيكتوريا رأسها ونظرت إلى الساعة: يجب أن أدعكِ ترتاحين، وتحصلين على قسط من النوم. لقد كان يومكِ حافلًا.

***

كان السرير الواسع الموجود في غرفة فيكتوريا الإضافية مغطى بلحاف أشبه بنعومة الغيمة وبياضها، وبدا أن أحدًا لم ينم به على الإطلاق. شعرت بكثافة السجادة المفروشة في الغرفة، التي يشبه لونها لون الرمال، تحت قدمي. كانت الغرفة أشبه بغرف الفنادق الفاخرة التي رأيتها في المجلات التي نسيها النزلاء في الخليج.

قالت فيكتوريا وهي تشير إلى باب في الجهة المقابلة من الغرفة: حمامكِ هنا إن أردتِ الاغتسال.

لم أرد سوى الاستلقاء من جراء الإرهاق العقلي والجسدي، لكنني نظرت إلى الشراشف ناصعة البياض وقررت أن من الأفضل لكلينا أن أفعل ما اقترحته. لا سيما وأن الاستحمام الذي لم يكن مرهونًا بدفع بضع قطع معدنية، وراء مجرد ستارة تفصلك عن الآخرين، كان رفاهية صعبة التصديق.

وقفت تحت الماء لعشرين دقيقة، وأنا آذن له أن يحررني من أغلال نزل الشباب والمشاتل التي زرتها في الأسبوعين الماضيين. حاولت عدم التفكير

بفيشر أو أين كنتُ، فقد كان شيئًا يفوق احتمالي وجديدًا عليَّ للغاية. وبدلًا من ذلك، فتحت الزجاجات المرصوصة على رف الحمام التي فاح منها عطر إكليل الجبل والليمون ومن ثم تحول بخار الماء حولي إلى أريج زهرة بالغة العذوبة.

في النهاية، جففت جسمي، ثم استلقيت على السرير فغاص جسمي فيه بعمق. لم أستطع النوم رغم التعب الشديد. كانت الشراشف شديدة النظافة، وكان قماشها ناعمًا جدًّا وكان عطرها بالغ العذوبة، لكن عِقد أفكاري انفرط فلم أستطع الاسترخاء. أخيرًا، توجهت إلى حقيبة ظهري وأخرجت قميص فيشر منها. كانت الرائحة قد اختفت تقريبًا، فغلبت عليه رائحة زبدة الفول السوداني أكثر من رائحة فيشر. ومع ذلك، أردت أن أشعر برائحته حولي وإن لم يبقَ منها شيء، وإن لم تعد تنتمي إليَّ بعد الآن. أخذت قميصه معي إلى السرير لكنني عاهدت نفسي ألا أفكر به، وأن أشم رائحة القميص فقط.

كنت على وشك النوم، حين تذكرت كلمات فيكتوريا مجددًا.

لقد ظننته حيًّا طوال هذا الوقت.

وللحظة واحدة فحسب، تساءلت عما ظننتْ أنه قد حدث لي.

***

أيقظتني رائحة القهوة، فقد كانت رائحة القهوة طوال السنوات التي قضيتها مع كوليت وهنري، هي إشراقة صباحي، التي تدفعني للاستيقاظ وبدء يوم جديد، حتى عندما كنت صغيرة جدًّا على شربها.

عندما دخلتُ كانت فيكتوريا تقف في مطبخها قرب الطاولة وتشغل ماكينة تحضير قهوة الإسبرسو[1]. كنت قد رأيت هذه الماكينة في الصور فقط، لكن شذاها كان ساحرًا، قويًّا وثريًّا ومعقدًا كالطين الموجود في الجزيرة. وضعت فيكتوريا إبريقًا صغيرًا تحت الأنبوب المعدني ثم أدارت المقبض. صدر أزيز، وشممت رائحة اللبن وهو يأخذ في السخونة والجود بما لديه.

---

(1) مشروب قهوة إيطالية الصنع مُركزة وغامقة اللون.

حيتني فيكتوريا عبر الضوضاء: صباح الخير أيتها الناعسة. هل احتسيتِ يومًا اللاتيه[1]؟

أدرت رأسي نافية.

ناولتني فيكتوريا الكوب قائلة: تفضلي.

كانت قهوتي ناعمة ودافئة، تماثل رفاهية السرير الذي نمت به. فكرت في قهوة كوليت وشعور النشاط الذي أثارته فيَّ، وكيف كان هنري يحمل إبريقه الحراري طوال اليوم، وهو يشرب قهوته حتى بعد أن تصبح باردة. أخذت رشفة أخرى واستنشقت رائحة حبوب القهوة المطحونة حديثًا ورائحة اللبن ورشة بسيطة من القرفة. سبحتْ في الهواء حول تلك الروائح، رائحة أخرى، أظنها رائحة *التنوب*. كان من المؤكد أن تلك الرائحة ما تزال عالقة بالكنزة التي أخرجتها من حقيبتي هذا الصباح، فشعرت بالاطمئنان لشعور الألفة التي حملته.

سألتني فيكتوريا بعد أن جلست قبالتي: ما رأيكِ بالقدوم معي إلى العمل اليوم؟ يساورني شعور بأنكِ قد تستمتعين بذلك.

نظرتُ إلى ملابسي.

قالت لي ضاحكة: يمكننا العثور على ملابس أخرى مناسبة أكثر من هذه. لننظر إن كان لدي أي شيء على مقاسكِ. أحضري قهوتكِ.

عندما فتحت فيكتوريا باب غرفة نومها، وقفت مشدوهة. زُينت الجدران، من الأرض إلى السقف، في آخر الغرفة، حول أبواب الخزانة المزدوجة، رفوف عليها مربعات بها زجاجات صغيرة، بأشكال مختلفة، مصنوعة من الزجاج الأزرق، والأخضر، والأصفر، والشفاف.

- هذه مجموعة عطوري. بدأت صنعها عندما كنت في مثل عمركِ.

سرت نحو الرفوف، ولمست طرف إحدى الزجاجات متعددة الحواف، فرأيت سائلًا بداخلها، لا أوراق عبير.

همستُ قائلة: إنها جميلة.

---

(1) اللاتيه، ويسمى أيضًا كافِّيه لاتيه (Caffè Latte) مشروب مكون من الإسبريسو والحليب مع الرغوة الكثيفة.

- أنا أترك الستائر مغلقة عادة لحماية العطور، لكنني أحب الاستيقاظ على انعكاس ضوء الشمس عليها. إنه كعرض باهر في الصباح.

أضافت فيكتوريا وهي تفتح الخزانة: الآن، لنعثر لكِ على شيء أكثر أناقة من الكنزة.

جلست على السرير بينما هي تخرج شيئًا تلو الآخر وتمر بجدار العطور في كل مرة. أحسست به كما لو كان يراقبها تقريبًا ويحيط بها، ويصبو إليها.

وقلت لنفسي *لا يوجد هنا أدراج مغلقة. ولا أسرار.*

اتضح أن لي وفيكتوريا المقاس نفسه تقريبًا. أعطتني فيكتوريا سروالَ جينز أزرق داكنًا أنيقًا، أضيق من أي سروال ارتديته من قبل. تعجبت عندما نظرت في المرآة ولاحظت رشاقة ساقي، والاستدارة الممشوقة لأردافي. ناولتني فيكتوريا سترة بيضاء فضفاضة وناعمة كنعومة فراخ الدجاج.

- لن يكون هذا يوم عمل رسمي، ولكننا سنطلق عليه يوم اصطحاب ابنتي إلى العمل.

***

كانت فيكتوريا تقود سيارتها بوضع يد واحدة على المقود والإشارة بالأخرى، وبدا أن صوتها يسابق صوت المحرك. كان شعرها مفرودًا اليوم ورائحتها أرق، يغلب عليها الماء أكثر من العسل.

قالت لي فيكتوريا بابتسامة مقتضبة: ربما قد لاحظتِ أن رائحة بعض الأشياء في المدينة ليست لطيفة. لذلك، يقتضي عملي أن أجعل رائحة الأشياء أفضل، فحين يحدث ذلك، يدفع الناس المزيد من المال. دون معرفة السبب بالطبع. يظن الناس أنهم يشترون قميصًا لأنه يليق بهم أو أريكة ما لأنها تبدو مريحة لكننا أكثر دراية منهم، فنحن نجعلهم يرغبون في هذه الأشياء.

أخرجت فيكتوريا كوبها الحراري من حامل الأكواب ثم ارتشفت رشفة سريعة وهي تغير حارتها المرورية.

- بصراحة، إننا نفعل ما تفعله الطبيعة بالأساس، فالزهور تنشر أريجها لسبب ما، وهو أن تجذب النحل للقاحها. كما أن الحيوانات تستخدم

الروائح في التواصل طوال الوقت. إن مكمن الاختلاف هو أنها تنتبه إلى هذه الرسائل على عكس البشر.

وضعت فيكتوريا الكوب مجددًا ثم نظرت إليَّ بإمعان وقالت: أنا أظن أنكِ ربما تكونين مختلفة.

لقد كنت مختلفة فعلًا. كنت *راصدة الزَخَمة، الآنسة* بيجي.

- إننا نتحدث بلغة لا يعرف الناس بوجودها أصلًا. أنا أذهب مثلًا إلى فندق ما وألاحظ ما الروائح التي تجعل شخصًا ما يشعر بالألفة أو النفور، وما الروائح التي تشعره بأنه أكثر شبابًا وثقة وإثارة. هذا يعتمد على ما يريده الفندق.

كانت فيكتوريا تتحدث بشغف وعينها تلمع.

- يجب عليكِ أن تنتقي العطر المناسب للمكان وإن لم تفعلي ذلك فلن يفلح الأمر. إذا عطرت مثلًا قسم الأزياء الرجالية بعطر الزهور فسيصبح ذلك وبالًا عليكِ. هناك متاجر كبيرة في مدينة نيويورك تخصص عطرًا مميزًا لكل قسم من أقسامها. وهذا يوضح لكِ كم نأخذ عملنا على محمل الجد.

ركنا السيارة في مرأب سيارات تحت الأرض ثم ركبنا المصعد لنصعد إلى المتجر. عندما فتح الباب، رحب بي عطر يشبه لون الشروق الوردي. نظرت حولي فرأيت كراسي بيضاء كبياض الثلج، وأرائك كبيرة ككبر الأسرة وزهريات زجاجية وإطارات صور فضية. كانت هناك سيدات واثقات، أنيقات المظهر، يتجولن في المكان، وهن يتفحصن شمعة هنا ووسادة هناك. أدركت بمجرد أن دخلت أنني لا أنتمي إلى مكان هكذا، حتى إن كنت أرتدي ملابس فيكتوريا.

قالت لي فيكتوريا: عليَّ التحدث مع المدير. سأحتاج إلى التحقق من سجلات المبيعات وأرى كيف يسير العمل. يمكنكِ التجول واكتشاف المكان عندما أذهب. أتوق لسماع رأيكِ.

طفت في المكان وأنا أحاول أن أستجمع قواي. ذهبت حيث توجد شمسية معدنية ذكرتني بدلو الصيد الخاص بهنري، لكن سعرها كان يفوق ثمن الإقامة لأسبوع في نزل الشباب. كان هناك أيضًا حائط لمرايا لها براويز، بأشكال وأحجام مختلفة، لكن انعكاس صورتي التي ترتدي ملابس فيكتوريا

لم تبدُ معقولة في أي منها. أدرت ظهري لها، فوقع نظري على طاولة معروضة في آخر المتجر. كانت هذه الطاولة تشبه الطاولة التي كانت لدينا في الكوخ تمامًا، كانت مصنوعة يدويًّا، بانتظار اللمسة الأخيرة، وكانت أرجلها ثقيلة ومستقيمة، وكان سطحها مصنوعًا من لوح خشبي متين. سحبتني الطاولة إليها كتيار البحر، فأغمضت عيني ثم تحسست سطحها الخشن بأصابعي. استنشقت رائحتها أملًا في العثور على رائحة خفية لاحتراق الحطب أو خميرة الخبز. لكنها كانت عارية عن الروائح، ونظيفة تمامًا كالشراشف التي كانت على سريري الليلة الماضية.

- ألم تعجبكِ الرائحة؟

فتحت عيني فوجدت فيكتوريا تقف على الجهة الأخرى من الطاولة وعلى وجهها تعبير فضولي.

- إنها جيدة.

- لا بأس، أنا أود سماع رأيكِ.

- الأمر وما فيه أن... (توقفت ثم قلت) إن رائحتها لا تشبه رائحة المنزل.

بدت كلماتي ساذجة حتى إليَّ.

قالت فيكتوريا: حقًّا، ثم أومأت برأسها مضيفة: وما الحل برأيكِ؟

لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل، فعبير المنزل ينبع بطيب خاطره بسبب ما يوجد فيه، لا بطيب *خاطرك* أنت.

قلت أخيرًا: إن المنزل ليس مكانًا مثاليًّا.

أمالت فيكتوريا رأسها، ثم قالت بابتسامة متأنية مسرورة: أوه، لكنه قد يصبح كذلك. في الواقع، هذا مناط عملنا. سارت فيكتوريا حول الطاولة ثم وضعت يدها على مرفقي، وقالت بصوت خفيض: إن المبيعات جيدة، لكنني أود أن ترتفع أكثر. إننا نمتلك كل روائح العالم في متناول أيدينا، ترى ماذا كنتِ لتفعلي؟

أدركت أن هذا اختبار، لكنه اختبار أردت اجتيازه بشدة، ففيكتوريا لم تعتقد أنني غريبة الأطوار بسبب حاسة شمي، بل قد يجعلني ذلك أبدو مميزة

في نظرها، بأن أثبت أنني أعرف ما أفعله. وربما يدفعها ذلك لأن تحبني وأن تريدني قربها.

فحصت الغرفة، وأنفي منتبه. وجدت الزبائن في المتجر بأكمله، يمسكون بسلعة تلو الأخرى بلا اكتراث. تذكرت صوت فيشر وهو يقول لي: *تتوارى وجوه الناس خلف الأقنعة، لكن أيديهم تفضحهم.*

قلت لنفسي، لا تفكري بفيشر.

لكنني نظرت إلى أيدي الناس على أي حال. شاهدت أصابع امرأة ما تتحس نعومة أحد الأغطية، بينما مررت امرأة أخرى أصابعها بين الخطوط المنحنية لشمعدان فضي اللون. كن يشعرن بالفضول لا أكثر.

ومن ثم رأيت العطر الوردي الشفاف يسبح في الهواء ثم يتساقط ليضم امرأة بين راحتيه كالإزار بحنو وبلا تكلف.

قلت لفيكتوريا: إنكِ تجعلين الأمر في غاية السهولة.

أمالت فيكتوريا رأسها مأخوذة بحديثي، ثم قالت: ماذا كنتِ لتفعلي بدلًا من ذلك؟

فكرت في الجزيرة، وكيف اعتدت أن أدس رأسي بين الحشائش التي تفترش الأرض بين الأشجار لأصبح جزءًا من أريجها، كما فكرت في فيشر وكيف كانت أزكى روائحه تتوارى في بقعة دافئة خلف أذنه.

قلت لفيكتوريا: اجعليه يتوارى عن الأنظار. أعني العطر.

- أين؟

جلت بنظري في المكان ثم قلت لها: في الوسائد، وفي الأغطية، وفي الشموع كذلك. يجب على الناس أن تنحني قليلًا فحسب لتعثر عليه.

قالت فيكتوريا بعينين لامعتين: وبذلك نمنحهم إثارة البحث ليعودوا بالغنيمة إلى المنزل. يا لروعة ابنتي. ومن ثم، وضعت فيكتوريا يدها على كتفي فشعرت بحنان لمستها.

التدريب

أمضيت بقية اليوم وأنا أشاهد أمي تتحرك كالنسيم الذي يداعب العشب الباسق، والحياة تدب في كل شيء تمر في طريقه ويصبح مثارًا للإعجاب. كانت فيكتوريا مختلفة عني بأقصى طريقة يمكن تصورها، لكن عندما دخلنا إلى شركة أنفاس، نظرت إليَّ موظفة الاستقبال في وجوم.

قالت لها فيكتوريا: مريندا، هذه ابنتي، فيو... إيميلين.

أومأت مريندا برأسها ثم قالت: إنها شديدة الشبه بكِ يا سيدة وينجت.

تساءلت كيف لم تلاحظ الموظفة ذلك الشبه قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، وتعجبت بالفارق الذي قد يصنعه مرور يوم واحد وارتداء بعض الملابس.

قالت لي فيكتوريا: ينبغي لنا الانطلاق، ثم سارت بي عبر المبنى وهي تريني غرفًا نظيفة لامعة بها أشخاص يرتدون معاطف بيضاء رسمية وزجاجات صغيرة مرصوصة على أرفف لا تنتهي. عندما اقتربت أكثر، استطعت سماع العطور تهمس وتموج بالداخل. تمالكت نفسي لئلا أفتح الزجاجات وأكشف القصص التي تحتويها.

قالت لي فيكتوريا في صوت خفيض: هل تسمعينها؟

- نعم.

تساءلت إن كان الأشخاص الذين يعملون بجد حولنا يستطيعون سماعها كذلك، ربما يكون هذا المبنى بأكمله مليئًا بأشخاص مثلي، لكنني أعدت التفكير ورجحت العكس، فقد همست لي فيكتوريا بسؤالها على أي حال. أصبحت أرتعش سرورًا من جراء هذه الفكرة ومن الحميمية التي نسجتها حول كلينا.

***

عندما عدنا إلى شقة فيكتوريا في ذلك المساء، أعددنا طبق سلطة كبيرًا للعشاء.

قالت لي فيكتوريا وهي تقطع الطماطم، وأصابعها تقترب من حد السكين: من الصعب الحافظ على رشاقتي، فأنا أضطر كثيرًا إلى الأكل خارج المنزل. لكن ثقي بي، يجب عليكِ الحفاظ على رشاقتكِ، فلا بد ألا تترك المرأة أي شيء للظروف في هذا العالم.

نظرت إلى أمي، وتأملت بشرتها الناعمة وقوتها وثقتها الفطرية.

تمنيت أن لو أخبرني أحد بذلك قبل خسارتي لفيشر، وفكرت في الرائحة التي شممتها في المصعد، وفي جميع العطور التي شممتها في شركة أنفاس، وبالطريقة التي تغير مزاجي على أساسها وتغيرت معه أفكاري. ربما هذا ما يحدث عندما تترك شيئًا للظروف.

جلسنا حول المائدة، وأخذت فيكتوريا تمضغ برقة وهي تراقبني.

قالت لي: هل استمتعتِ بوقتكِ اليوم؟

أجبتها بلهفة: نعم. اتسعت وجنتاها في سرور.

قالت لي: ما رأيكِ بأن تتدربي لتصبحي أحد مبتكري العطور؟

بغتني سؤالها، فقد كانت فيكتوريا تمثل لي مصدرًا للحصول على المعلومات قبل أن أقابلها، بل إنني ظننت بعد أن تعرفت على شخصيتها الواثقة الراقية، أنها سرعان ما ستمل من وجودي وسترسلني مجددًا إلى كوليت وهنري. إلا أن ذلك التصور لم يكن يشعرني بالحزن، حتى مساء أمس، فقد أحببت كوليت وهنري، كما أن فكرة مساعدتهما على إدارة المنتجع لم تكن بالغة السوء بالنسبة لي على الإطلاق.

لكن بعد اليوم، وبعد كل ما رأيته، باتت الأمور وبت أنا أيضًا مختلفة. أصبح عرض فيكتوريا يلمع في عيني كالضوء على صفحة الماء. ربما أستطيع هنا تحقيق أمرٍ ما، وأن أصبح ذات شأن، وقد يسمع فيشر بأمري حينها.

أضافت فيكتوريا: يمكنكِ المكوث هنا. والعيش معي.

قد تصبح لدي أم.

قلت لفيكتوريا: أنا أود ذلك.

ابتسمت فيكتوريا وقالت: ممتاز. لكن ما يزال عليكِ الحصول على شهادتكِ الثانوية.

حركت الشوكة بيدي على الطبق، فقد كان هذا آخر ما أردت التفكير به.

قالت فيكتوريا: أنا لا أمزح. لا يجب فعل ذلك على الفور، لكن هذا الأمر غير قابل للنقاش. أنا لن أسمح بأن تضع ابنتي نفسها في موطن ضعف.

كانت صرامتها رائعة. *ابنتي*. أحسست بكلماتها تأسرني بعذوبة واستحقاق، فقد أرادتني، حتى ولو لم يردني فيشر.

- حسنًا، هل نحن على وفاق؟

تخيلت أن أمضي أيامي وأنا أسبح في بحر من الروائح وألا أعبأ بإخفاء حقيقتي. وأن أكون على سجيتي. وربما سأصبح مثلها.

- نعم.

قالت فيكتوريا وهي تأخذ رشفة من كأس نبيذها: مدهش. أنا أعرف الشخص المناسب لتعليمكِ. إن لديها مستقبلًا واعدًا، وستكون الشخص المثالي لهذه المهمة.

***

لاحقًا، ذلك المساء، اتصلت بالخليج وأخبرت كوليت عن أمر بقائي. انسابت الأحداث من لساني بينما كوليت تنصت إليَّ في صمت، وعندما انتهيت أخبرتني أنها سعيدة من أجلي، لكنني رأيت كلماتي اللامعة وشديدة السرعة المتسلحة بالحماس تنعكس في الحيرة المتوارية في نبرة صوتها. تخيلت كما لو كانت كلماتي تذرع مطبخها وهي تطرق على الآنية والقدور.

قلت لكوليت: سأتصل بكِ مجددًا قريبًا. ثم أغلقت الهاتف بأسرع ما أستطيع.

***

في صباح اليوم التالي، كانت معلمتي تنتظرني في غرفة صغيرة بيضاء في الطابق الثالث لشركة أنفاس. كانت معلمتي هي المرأة التي رأيتها تتحدث مع فيكتوريا أول مرة في البهو. تعرفت على شكلها من شعرها البلاتيني الأشقر. كانت ترتدي ملابس مكونة من تنورة وقميص أسودين، ولفت على عنقها وشاحًا رماديًّا في ربطة معقدة، يميل للزرقة لتخفيف حدة ما تلبسه. لم تضع أي عطر، لكنني ميزت نفحة بسيطة من رائحة الزنجبيل على الرغم من ذلك.

قالت فيكتوريا: إن كلوديا معجزة. وهي من ستتولى أمركِ.

ابتسمت كلوديا ثم قالت: بالطبع يا سيدة وينجت. لي الشرف أن أعلم ابنتكِ.

نظرت فيكتوريا إلى كلوديا على نحو يوحي بالتأكيد ثم التفتت إليَّ قائلة: سأراك في نهاية اليوم يا إيميلين. يمكننا تناول العشاء معًا.

أُغلق الباب خلف فيكتوريا، فاختفت الابتسامة التي كانت تشع على وجه كلوديا. مشت كلوديا حتى الطاولة وكعبها العالي يطقطق على الأرض ثم أشارت إليَّ أن أجلس قبالتها. حين فعلتُ، انحنت كلوديا إلى الأمام، وكانت عيناها باردتين كبرودة الوشاح الأزرق الذي ترتديه.

قالت كلوديا وهي تشدد على كل كلمة: لقد تدربت في باريس ثلاثة أعوام. وبذلت قصارى جهدي لأحصل على وظيفة في هذه الشركة. وكُلفت بالعمل على أول مشروع مهم لي قبل يومين، لقد كنت سأبتكر عطورًا مخصصة *لسبعة* منازل مختلفة *لممثلة شهيرة*.

توقفت كلوديا في ترقب.

قلت لها: هذا رائع. فقد تعلمت في المدرسة أن هذا كل ما يمكن قوله لفتيات مثلها.

- لكن عليَّ الآن تدريبكِ. ابنة المديرة، التي لم تدخل في الغالب معملًا في حياتها.

لوهلة رأيتها تبرم شفتها، ثم أضافت: إن فيكتوريا تقول إنكِ ترعرعتِ في إحدى تلك الجزر في أقصى الشمال، أليس كذلك؟

أومأت برأسي فرفعت يدها في دهشة: حسنًا إذن، يجدر بنا الانطلاق، فأمامنا طريق طويل.

مدت كلوديا يدها تحت الطاولة وأخرجت صندوقًا.

- إنكِ على الأغلب تظنين أن امتلاككِ حاسة شم قوية هو كل ما تحتاجين إليه للنجاح في هذا المجال. لكن الحقيقة هي أن عقلية مبتكر العطور المحترف هي قاعدة بيانات ضخمة. يجب عليكِ حرفيًا امتلاك القدرة على اختزان مئات من الروائح في ذاكرتكِ. هل تظنين أنكِ تستطيعين فعل ذلك؟

أومأت برأسي، فقد كانت الروائح هي كل ما أستطيع التشبث به عندما تتخلى جميع الأشياء عني.

- لنرَ إن كان كلامكِ صحيحًا. فتحت كلوديا الصندوق ثم ناولتني زجاجة منه، فأزلت غطاءها ثم استنشقت عبيرها.

كان ياما كان، يا إيميلين. انطلق جاك إلى جزيرة تكسوها الأشجار وكانت أزهارها تلمع كالمصابيح الصغيرة...

- جوزة الطيب.

انتزعت كلوديا الزجاجة من يدي ثم أحكمت غطاءها ثانية. وبينما كانت القصة ما تزال عالقة بذهني، فاح عبير جديد.

قالت كلوديا وهي تضع الزجاجة على الطاولة: ساق السوسن. هل سرعتي أكبر من استيعابكِ؟

قلت لها وأنا أكذب: لا.

- جيد.

طلعُ الزيزفون. *فول التونكا*. بخور *الجاوي*. هبت النفحات العطرية كقذائف زجاجية تطلق في اتجاهي عبر الطاولة في تتابع.

قالت كلوديا: إن مكمن الأمر هو امتلاك السرعة والدقة. دفعت كلوديا كومة من الأوراق ناحيتي. كانت الأوراق مقسمة إلى صفوف وخانات. قالت: ضعي كل عطر في الفئة المناسبة. منعش، أو زهري، أو خشبي، أو حار، أو حيواني، أو مائي، أو فاكهي. يجب عليكِ التعرف عليها على الفور من دون تفكير.

أعدنا الكرَّة مع الزجاجات مجددًا فتحول العالم من حولي إلى قوائم وخانات تنقض منها أسماء غريبة. *ليتسى كوبيبا. ياسمين هندي. النارنج. المخملية. انقسمت الموالح إلى البتي جرين، والليمون العطري، والتانجرين، والماندراين، والنارنج، والبرتقال الماوردي. كما انقسم الفلفل إلى الفلفل الأسود، أو الأخضر، أو الوردي. وكذلك النعناع، إلى نعناع شتوي، أو نعناع مدبب، أو نعناع فلفي.* مر الوقت، ساعة تلو أخرى، وصندوق تلو الآخر، وبين الحين والحين كررت كلوديا ما تشرحه لترى إن كنت قد استطعت تحصيل ما تقول.

سألتني كلوديا: ما اسم هذا؟

- الراتنج.

تذكرت عطر زهرة الراتنج الذي شممته قبل ساعات، والذي بدا أشبه بيد تمسد أسفل ظهرك.

رمشت كلوديا بعينها وتمتمت بقول: هاه، وصار طوفان الروائح كما لو كان في حيرة من أمره.

ومن ثم عاود الطوفان الاندفاع مجددًا، وبأسرع من ذي قبل.

***

في نهاية اليوم، عدت إلى شقة فيكتوريا ورأسي يئن من التعب. اغتسلت بأحر ما تحملت من الماء الساخن. وأحسست بالبخار المسالم النقي يسري إلى أنفي في دعة.

سألتني فيكتوريا عندما انتهيت وذهبت إلى غرفة المعيشة: كيف كان يومكِ؟

- على ما يرام. لقد كان جيدًا.

لدهشتي تقريبًا، أدركت أنني أعني ما أقول، فبقدر ما كرهت كلوديا، إلا أن الحدة التي سار بها الأمر كانت محفزة بقدر ما كانت مجهدة. وبنهاية اليوم،

وصلت إلى مرحلة استطعت فيها تمييز فئة العطر حتى قبل أن تفتح الزجاجة. العطر *المنعش* سريع وبارد وغير دافئ على الإطلاق. *والزهري* رقيق ومُغرٍ، كامرأة حسناء لا يظهر منها غير خلخالها. *والحار* يلدغ أنفك ويدفعك للانتباه. *والخشبي* حملني إلى الجزيرة على بساط السرعة حتى إنني لم أستطع حبس دموعي. كنت في لهفة لمزج هذه العطور معًا وابتكار عطر جديد.

كانت فيكتوريا محقة، فقد كانت هذه لغتي وأنا أردت أن أكتب بها.

***

كان من الجلي أن كلوديا عازمة على إرباكي، لكن العكس كان صحيحًا. فلم يكن ذهني بمثل هذا الاتقاد من قبل، بل إنني انغمست في العمل وقضيت فيه قدر ما طلبت مني، ومرت أسابيع من دون أن ألاحظ، فقد كنت أفعل ما خلقت لأجله. كما أنني كنت أقدَر على نسيان فيشر، أينما كان، ومع من كان، وأنا مفتونة بسحر العطور.

كنت أنا وفيكتوريا نعمل وفق جدول زمني مناسب لكلينا، فقد كانت تتأخر بقدر ما أفعل، أو حتى يزيد. واعتدت في الليالي التي كنت أمسي فيها وحدي، أن أعود مشيًا إلى شقتها من الطريق الموازي لرصيف المرفأ، وأن أدع وقع أقدامي يدفع عقلي إلى الاسترخاء. وفي الليالي التي لم تكن فيكتوريا تقضي مساءها في عشاء عمل، كنا نتناول طعامنا معًا، بعد أن نذهب للتسوق لشراء الخضر في الطريق للمنزل. عرفتني فيكتوريا إلى توابل ومكونات لم أعرف عنها شيئًا من قبل، ومذاقات كانت جديدة على لساني. ربما أغراني شعور الاهتمام الذي أولته لي فيكتوريا أو الطريقة التي راقبت بها كل ردة فعل قمت بها، لكنني أحسست بشيء من الإثارة، في أن أحمل بين يدي رائحة جديدة، وأن أتذوق العينات الموضوعة في أكواب ورقية صغيرة، حتى بعد قضاء يوم طويل في استنشاق زجاجة تلو أخرى، وبعثت الحياة من جديد في كل شيء كان قد مات في داخلي.

عندما نعود إلى الشقة، نتناول الطعام بينما كان العالم حولنا بأسره قد أخذته سنة من النوم. قالت فيكتوريا أنني قد كبرت بالقدر الكافي الذي يخولني لشرب كأس من النبيذ، فكنا نجلس ونتحدث عن العطور والعمل. مرت

عليَّ أوقات اشتقت فيها إلى دودج وكوليت وهنري، وروائح السمك والضباب وماء البحر الذي يتسلل إلى جدران البيوت القديمة. لكن رويدًا رويدًا، صارت تلك الفتاة التي تكورت أمام نار المدفأة بجوار كلب مبتل، تشعر على مهل بأنها قد أصبحت إيميلين جديدة، وعادت طفلة مرة أخرى.

في إحدى الليالي، جلست أنا وفيكتوريا بعد تناول العشاء على الأريكة في غرفة المعيشة. كنت ألف لحافًا خفيفًا ناعمًا مصنوعًا من الكشمير بلون القشدة حول كتفي. وكنا قد تناولنا السلمون على العشاء، وقد كان طازجًا جدًّا حتى إنني كدت أشم نفحة من رائحة ماء البحر والأرز في الهواء. كان عطر فيكتوريا المكون من العسل والعنبر حاضرًا أيضًا في المكان.

قلت لها: إنكِ لا تضعين هذا العطر كثيرًا.

ابتسمت فيكتوريا ثم قالت: العطر المميز بمنزلة علامة تجارية. إنه يجعل الناس يشكلون روابط عاطفية مع الأماكن ببراعة، لكن إذا وضع شخص ما العطر ذاته في جميع الأوقات، فإنه يخاطر بتعكير ذكرياته. فردت فيكتوريا ظهرها على الكرسي وهي تتفكر ثم قالت: عندما كنت أصغر سنًّا، أتذكر أنني سمعت عن فنان اسمه آندي وارهول. كان آندي يضع عطرًا معينًا لفترة ومن ثم يضعه في متحفه، كما أسماه. وفي أي وقت شاء أن يعود بذاكرته إلى زمن معين، كان يفتح الزجاجة المناسبة.

- مثل مجموعتكِ؟

قالت فيكتوريا بنبرة فخر لا مراء فيها: نعم، الفارق هو أنني أبتكر عطوري الخاصة. نظرت لي وقالت: كما ستفعلين أنتِ أيضًا.

كانت هذه الكلمات، أكثر ما قالته لي فيكتوريا حميمية، كعناقٍ في صورة كلمات، وأنا ضممت كلماتها بقوة إلى صدري.

بعد ذلك سألت فيكتوريا دون سابق تفكير: هل تصورت الروائح كألوان من قبل؟ كان هذا السؤال من نوع الأسئلة التي ستجعل الفتيات في المدرسة يشعرن بالانزعاج.

لكن فيكتوريا أومأت برأسها على أي حال: بالتأكيد. وأصوات كذلك. حتى أن بعض العطور تشبه البشر.

- نعم. بالضبط.

جلسنا لفترة في صمت مريح، لكنني سألتها أخيرًا: هل كنت دائمًا تتصورين العطور بهذه الطريقة؟

تأملت فيكتوريا كأس نبيذها ثم قالت: كانت أمي بائعة في قسم العطور في متجر التسوق المحلي. وكانت تعود إلى المنزل بزجاجات العطور وترصها في خزانتها. وكنت لا أحظى بكثير من الأصدقاء في المدرسة، فنحن لم نملك الكثير من المال، والفروق لا يمكن التغاضي عنها في المدرسة، أتفهمين قصدي؟

بالطبع فعلت.

أخذت فيكتوريا رشفة من النبيذ ثم أضافت: على أي حال، كنت أذهب إلى غرفة أمي وأشم العطور المختلفة قبل عودتها من العمل، وأطلق عليها تسمياتي الخاصة. حتى إنني كنت أحيانًا أحمل إحدى الزجاجات في جيبي لفترة.

ابتسمت فيكتوريا ابتسامة حزينة، ثم قالت: لقد سمعت أن مبتكر العطور الفذ لا يملك كثيرًا من الأصدقاء، لكنه يملك كثيرًا من المكونات.

رغمًا عني، كان باب ذكرياتي كثيرًا ما يفتح فيخرج منه فيشر، مهما كثرت أقفاله. لكن فتاة أخرى كانت معه الآن هناك، فتاة أجمل وأذكى. فتاة لم تلطخ الحياة وجهها في الوحل، ولم تحمل على كتفها عناء الأيام.

لماذا تخليت عني يا فيشر؟

نظرت إلى أمي وقلت لها: أعرف تمامًا ما تعنين.

***

في الصباح التالي، سألت كلوديا: متى يمكنني تعلم مزج الروائح؟ كانت كلوديا تلحق بي العذاب لمدة شهرين بحلول ذلك الوقت، وتضع في طريقي بسرعة آلية أي مزيج متجدد من الروائح القديمة والجديدة. ومع ذلك، لم أخطئ في التعرف على أي منها لمدة أسبوع متواصل. ودفعني حديثي مع أمي إلى الرغبة في مفاجأتها وأن أريها أنني أستطيع فعل الكثير.

قالت كلوديا في ضجر، وهي تجلس على كرسيها، وكان ضجرها دائمًا حاضرًا كما لو كان ثالثنا في الغرفة: إنكِ لست جاهزة. أحضري قوائمكِ.

- جربيني.

توقفت كلوديا في انزعاج، لكن رغبتها في أن تريني أنها أدرى وفازت في النهاية.

قالت كلوديا: حسنًا. ثم بدأ وابل من نيران كلامها الآلي السريع: يتألف كل عطر من ثلاث طبقات، الطبقة العليا والطبقة الوسطى وطبقة القاعدة. وتعتبر طبقة العطر العليا خفيفة، أما الطبقة الوسطى فتستمر لوقت أطول، وأما القاعدة فهي الأطول على الإطلاق. يجب أن يتألف العطر الجيد من الطبقات الثلاث، بالنسب المناسبة.

ألقتني عبارتها في بحر من المعلومات النظرية، لكنني استطعت الإحساس بما كانت تتحدث عنه. فقد كان كلامها ينطبق على كل ورقة من أوراق العبير التي شممتها، كيف تتغير الروائح وتتعمق عندما تبوح لك بقصة ما حتى وهي تختفي. كان ذلك أيضًا ديدن[1] الطبيعة، على نحو ما، فينع الأشجار يمهد للطين الداكن المعقد أسفل منه، وكذلك يخبئ المحيط رائحة الموت في أعماقه تحت السطح العامر بالحياة. لقد كان كل ما تتحدث عنه كلوديا بعنجهية، هو ببساطة، العالم الذي فتحت عيني عليه.

- يمكنني فعل ذلك.

- هذا علم دقيق يا إيميلين، وليس مزحة للأطفال.

قلت لها بعزم أكبر هذه المرة: يمكنني فعل ذلك.

اتسعت حدقتاها وزادت حدتها ثم قالت: هكذا إذن؟ حسنًا، لنبدأ بتثقيفكِ إذا كان هذا ما تريدين.

فتحت كلوديا زجاجة فخرجت منها رائحة لاذعة وسريعة وتحمل أقل قدر من الحلاوة مثل قطرة من المطر تتلألأ على عيدان العشب.

---

(1) دَأْب وعادة.

قلت لها تلقائيًّا: الليمون الفردوسي الأبيض[1].

قالت كلوديا وهي تشدد على نطق *كل* حرف من *كلامها*: الطبقة العليا.

فتحت زجاجة أخرى، فخرجت منها رائحة الخزامى، كانت أرق وألطف، كرائحة صابون كوليت، والعطر المختبئ بين ملابسها.

قالت كلوديا: الطبقة الوسطى، هل أنتِ منتبهة؟ ثم رفعت حاجبيها الداكنين، كما لو كانت تضع جملتها الاعتراضية بين هذين المنحنيين الرفيعين.

قلت لها بحدة الآن وأنا أشدد بدوري على نطق كل حرف من كلامي: نعم أنا منتبهة.

- جيد. هل أنت مستعدة الآن للأصعب؟
- بالتأكيد.

فتشت كلوديا بعمق في الصندوق الموضوع عند قدمها للحظة ثم أخرجت زجاجة منه وقالت: هذا مثال جيد.

ثم ناولتني الزجاجة عبر الطاولة. كانت الزجاجة ملآنة بمعجون داكن أكثر من كونه سائلًا. فتحت غطاءها، فتراجعت عندما هبت الرائحة في وجهي، وسمعت تقريبًا ما يشبه الدوي، أو طقطقة عظام المفاصل.

قالت فيكتوريا بلا مبالاة: الزباد[2]. يتطلب استنشاق قاعدة رائحة حيوانية بشكل مباشر معدة قوية، أليس كذلك؟ لكن ضعي قطرة أو قطرتين منه في قاعدة العطر، وسترسل تلك الرسالة المغايرة، عن الموت ومطارحة الغرام. هذا بإيجاز ما يفعله العطر. ستفهمين عندما تصبحين أكبر سنًّا.

بادلتها التحديق، فأنا أعرف بالفعل عن الموت، وعن مطارحة الغرام، ولم أكن بحاجة لها لتخبرني.

---

(1) الليمون الفردوسي أو ليمون الجنة أو الزنباع، النفّاش أو الليمون الهندي، أو الجريب فروت، نوع من النباتات يتبع جنس الليمون.

(2) الزباد مادة كيميائية ذات رائحة نفاذة يفرزها قط الزباد عن طريق غدد العجان، تستخدم في تثبيت روائح العطور.

وقط الزباد حيوان ليلي صغير الجسم، ورشيق، ينتمي إلى الثدييات، موطنه الأصلي آسيا الاستوائية وإفريقيا، وبخاصةٍ الغابات الاستوائية.

بعد ذلك، حملت كلوديا زجاجة أخرى ووجهها خالٍ من التعبيرات وقالت: الياسمين.

أصبحت حريصة هذه المرة، وأنا بالكاد أشم المكونات، لكن الرائحة التي فاحت كانت تشبه تنهيدة ارتياح، وكانت حلوة وبيضاء كلون القشدة وجذلة تقريبًا، وشعرت كما لو كنت أطفو على وجهها.

كنت على وشك أن أضع الزجاجة جانبًا، لكنني انتبهت لنفحة من شيء آخر يقف في الظل، شيء لزق يبعث على الخدر. استنشقت بعمق هذه المرة لأتمكن من الإمساك به.

قالت لي كلوديا: هل يعجبكِ؟ كانت هذه أول مرة تبدو فيها مسرورة مني ثم أضافت: أتعلمين ما هو، المكون الذي تبحثين عنه؟

أدرت رأسي نافية، كانت الرائحة أمامي، لكنني لم أستطع التعرف عليها في تلك الغرفة الباردة الفارغة.

قالت كلوديا بينما ترتسم على وجهها ابتسامة بطيئة وبليدة: هذا غائط. نظريًّا تسمى ذرة منه الإندول، لكننا نسميه زهرة إن كان يعود لمكون آخر...

شعرت بالضيق على نحو ما.

هل تودين شم غائطي يا آنسة بيجي؟

نظرت إلى كلوديا، وتملك مني الكره كما لم يتمكن مني من قبل، حتى مع أولئك الطلاب في مدرستي، فقد أرادت تلك الفتاة اللامبالية المتكلفة النيل مني، تمامًا مثلهم. لكن موهبتي حينها كانت عقبة في طريقي، وجعلتني غريبة الأطوار، أما هنا فقد كانت نقطة قوتي.

لقد ظنت كلوديا أنها تعرف الروائح، لكنها لم تعرف سوى أسماء وخانات وقوائم.

وأسررت في نفسي، *أنكِ لا تملكين أدنى فكرة عما أستطيع فعله.*

الجزيرة

شعرت بالسرور لأن فيكتوريا اضطرت للتأخر في العمل تلك الليلة، فقد احتجت العودة إلى المنزل مشيًا. ودفعتني برودة الجو وحرارة الغضب إلى السير بسرعة في ظلمة الليل. قادتني قدمي عبر الطريق المعتاد على رصيف المرفأ، وذهني مشغول تمامًا بما حدث ظهرًا، وبالعطور التي أستطيع ابتكارها.

تأملت جميع الاحتمالات ثم قررت الاعتماد على عطر شروق الشمس الوردي الذي شممته في أول متجر أخذتني إليه فيكتوريا. كانت فيكتوريا قد أخبرتني مؤخرًا أن نتيجة إخفاء العطر قد ظهرت على المبيعات، لكنني كنت موقنة أنني أستطيع فعل ما هو أفضل.

فجأة، انهمرت من الأعلى مياه أمامي فلطخت حذائي وسروالي، وتراقصت قطع مكسورة من الثلج على الرصيف حولي.

صرخت وأنا أقفز إلى الوراء: تبًّا.

نظرت إلى الأعلى. ظهر على الشرفة الخلفية لأحد المباني الباهتة المبنية بالطوب، التي تراصت على رصيف المرفأ، شاب يرتدي مئزرًا مربوطًا حول خصره وبيده دلو تقديم أبيض مقلوب على رأسه، ما زالت المياه تقطر منه. سطع الضوء من الباب المفتوح خلفه فأظهر بشرته الشاحبة، وشعره

الأصهب. كان منكباه أعرض وشعره أطول لكنني كنت سأتعرف عليه أينما كان.

إنه فيشر.

دون تفكير، تراجعت أكثر لأختبئ في الظل. لم يكن ذلك ضروريًّا على أي حال، فهو لم ينظر إلى الأسفل حتى. أشعل فيشر سيجارة وحدق بعيدًا إلى المياه المظلمة.

كنت أراقبه من الأسفل. ترى كم مرة مررت بهذا الطريق إلى المنزل؟ كيف لم أستطع أن أشعر بقربه؟ ومع ذلك، فهو لم يشعر بي أيضًا، وأنا أراقبه من مكاني هذا. لكن إيميلين وفيشر اللذين ذهبا إلى الجزيرة كانا سيعرفان.

سمعت صوت امرأة يأتي من الأعلى لينادي على فيشر، فالتفت فيشر ثم أطفأ سيجارته وعاد إلى الداخل.

سيجارة. منذ متى وهو يدخن؟

من أصبحت الآن يا فيشر؟

درت حول المبنى ثم وجدت المدخل الأمامي، لكن لافتة النيون الخضراء المضيئة على مدخل الباب جعلتني أتوقف- *الجزيرة*.

قلت لنفسي، *ربما لم يرمِ فيشر كل شيء وراء ظهره*، وأنا غير متأكدة إذا ما كنت سعيدة أم حزينة أم الاثنين معًا.

***

كان المكان يعج بالأصوات وموسيقى البلوز[1] تعمل بصوت منخفض. فتحت الباب الثقيل ثم تسللت إلى المكان. كانت الغرفة مظلمة تفوح منها رائحة الجعة والبوربون[2]. أضاءت الشمعة التي توضع على الطاولة بالعادة الجدران القديمة المبنية بالطوب، بينما انعكست أنوار السقف على الطاولة المصنوعة من خشب الماهوجني التي امتدت عبر الغرفة.

---

(1) نوع من الموسيقى الصوتية والآلية ينحدر من أغاني أشغال السود في الولايات المتحدة يتغنَّى فيه المغنون بحزنهم وأساهم.

(2) شراب كحولي.

عندما دخلت، رأيت ظهر فيشر واقفًا خلف المشرب، فتسللت لأقف في ظلام الكوة الموجودة بجانب الباب لأراقبه. كان المكان مزدحمًا، وكان فيشر يعمل بلا هوادة، من دون أن ينظر ناحية صاحب الطلب التالي، وكانت حركاته سريعة وواثقة. كان يدفع الجعة عندما ينتهي من صبها بقوة تكفي لانزلاقها على الطاولة، وكان على صاحب الطلب وضع يده لإيقاف حركتها. وعندما استخدم إناء الرج، كان الثلج يتهشم داخل الكوب المعدني، حتى إن من لا يعرفه قد يظن أن هذا من فرط الثقة، وقد لا يشعر بالنار التي تتأجج في داخله.

ولى فيشر ظهره للزحام، رافعًا يده ليمسك بزجاجة موضوعة على رفٍّ عالٍ، بحركة مألوفة على نحو مؤلم، فقد رأيت الحركة ذاتها عدة مرات عندما كنا ننظف الأكواخ معًا. كنت قد اعتدت أن أختلس النظر إلى الطريقة التي تحركت بها عضلاته تحت بشرته الشاحبة، كما كنت أفعل الآن. استدار فيشر مجددًا، ثم صب كمية من سائل شفاف، ثم أنهى صبه بلفة حادة من معصمه. استطعت رؤية طول رقبته وعظام فكه، وكدت أشعر بملمس انحنائها على أصابعي، وبات التوق الذي كنت أشعر به يدفعني إلى الغضب. كيف استطاع أن يعمل هنا محاطًا بكل هذه الروائح، وبرجال مقدر لهم أن يظهروا أسوأ ما فيه؟

في آخر المشرب، وقف مساعد الساقي يتحدث إلى امرأة شابة، وكان وجهاهما يلمعان بسرور، وبدا أن هذا قد لفت انتباه فيشر.

اندفعت الكلمات من فيشر عبر المشرب إلى مساعده: هل ستمد لي يد العون أم ستكتفي بالمشاهدة؟ تذكرت حين كنا معًا، نقف في الفناء وفيشر يحمل الفأس في يده، والطريقة التي كان يمازحني بها.

هل ستمدين لي يد العون أم ستكتفين بالمشاهدة؟ كانت مشاعر السعادة طاغية على وجهه حينها، لكن ذلك الشاب الواقف هنا لم يكن فيشر الذي عرفته. لقد نطق فيشر عبارته كما لو كان أبوه ينطقها، بقسوة تبحث عن نقاط ضعف الآخرين وتنخر فيها، ليشعر بقوته على حساب الآخرين.

إن سمك السلمون يعود دائمًا إلى نفس المنبع.

من الواضح أن تلك المقولة تنطبق على فيشر كذلك.

لكنها لا يجب أن تنطبق عليَّ، فأنا أرفض أن أكون مارديل، وأن أتغاضى عما كان واضحًا أمام عيني، وأن أتناسى كل شيء.

لذلك، جذبت باب الجزيرة بشدة وهرعت إلى الشارع، ولم أعد أود رؤية المزيد.

***

بعد ذلك، كان ابتكار عطر جديد هو كل ما أستطيع أو أريد التفكير به. اتجهت كل يوم إلى شركة أنفاس بهدف معين. كانت كل رائحة موجودة في زجاجات كلوديا مكونًا محتملًا ومفتاحًا سحريًّا كامنًا. *ترى ما العطر الذي قد يجعل النساء ترغب في شراء أشياء لا تحتاج إليها فعلًا؟* أصبحت منهمكة في تركيبات العطور وتبعاتها حتى صارت ردة فعلي أبطأ وأثقل.

طقطقت كلوديا بإبهامها وبإصبعها الوسطى وقالت: إيميلين، انتبهي.

لكنني كنت منتبهة أكثر مما تظن.

***

كان الحل في عطر الحبهان، بمجرد أن فتحت كلوديا الزجاجة، بدا أن الرائحة تحن إليَّ. استنشقت العطر فوجدت نفسي في مطبخ كوليت، أعد القهوة أنا وفيشر للنزلاء الذين يأتون في فصل الصيف، بينما الفطائر تخبز في الفرن. وقوض الشوق دفاعاتي كلها.

اندفعت نحو كلوديا وأخذت الزجاجة من يدها ورفعتها إلى أنفي.

سألتني كلوديا وهي تدير رأسها من حماقتي: ألا تعرفين ما هذا؟ لكن رأيها لم يهمني، فقد أردت هذا العطر. لم يحمل العطر بداخله فعلًا عبير القهوة أو الخميرة أو السكر المذاب، لكن هذا لم يكن ضروريًّا. أردت العودة إلى الذكرى التي أثارها بداخلي، وبت أشعر بالعطر يحن إليَّ بالقدر ذاته، وإلى دفء بشرتي، وأنا أستنشق بعمق أكثر. عندما لم تكن كلوديا منتبهة، قلبت الزجاجة وجعلت رأسها يلمس معصمي من الداخل. غاصت قطرة من السائل في أعماقي.

لقد منحتني الحل. لقد كنت أمضي في هذه المتاهة على نحو خاطئ منذ البداية. كنت أتبع نهج كلوديا وأنا أتعامل مع العطور كما لو كانت مكونات جامدة بدلًا من كونها تنبض بالحياة كما عرفتها. لقد كنت أحاول تركيب عطر ينتُج عن معادلة مثالية منمقة، لكن العبير الذي أعرفه لم يكن كذلك قط، فقد كانت الروائح تمتزج معًا وتتراقص وتهمس، ثم تنغمس في رائحتنا نحن، كل منا يغير شيئًا في الآخر، لينتج عن ذلك كله عبير جديد. لم يكن كل منا يستغل الآخر، بل يحتاج إلى الآخر.

كانت هذه الحاجة تدفعنا لفعل أي شيء تقريبًا، وقد شاهدت ذلك بنفسي.

والآن، بت أتساءل، ماذا لو حذفت أحد مكونات العطر عمدًا، كأن أجرده من شيء أساسي جدًّا وضروري، لتصبح أجسامنا في سعي محموم لتعويض هذا الفراغ؟ وماذا لو دفع هذا المكون المفقود الناس إلى شراء الأشياء الموجودة حولهم؟

قالت كلوديا بنفاد صبر شديد: إيميلين.

قلت لها: الحبهان، ثم غصت في أفكاري مجددًا.

أنا أستطيع فعل ذلك. لقد كنت متأكدة. كنت موقنة من هذا الأمر، وهو شيء لن تستطيع كلوديا تصوره أبدًا، وبت متشوقة لرؤية تعبير وجهها.

***

أدركت بسرعة كافية، أن العنصر المفقود لا يمكن أن يكون في الطبقات العليا، فالطبقات العليا هي ما تجذب الانتباه، كدعوة برَّاقة ترشدك بقوة إلى عمق العطر.

ولا يمكن أن يكون في الطبقات الوسطى كذلك، تلك الطبقات الدافئة، الحانية، الممتلئة، الوالهة، فحذفها سيؤدي إلى استمالة شعور التوق البنفسجي، لكن التأثير سيكون خاملًا. كانت *الحاجة* تعيش في طبقة القاعدة، حيث يظهر الفارق بين الشهية والشهوة، وبين القلب المتألم والمتحطم. كانت طبقة القاعدة تمثل الأساس ببساطة، الطمر والاختمار، الطين والدم، اللوعة والرغبة، والذكريات.

بمجرد أن ركبت المصعد في نهاية اليوم، في شركة أنفاس، بت أفكر في المتجر، وفي أرائكه البيضاء كبياض الثلج التي لم يمسها شعر كلب، وبزهرياته الطويلة التي تشتاق إلى أن تتزين بزهور يحضرها أزواج لن يخطر على بالهم أبدًا موعد أي ذكرى سنوية أو عيد ميلاد.

ضغطت امرأة ترتدي بذلة بإصبعها المطلية بعناية بطلاء الأظافر على زر البهو في المصعد، ثم تحققت من الوقت في ساعة يدها ثم قالت: تبًّا.

سألتها المرأة الواقفة بجوارها: الحضانة؟

- نعم. لقد تأخرت مرة أخرى. سيؤدي ذلك إلى فصلنا.

تبادلت المرأتان النظرات.

قالت المرأة الثانية عندما بدأ المصعد في رحلته البطيئة نحو الطابق الأرضي: كان عليَّ التحدث مع تيم. أخبرته بضرورة مساعدتي بشكل أكبر في شؤون المنزل.

- كيف سار الأمر؟

- لقد أخبرني أنه قد انتهى بالفعل من غسل سيارته.

- يا إلهي.

- كل ما أريده هو...

- أنا أعلم.

انفتح باب المصعد، فخرجت المرأتان بسرعة، اتبعتهما وهما تسيران على الرصيف وأنا أستمع إلى محادثة أخرى في ذهني.

إن المنزل ليس مكانًا مثاليًا.

أوه، لكنه قد يصبح كذلك.

لقد عرفت معنى أن تصبح الأمور مثالية. عدت بذاكرتي، رغمًا عني، إلى الوقت الذي قضيته في الجزيرة مع فيشر، حيث كنا نستلقي على السرير، ورائحة أجسامنا تمتزج مع الشراشف، وكيف وضع يده أسفل ظهري عندما كنت أطبخ.

اصطدم بي رجل ما، فانتزعني من أفكاري، رمشت وصرت أنظر حولي إلى الأشخاص الذين يعج بهم الرصيف. بت أتأمل الأشخاص الذين يرتدون السترات والذين يدفعون عربات الأطفال، وعلامات الإحباط والإرهاق بعد نهاية اليوم. وفي خضم هذا كله، رأيت رجلًا وامرأة ينتظران تحت الضوء على بعد نصف الحي تقريبًا. لم تحط بهما هالة استثنائية، وكان الرجل يرتدي سروالَ جينز وكنزة، وكان شعر المرأة غير ممشط يحيط برأسها كالسحابة. لكنهما كانا ينظران إلى عيني بعضهما كما لو كان كل شيء حولهما قد استحال إلى عدم، فشعرت بشيء يجيش في صدري حاد كنصل السيف.

وبتلك السهولة، عرفت طبقة القاعدة التي يجب عليَّ حذفها من المكونات.

***

استدرت وعدت جريًا، وركبت المصعد وصعدت إلى الدور الثالث. بدأت أشعر بالعطور تهمس وتتحرك في أوعيتها، حتى قبل أن أدخل إلى غرفة الدراسة. ذهبت إلى الصناديق وسحبت الزجاجات من دون النظر تقريبًا ثم وضعتها في حقيبة الكتف الجلدية الجميلة التي اشترتها لي فيكتوريا. بت أسمع الزجاجات وهي تحتك بنعومة وأنا أسير عبر الردهة وحاولت ألا أتذكر آخر مرة سمعت فيها هذا الصوت أو ما جرى حينها.

وأخبرت نفسي «*هذا أمر مختلف*».

***

عدت بالزجاجات إلى شقة فيكتوريا وحبست نفسي في الحمام، ثم رصصت المؤن على الأرضية البيضاء. أخذت نفسًا عميقًا وبدأت المزج. باتت العطور تتحدث، وتكشف عن أفكار كبيرة، ثم تقفز من الزجاجات في لهفة أن يتم مزجها.

قالت العطور، *هيا نلعب*، وأنا فعلت.

في مرحلة ما، أتت فيكتوريا وطرقت على الباب.

- ماذا تفعلين بالداخل؟ إن الرائحة تصل حتى غرفة المعيشة.

اعتدلت في جلستي، لشعوري بألم فجائي في أكتافي، وتساءلت عن الوقت الذي استغرقته في العمل.

قلت لفيكتوريا: هذه مفاجأة.

- إنها تبدو مفاجأة طيبة الرائحة.

رفعت خصلات شعري من على وجهي، ثم شممت رائحة العطر الذي ابتكرته، العالقة على بناني، وشعرت بالاقتراب جدًّا من نيل ما أصبو إليه.

- هل يمكننا الذهاب إلى المتجر غدًا؟ أول متجر ذهبنا إليه معًا؟

- لماذا؟

- أريد أن أريكِ شيئًا ما.

وأخيرًا، أخذت العطور تسبح في المزيج.

***

كانت شركة أنفاس تمتلك جهازًا ينشر رذاذ العطور في الجو ثم يتساقط في دعة من دون أن يلاحَظ تمامًا، كما لو كان يحمله المُزن[1]. تسللت العطور إلى خيال الزبائن، وتعلقت بملابسهم، فاستكانت المنتجات في حقائب تسوقهم، في خدمة تسويق عطرية ناجحة بامتياز.

استنشقت عطر المتجر الذي يشبه لون الشروق الوردي هذا وقلت لنفسي، *تمهلي* فحسب.

سألت فيكتوريا وأنا أرفع زجاجة العطور الممزوجة في يدي فوق الجهاز: هل أنتِ مستعدة؟

بدت فيكتوريا مترددة وهي تنظر ناحية غرفة التسوق.

قلت لها: أنا أعرف ما أفعله، فأنا ابنتكِ.

ابتسمت فيكتوريا عند إذن ثم تراجعت إلى الخلف وقالت لي: إنه طوع أمركِ.

سكبت السائل في وعاء الجهاز.

---

(1) المُزْنُ: سحاب يمطر أو يمكن أن يؤدي إلى سقوط مطر.

قالت فيكتوريا: حسنًا. لنرَ ما سيحدث.

***

بدأ العطر ينتشر صافيًا وجذلًا، برائحة العشب الذي قد شذب للتو وشروق الشمس، وشراب الكركديه المثلج، وأفضل وقت في ظهر يوم العطلة. انتشرت حلاوة الخزامى والزهور في الهواء بهدوء شديد كما لو كنت ترى حقولها أمامك خالية من الأعشاب الضارة لمسافة تسعة أمتار. انتشر العطر في المتجر وأنا وفيكتوريا نراقب الوضع ونرى الزبائن يضعون هواتفهم جانبًا، ويتسوقون باهتمام أكبر ويتبادلون الابتسامات.

قالت فيكتوريا: حسنًا، لقد جعلتهم ودودين حقًّا.

اكتفيت بالابتسام.

أخذ العطر ينتشر بشكل أعمق، وفاحت رائحة الفانيليا، الأشبه بنداء الأمهات اللاتي يرتدين مآزرهن ورائحة الكعك الطازج بعد يوم مدرسي. أصبحت التعبيرات على وجه النساء في المتجر أكثر رقة.

همس العطر لهن، *يمكن أن تصبح حياتكن بهذه الصورة. وسيحبكن أطفالكن.*

ثم على مهل، جاء يتهادى عطر الياسمين.

أمالت فيكتوريا رأسها ثم قالت: مرحبًا أيها الشقي.

فاح عطر الياسمين في الغرفة، ثقيلًا وشاعريًّا، في صور صبية فاتنة، وامرأة أنجبت ثم استطاعت ارتداء ثوب سباحة فاتن في غضون شهر، أو أسوأ من ذلك، امرأة لم تنجب على الإطلاق ذات قوام خلاب، بطنها مشدود ونهدها مرتفع، وامرأة تتبعها نظرات زوجها في توق.

بعد ذلك، عندما بدأت الزبونات يتجولن مبتعدات عن بعضهن وهن يبتسمن ابتسامات مهذبة متوترة، باغتهن عطر ما يبقع مترصدًا كعادته داخل الياسمين. فقط لمحة من الإندول. حبل مُدَّ ليسحبكِ إلى العمق، إلى الطين.

لكن لم يكن ذلك كافيًا، فقد كان العطر ما يزال شديد الحلاوة، يعرج في طوافه في المتجر مفتقدًا للتوازن.

قالت فيكتوريا وقد قطبت حاجبيها: هممم.

- انتظري.

بدت الحاجة إلى التوازن كصرخة في الجو، كما لو كان العطر ينادي ويبحث متوسلًا لتمد له يد العون ليكمل ما بدأه. لم يكن يبحث عن الحلاوة، ولا عن العذوبة.

وعند إذن فقط، تكشَّف عن جلود النساء وعن رائحة أجسامهن وعن بنات أفكارهن المحمومة، المكون المفقود، حادًّا كنصل السكين، يرتفع ليلاقي العطر حلو المذاق.

الغيرة.

وبينما نحن نراقب، أمسكت امرأة بلحاف كشميري خفيف وألصقته بصدرها. وجلست أخرى على أريكة جلدية وذراعها مفرودة لتبسط سيطرتها عليها كأنما تقول هذه *ملكي*.

قالت فيكتوريا وهي تكتم ضحكتها: رائع. هذا رائع بالتأكيد.

مركز التسوق

بدأت كلوديا حديثها قبل حتى أن يفتح الباب بالكامل.

هبت تقول: لقد تأخرتِ. أنا لا أتقاضى مالًا كي...

تجمدت كلوديا في مكانها كالفأر عندما رأت فيكتوريا.

قالت وهي تلمس ربطة وشاحها المثالية: سيدة وينجت. من حسن حظنا أن تمري بنا اليوم.

- مرحبًا يا كلوديا.

كان صوت فيكتوريا باردًا وجارفًا كالمد حين قالت: أردت شكركِ على مجهوداتكِ، لكنني أود أن أعلمكِ بانتهاء فترة تدريبكِ لإيميلين.

تنهدت كلوديا ثم قالت: سيدة وينجت، أود أن تعرفي أنني بذلت قصارى جهدي، لكنها لا تستطيع ببساطة استيعاب الأمور.

- لا يسعني سوى قول إنكِ مخطئة في ذلك.

فحصت فيكتوريا القوائم المفرودة على الطاولة أمامها ثم قالت: ما أول قاعدة في هذا العمل يا كلوديا؟

- اعرف عميلك.

- بالطبع. إن كنتِ قد اتبعتِ تلك القاعدة البسيطة وحدها، فربما كنت قد استطعتِ فهم أن هذه الفتاة تعرف عن العطور أكثر مما ستعرفين في حياتكِ كلها. سأتولى أنا أمر تدريبها، وأنا أكيدة أن هناك ما يمكنكِ فعله في المعمل.

نظرت كلوديا إليَّ ووجهها شاحب، فنظرت إليها ثم رفعت أحد حاجبي.

كانت تلك اللحظة أمتع لحظة عشتها في تلك الغرفة.

***

قالت فيكتوريا إن علينا الاحتفال بعطري الجديد بأخذ إجازة حتى نهاية اليوم. أرادت أن تشتري لي بعض الملابس فقلت لها إن لدي ما يكفي وزيادة إلا أنها كانت مصرة.

قالت ونحن نسير عبر مرأب سيارات نحو متجر تسوق عملاق: لقد كان لدى كوكو شانيل قول مأثور هو «الملابس الرثة تعلق في أذهان الناس إلى الأبد، والملابس الباهرة تحيي من ارتدتها إلى الأبد». أنتِ تريدين أن يتذكركِ الناس، أليس كذلك؟

تذكرت فيشر، وأومأت دون تفكير.

قالت فيكتوريا وهي تدير رأسها في انبهار: لقد كانت شانيل عبقرية. فهي لم تمتلك شيئًا سوى عزيمتها وذكائها، ووصلت إلى القمة بكدها واجتهادها.

أصدر باب المتجر صريرًا عند فتحه وهرعت الروائح في صخب نحوي. كان التنافر التام للروائح في المدينة مربكًا، حتى بعد قضائي ثلاثة أشهر فيها. أردت الفرار، لكنني صررت على أسناني واتبعت فيكتوريا التي باتت تتجول خلال الروائح بالطريقة التي يتجول بها أحدهم خلال حديقة غناء. بت قادرة على رؤية ما يدور بعقلها تقريبًا وهي تلتقط وتجمع وتسكب وترتب كما لو كانت الروائح تنقاد لها طوعًا.

في نهاية المطاف، ورغم حديثها عن أهمية الملابس، تنبهت إلى أنها كانت تهتم أكثر بالعطور التي يضعها الزبائن. وعندما اتجهنا نحو السلم المتحرك، أمالت فيكتوريا ذقنها ناحية إحدى النساء التي كانت تتسوق لتشم رائحتها.

قالت وهي تعدد مكونات عطرها: الزنجفر[1]وزهر البرتقال، والقرنفل، والزنبق، ولمسة من البتشول. لقد اختارت تلك المرأة عطرها عندما كانت في الجامعة عام 1978 وتضعه منذ ذلك الحين. نظرت إليَّ فيكتوريا ثم ابتسمت قائلة: إنها تظن أن ذلك العطر يعبر عنها. إنها محقة. أمالت فيكتوريا رأسها نحو امرأة تقف قرب الأحذية الجلدية في قسم الأحذية ثم قالت: وتلك، عطرها يتألف من الزهور والجين[2]. إنه أحد العطور التي تباع في المحلات الصغيرة. إنها معجبة بانطباعه المرح، لكنها امرأة تقليدية أكثر مما تظن. أراهن أن لديها العديد من الأحلام التي لن تسعى إلى تحقيقها يومًا.

كان هذا أشبه باللعبة التي اعتدت لعبها عندما كنت أترجم روائح الشراشف في الأكواخ وأنا أحاول اكتشاف كيف كان النزلاء وماذا أرادوا.

عندما ركبنا السلم المتحرك، مرت بنا امرأة في منتصف الستينيات تتجه إلى الأسفل وقد خلفت في أثرها رائحة البرتقال الطازج.

قالت فيكتوريا دون أن تلتفت إلى الخلف: هل تعلمين أنكِ إن رششتِ أقل كمية من عبير الليمون الفردوسي في غرفة ملأى بالرجال، فإنهم سيميلون للاعتقاد بأن النساء الموجودات حولهن أصغر بست أو سبع سنوات من عمرهن الحقيقي؟

راقبت خطوط ظهر فيكتوريا وهي تتحرك صعودًا على السلم المتحرك قبالتي، ثم استنشقت عطرها لليوم. ذكرني عطرها ببهو شركة أنفاس، الذي يفوح بالانتعاش والصفاء ونفحة بسيطة من المال.

***

في طريقنا للخروج من متجر التسوق، وحقائبنا مكدسة بالملابس، ومعدتنا ممتلئة بسلطة السلطعون الطازجة، اتخذت فيكتوريا منعطفًا جانبيًّا.

قالت: لنجرب شيئًا ممتعًا، وهي تقودني إلى قسم أدوات التجميل. تراجعت إلى الخلف، فقالت لي: لا تقلقي، ثم أجلستني على أحد هذه الكراسي الطويلة. تهادت نحونا امرأة شديدة النحافة.

---

(1) الزنجفر أو السنابار، والمعروف باسم كبريتيد الزئبق، وهو خام الزئبق الأساسي.

(2) شراب كحولي.

قالت المرأة: كيف لي أن أساعدكم؟

قالت لها فيكتوريا: لنرَ ما يمكنكِ فعله. تحولت تلك المرأة إلى شعلة نشاط، تفتح زجاجات وعلب، وتخرج فرشًا ذات أحجام مختلفة. تحول العالم من حولي إلى مساحيق وسوائل وألوان خضراء وسوداء وأخرى بلون الخوخ أو الدخان.

قالت لي المرأة: أغمضي عينيكِ، فعلت ما أمرت به وتمنيت ألا أضطر إلى فتحها أبدًا ثانية وأرى ما كانت تفعله. تذكرت الفتيات في المدرسة وهن يضعن مساحيق ظلال العيون الفاقعة وأحمر الخدود الذي بدا أشبه بأقلام التلوين. جلست، جامدة في مكاني، والفرش والأقلام تعيث فسادًا في وجهي وتضغط على مقلتيَّ وعلى شفاهي.

قالت لي المرأة وهي تضع منديلًا على فمي: خففي. عندما ارتبكت ولم أفعل شيئًا، قالت لي بمزيد من التأكيد: اضغطي عليه ففعلت ما أمرت به.

وبعد مرور وقت بدا يفوق الحصر، توقف العمل.

قالت لي المرأة: ها أنت ذي. ممتاز. يمكنكِ فتح عينيكِ الآن.

فتحت عيني ببطء، وكدت أقفز للخلف. كانت المرأة التي رأيتها في المرآة لا تشبهني في شيء. فإن كانت فيكتوريا النسخة الأنيقة المنمقة مني، فهذه المرأة كانت على النقيض. كانت عيناي ضخمة وصارخة، تُحيط بها بقعة كبيرة من الطحالب الرطبة، وكان فمي شديد الحمرة كما لو كنت قد انتهيت من أكل اللحم النيء.

قلت لها: لا.

أتت فيكتوريا من خلفي ثم نظرت.

قالت فيكتوريا: يا إلهي. نحت فيكتوريا المرأة جانبًا بلباقة ثم قالت: امنحيني لحظة فحسب يا إيميلين. أغمضي عينيكِ مجددًا.

شعرت بملمس بنان أصابعها هذه المرة، تتهادى على وجهي، وعلى وجنتي، ثم على شفاهي، وعيني، برقة كرقة الوعود، وكأنها ترقيني. شعرت بهذه الأصابع تمسك بي وتشكلني وتحبني، كما لو كانت لمستها تخترق جلدي وتسري في دمي. وتمنيت ألا تتوقف حركتها أبدًا.

قالت فيكتوريا بعد مرور عدة دقائق: هذا أفضل. يمكنكِ النظر الآن.

فتحت عيني، لكنني لم أكن متأكدة مما أتوقع أن أراه بعدما فتحتها آخر مرة. لكن الوجه الذي رأيته هذه المرة كان جميلًا ومضيئًا كالقمر. كانت عيناي متسعتين لكنهما رقيقتان تخطفان الأنظار. وكانت عظام وجنتي بارزة عامرة بالحكايات. لم تصرخ شفتاي ابتذالًا لجلب الانتباه، لكنها كانت مرحبة ما تزال تنبئ عن شخصيتي، كالسر يُهمس به بالكاد، ومقدمة لكتاب قد يأسرك. ربما كنت سأقول إن ذلك الوجه لا يشبهني، لكنه يشبهني بالفعل، فقد تحولت إلى صورة لم أظن يومًا أنني سأصبح عليها.

تنفست الصعداء قائلة: يا للروعة.

ابتسمت فيكتوريا سعيدة بعملها، ثم التفتت إلى المرأة التي تبيع مساحيق التجميل وشرحت لها: الأمر برمته يرتكز على الغموض. فأفضل نوع من الإغراء، ذلك الذي يباغتكِ فجأة.

لم أستطع التوقف عن التحديق إلى صورتي، وقلت لنفسي، *آه لو يستطيع فيشر رؤيتي الآن*.

بالتأكيد، سيرغب بي.

بغض النظر عما رأيته في ذلك المشرب، وبغض النظر عن محاولاتي، إلا أنني كنت ما أزال أفكر به كثيرًا، وأقضي الكثير من الساعات وأنا أحاول ألا أتخيل نفسي وأنا أكتب له رسائل، وألا أتخيل من تكون تلك الفتاة الجديدة، وألا أحتضن قميصه عندما أنام. كان شوقي إليه يسري كالرعدة في جسمي وأنفاسي وجلدي. وأصبح هو ذاته كالعطور داخل الزجاجات التي تهمس وتنتظر في لهفة أن أزيل غطاءها.

أخبرت نفسي، *إنه لا يرغب بكِ*.

وقال ذلك الوجه في المرآة، *إنكِ جميلة*.

ناولتني فيكتوريا حقيبة فيروزية صغيرة بداخلها زجاجات صغيرة لامعة.

قالت لي: قليل من السحر بين يديكِ ثم خرجنا من قسم التجميل إلى المركز التجاري. رأيت رجلًا يتبعني بنظراته وآخر يبتسم ملقيًا التحية عندما اقتربت منه.

قالت لي فيكتوريا: هذه قوتكِ. يمكنكِ فعل ما تشائين بها.

تمشينا بين صف المتاجر نعلق على ما يعرض في نوافذها وعلى الروائح من دون الدخول إليها. عندما أصبحنا في وسط المركز تقريبًا، اقتربنا من محل يصدح بأنغام البيز[1]، وكانت الإنارة داخله منخفضة وقاتمة. كان زبائنه في مثل سني وعلى وجوههم علامات التوتر وهم يرتدون ثيابًا ممزقة بإتقان.

قالت لي فيكتوريا: إننا نحاول كسب سلسلة المحال هذه. ما رأيكِ بها؟

- إن هذا المحل يبدو مثل الكهف. لم أستطع سوى تخيل رجال لهم شعور خشنة ووجوه تلتف حول النار في الليل المظلم والخطر يحيق بهم.

ضحكت فيكتوريا برقة ثم قالت: بالضبط. إذن ما العطر الذي يمكنكِ تصميمه من أجلهم؟

كانت عيناها تلمعان، فقد كنا نلعب لعبة. أملت رأسي لأفكر في الرد ثم قلت: أنا غير متأكدة. نظرت إلى اللامبالاة التي تصرف بها هؤلاء المراهقون وشعرت بالثقة التي اكتسبتها مؤخرًا تتراجع.

مالت فيكتوريا على أذني حتى أستطيع سماعها.

- ما أول قاعدة في عملنا؟

لم تطرح عليَّ السؤال بالطريقة التي سألت بها كلوديا، بل بدت أشبه بمصافحة سرية هذه المرة.

- اعرف عميلك.

- بالضبط. ابحثي عن قصصهم، وبمجرد أن تفعلي، فسيصبحون رهن إشارتكِ.

وقفنا معًا هناك، وأنا أراقب المراهقين يختارون قمصانًا عليها شعارات تروج لحفلات روك قد أقيمت قبل أن يولدوا حتى، وفي مدن لن يذهبوا إليها إطلاقًا. نكزت فتاة صديقتها بمرفقها لتشير إلى قميص كتب عليه *اغرب عن وجهي*، ثم قامت بحركة بذيئة بيدها فأخذتا في القهقهة. في مكان آخر من المحل، وقف شخصان لا يعرفان بعضهما، يتمتعان بجسدَيْن مثاليَيْن تمامًا،

---

(1) البيز أو البيس أو القرار، Bass بالإنجليزية، طبقة صوت منخفضة أو عميقة وهي في الموسيقى تردد منخفض نهائي مرتجع.

يتشاركان النظر في مرآة ثلاثية الاتجاهات، وهما يحرصان على عدم النظر إلى بعضهما وهما يقيسان زوجيْن متماثليْن تمامًا من سراويل الجينز.

أدركت في دهشة، *إنهما لا يشعران بالراحة مثلي تمامًا.*

خطرت القصة وراء العطر في ذهني حينها، قطرات من رائحة الجلد القديم والقرنفل، ونفحة من دخان السجائر. كما لو كانت دعوة من الشبان الظرفاء، وإيماءة استحسان تجذب الزبائن إلى الداخل وعند إذن يختبئ تحت ذلك قليل من مسحوق التلك.

سيهمس المسحوق، *إنك ما تزال طفلًا. الجميع يعرف ذلك.*

عرفت دون تفكير الإحساس الذي سيشعر به هؤلاء المراهقون، كيف سيشعرون بالخوف حادًّا وحلوًا، ليمنح التوزان العطري لنعومة ذلك المسحوق. وبذلك، ستستيقظ الرغبة في التدرع بنيل تلك الحماية العصرية من خلال قميص نصف ممزق وسراويل جينز تقول نعم *أنا أنتمي.*

وأصبح الأمر برمته شديد السهولة بالنسبة لي.

***

تمكن العطر من منحنا الصفقة وصارت مبيعاته جيدة جدًّا لدرجة أن فيكتوريا قد مزحت قائلة إن المحل يتوجب عليه توفير حقائب أكبر للمشتريات. بعد ذلك، أصبحت فيكتوريا تصطحبني معها في أي وقت تقابل فيه عميلًا جديدًا. بت أحمل دفتر ملاحظات وأتسم بالرزانة ثم آخذ الملاحظات، بصفتي مساعدتها.

أخبرتني فيكتوريا: أنتِ سلاحي السري ووفرت لي معملي الخاص الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة ساطعة، تصطف على رفوفها كل رائحة أود الحصول عليها. لأسبوع أو يزيد، بقيت فيكتوريا إلى جواري، تقدم لي الاقتراحات وترشدني إلى الأساليب، لكن لم يمر وقت طويل حتى رفعت فيكتوريا يدها تمثل الاستسلام.

قالت لي: إنكِ لا تحتاجين إليَّ. هذا المكان كله رهن إشارتكِ.

بت أعب من ذلك النبع الذي لا ينضب كمسافر أعياه العطش، وبت أنسج أحلامًا وأروي قصصًا وأصنع ذكريات عن أشياء لم تحدث من قبل. بت أبتكر

عطورًا شاعرية تفتقد إلى الشهوة، لمتاجر للجواهر فارتفعت مبيعات خواتم الخطبة بشكل صاروخي. كذلك، ابتكرت عطرًا شديد الخفة والبراءة، لمنطقة الانتظار الخاصة بمطعم ما، ففاقت مبيعات شرائح لحم البقر التصورات. وبت حتى من أجل المتعة وحدها، أرش عطورًا لمعادن وإلكترونيات خارج محال لبيع الكتب وأراقب الناس يهرعون إليها ويدسون وجوههم بين صفحاتها بحثًا عن حفيف الأوراق ورائحة الحبر الودودة.

وأصبحت بمساعدة المكونات المناسبة، أدفع الناس لفعل أي شيء.

***

أمست فيكتوريا في نهاية كل يوم تطل برأسها من الباب وتقول لي: هيا أيتها النحلة التي لا تتوقف عن العمل. حان الوقت ليحصل ذهنكِ على الهواء المنعش.

اعتدت أن أريها ما أعمل عليه، ثم نعود بعدها إلى المنزل سيرًا في ردهات الشركة بينما الناس يومئون برؤوسهم ويبتسمون في اتجاهنا، واهتمامهم موجه الآن لكلينا، فقد كانت الأخبار عن موهبتي تتناقل في الشركة.

أما في الشقة، فقد صار الهاتف يومض من كثرة الرسائل التي أرسلتها لي كوليت. كنت قد اعتدت الاتصال بها بانتظام في أول الأمر وإخبارها بحكايات عطوري وما حققته.

اعتادت كوليت أن تقول لي: حقًّا. لكن صوتها بدا بعيدًا، لا من بعد المسافات. أصبحت اتصالاتي أقل بمرور الشهور، فقد كانت اتصالاتي بها تذكرني بإيميلين تلك، الفتاة التي تعيش في الخليج. تلك الفتاة الخائفة، الساذجة، التي لا تستطيع الحفاظ على حبيبها. وفوق هذا كله، أصبح يراودني سؤال: ما رأي كوليت في الوضع الحالي؟ فقد بدت كل محادثاتنا تفتقد لمكون ما في طبقة القاعدة فيها.

الفخر.

لكنني لم أرد التفكير في ذلك، فقد أحببت تلك النسخة الجديدة من إيميلين، والطريقة التي ينظر بها الرجال إليها، والمدح الذي تلقته من أجل موهبتها، والحسد حتى.

سألتني فيكتوريا ذات مساء: ألن تستمعي إلى تلك الرسائل؟ إنها لم ترسل إليَّ، فأنا لا أستخدم هذا الخط سوى لتجنب المحامين.

قلت لها: سأفعل. لاحقًا، لكن الرسائل الجديدة صعبت عليَّ الاستماع إلى الرسائل الأخرى.

***

ذات صباح في شهر سبتمبر، رفعت فيكتوريا وجهها من على كوب قهوتها وقالت لي: إن صحيفة *ذا ديلي صن* تود أن تجري معك حوارًا صحفيًّا. يبدو أنه قد تناهى إلى مسامعهم أن لدينا *وندركايند*[1] في شركة أنفاس.

- ماذا؟

- أي نابغة.

حركت أصابعي على مقبض الكوب الخاص بي ثم قلت: لا أدري.

- لقد حان الوقت لأكشف عن سلاحي السري. وأن أخبر العالم كله بمدى براعتكِ.

تخيلت المجلات وهي تتطاير في المدينة كما الطيور، وفكرت أن فيشر قد يراها، كما قد يقرأها كوليت وهنري ويفتخران بي. تذكرت عثوري على المقال الذي كان يتحدث عن أمي وأبي على الإنترنت وكيف تعلقت بهما وبالصورة التي نشرت معهما.

ترى هل ستأتي للعثور عليَّ يا فيشر إن عرفت أين أكون؟ إن رأيت كيف أبدو الآن؟

مرت قرابة سنة منذ أن رأيته وأخبرت نفسي كل ليلة أنني لا أريده بعد الآن، لكن الناس يكذبون، لقد كان أبي محقًّا في ذلك.

- حسنًا إذن.

- عظيم. سيكون الموعد في الثانية ظهر اليوم. هيا بنا لنعثر لكِ على الملابس المناسبة.

***

(1) بالألمانية (Wunderkind) تعني الطفل المعجزة.

مبتكر عطور جديد في المدينة

ذا ديلي صن

أكتوبر 2016

في معمل صغير في الطابق الخامس في شركة أنفاس، تعمل شابة صغيرة ذات قصة تفوق الخيال. قبل ثمانية عشر عامًا، أُعلن عن اختفاء الطفلة فيوليت هارتفل، واختطافها من قِبل والدها المحموم بفكرة فشله. اختبأ جون هارتفل مع ابنته في جزيرة نائية، تنقطع عن الحضارة تمامًا. وأجبر طفلته الصغيرة على الصيد وجمع الطعام، وصور لها بعدم وجود وطن آخر لهما في هذا العالم سوى الجزيرة.

لكن الفتاة، التي هي الآن إيميلين، نجت من هذه المحنة، وبمعجزة إلهية التأم شملها مؤخرًا مع أمها، السيدة فيكتوريا وينجت.

تقول فيكتوريا وينجت: لقد عرفت أنها مميزة منذ اللحظة الأولى التي وقع بصري عليها ثانية. فهي تقرأ الروائح كما يقرأ الآخرون الكتب، وهي تنسج بموهبتها حكايات عطرية لا مثيل لها.

تعتبر السيدة وينجت مؤسسة شركة أنفاس، وهي شركة مسؤولة عن خلق بيئات عطرية. إذا دخلت يومًا إلى متجر واستيقظ فيك فجأة دافع الشراء بلا سبب، أو دخلت إلى فندق وشعرت فجأة بأنك ذهبت لقضاء عطلة، فربما قد اختبرت أحد إبداعات شركة أنفاس.

أصبح الآن إرث السيدة وينجت مستمرًّا بفضل إسهامات إيميلين التي استطاعت في شهور قليلة ابتكار عطور ناجحة جدًّا، حتى إن هذه العطور في طريقها لتصبح المعيار الذهبي

لابتكار علامة تجارية عطرية، وزادت مبيعات الشركات، بسهولة شديدة، قرابة 20 بالمئة أو أكثر.

رغم ذلك، يبدو أن الأرقام لا تعني الكثير للشابة إيميلين التي لا تبدو لحظة أكبر من سنها البالغ قرابة التاسعة عشر عامًا، فهي خجولة وتبدو أكثر راحة عندما تكون محاطة بالروائح أكثر مما تبدو في أثناء الحديث، وعند سؤالها عن العطور فهي تتخلى عن خجلها تمامًا.

تقول إيميلين وهي تشير إلى الزجاجات المصطفة على رفوف جدران معملها: إن العطور حية، وهي تفصح لي عن الكثير من الأشياء.

وتعرب كلوديا منرو، الموظفة التي كانت مسؤولة عن تدريب إيميلين: لقد كانت إيميلين عندما وصلت أشبه بالعلَّامة، كما لو كانت ذئاب العطور قد ربتها أو شيء من هذا القبيل. لقد كانت تتمتع بالموهبة الفطرية، وكان من دواعي سروري فقط أن أزيح عنها الستار.

وفي الوقت الراهن، تبدو إيميلين مغتبطة بمواصلة الاختباء بعيدًا في معملها ترعى ابتكاراتها السحرية، وعبير العالم كله رهن إشارتها، ونحن ننتظر على أحر من الجمر لنرى ما سيحدث.

رينيه

وضعت المقال جانبًا ويدي ترتجف. *أجبر طفلته الصغيرة على الصيد وجمع الطعام؟* نجت من هذه *المحنة؟* لقد صورت المجلة الأمر كما لو كنت أعيش كالإنسان البدائي. لقد تحدثت مع الصحفية لأكثر من ساعتين ولم أذكر إطلاقًا أي شيء عن الجزيرة أو عن أبي. لقد تحدثت عن حاسة الشم، وكيف أن الروائح لم تعد حقيقية كما كانت من قبل، وكيف أن دودج منح الاهتمام للعالم من حوله أكثر مما يفعل معظم الناس.

لكن أيًّا من ذلك لم يذكر في المقال.

أشرفت برأسي من باب مكتبي لأعرف أين توجد أمي، بيد أني رأيت كلوديا تتجه نحو الردهة وهي تحمل صندوقًا كرتونيًّا في يديها. شعرت بالغضب يجيش في صدري.

قلت لها عندما اقتربت: ذئاب العطور؟ حقًّا؟

- لا تقلقي يا سمو الأميرة فقد طردتني أمكِ للتو. رأيت صورة فتى في برواز في الصندوق الذي تحمله كلوديا، وظننت أنه قد يكون أخوها، وشعرت بالأسف لها للحظة.

قالت لي كلوديا: لمعلوماتك، إنها تستغلكِ. كما فعلت معي.

قلت لها: لم تكن لتفعل ذلك. فأنا ابنتها، وسلاحها السري.

أدارت كلوديا رأسها في اشمئزاز ثم قالت: إنكِ لست أكثر من مجرد عميل يا إيميلين.

نحن جميعًا كذلك.

ابحثي عن قصصهم، وسيصبحون رهن إشارتكِ. تذكرت كيف مالت فيكتوريا بالقرب مني في ذلك المتجر الحار الصاخب لتخبرني بذلك السر، وتذكرت بريق عينها عندما منحتني الموافقة على أول عطوري، إلا أن كلوديا لم تختبر أيًّا من ذلك.

قلت لها: إنكِ تشعرين بالغيرة. لكنها هزت كتفيها فحسب، كما لو كانت لا تبالي على الإطلاق، وسارت عبر الردهة وجوانب الصندوق تهتز متأثرة بخطواتها.

***

قالت لي فيكتوريا عندما وجدتها في مكتبها: لا تشغلي بالكِ. إنها حقًّا دعاية رائعة.

- لكنها غير صحيحة.

- لكن المبيعات ارتفعت. لقد نجحوا في فعل هذا.

أدرت رأسي في أسى.

قالت لي فيكتوريا بنبرة صوت ودودة ومؤثرة: هيا يا إيميلين. إنه مجرد مقال – ومقال عظيم حقًّا. وسيلفت انتباه الناس. لقد كانت شانيل دائمًا تقول «أن تكون مختلفًا، أي أن تكون شخصًا لا يعوض». اغتنمي هذه الفرصة.

- وماذا لو لم أرد ذلك؟

قابلت فيكتوريا نظراتي ثم أدارت رأسها وقالت لي: إنكِ أحيانًا تذكرينني بجدتكِ.

باغتتني نبرة صوتها التي تحمل خيبة الأمل والمرارة، فأنا لم أعرف أي شيء عن جدتي سوى أنها كانت تعمل في متجر للتسوق، ولم أرَ أيًّا من صورها على الإطلاق.

سألت فيكتوريا: كيف ذلك؟

فأنا لم أرغب أن أكون كما وصفتني أيًّا كان ما تقصده.

هزت فيكتوريا كتفها ثم قالت: لقد كانت أمي تتمتع بأنف شديد الموهبة، لكنها لم تستغل ذلك قط فيما هو أبعد من بيع العطور في المتجر. بالطبع لم يكن الراتب مجزيًا، لذلك فقد كان لديها الكثير من العشاق، واحدًا تلو الآخر، وضيعت موهبتها في محاولة معرفة العطر المناسب الذي سيوقعهم في حبالها. وأصبحت تضع عطر تابو[1] لصاحب المنزل ذي السور الخشبي الأبيض، وعطر أربيج [2] لذلك الأرمل الذي أحبت زوجته الورد. بل إنها لم تضع العطور فحسب وإنما جسدت هي العطور نفسها. بدأ صوت فيكتوريا يتغير عندما أخذت في الحديث، فتحول من المرارة إلى العذوبة ثم انتهى بنبرة الازدراء اليومية المعتادة. أضافت فيكتوريا: ولسخرية القدر، فإن أيًّا منهم لم يطلب منها الزواج قط. هل تفهمين ما أقصده؟

قلت لها: لا، فقد انشغلت بالقصة.

- إن الأمر بتلك البساطة يا إيميلين. لن يحترمكِ أحد إن كنتِ تهتمين فقط برأيهم فيكِ. لقد تعلمتُ هذا الدرس مبكرًا.

***

لم يكن عدم الاهتمام بما يظنه الناس بتلك البساطة، فقد اصطفت الوجوه الفضولية في الطرقة عند عودتي إلى مكتبي. صفقت الباب وأخذت أفكر بعثور فيشر على المقال، وبقراءة كوليت له، وكيف سيظنان أني قد قلت هذا الكلام.

عندما أتت فيكتوريا إلى مكتبي في نهاية اليوم، أخبرتها أنني كنت أعمل على شيء ما وأنني سأراها عند العودة إلى المنزل، قطبت حاجبيها، لكنها تركتني ومضت. بقيت في مكتبي في حضرة الروائح، أستمع إلى همساتها، إلى هسيس الزعفران، وإلى التهويدة العذبة لبخور الجاوي، وكيف اعتاد نجيل الهند إزالة الإبهام عن الأسئلة التي يطرحها خشب الصندل، فقد كانت

(1) Tabu عطر شرقي زهري للنساء صدر عام 1932.

(2) Arpege عطر زهري للنساء صدر عام 1927.

هذه الهمسات وحدها الأشياء المنطقية الوحيدة التي سمعتها في هذا اليوم. لذلك، جلست على كرسيٍّ وأغمضت عيني لأنسى العالم بأسره.

***

استيقظت على بداية حلم ما بوجودي في كوخ الجزيرة. بدا الحلم حقيقيًّا بقدر ذلك الكرسي الذي كنت أجلس عليه فقد كانت رائحة دخان التبغ ما تزال تسري إلى أنفي. استنشقتها وأنا أحاول أن أهدئ من روعي، لكن الرائحة العنيدة بقيت، وأخذت تنادي عليَّ. توقفت، ثم عاودت الاستنشاق في حيرة.

كانت الرائحة ما تزال هناك.

قمت من مكاني وأشرفت برأسي من الباب، لكنني لم أجد أحدًا سوى أثر الرائحة. اتبعت الرائحة، وأنا ما أزال منتشية بالحلم الذي حلمت به، سيرًا من ممر إلى آخر ثم نزولًا على عدد من درجات السلم. كان المبنى خاليًا، فبدا وقع أقدامي صاخبًا في هذا الصمت المطبق، لكنني اتبعت الرائحة التي قادتني حتى آخر زاوية في الطابق الرابع حيث وُجد باب موارب يخرج منه الضوء.

دفعت الباب ويدي ترتعش فوجدت رجلًا له شعر أبيض قصير معقود كذيل حصان، يجلس وحوله حلقة من الزجاجات. رفع الرجل رأسه عند دخولي.

تلعثمت قائلة: أنا آسفة. لكن، الرائحة...

رفع الرجل حاجبيه الكثين فوق عينيه الرماديتين، لكنني استطعت التعرف عليه. لا أدري أكان ذلك من جراء الرائحة أم من اختلافه عن جميع من كان يعمل في هذا المكان، فقد كان هو الرجل الذي رأيته في البهو أول مرة أتيت فيها للعثور على فيكتوريا. فاجأني أنه كان يعمل هنا، فمظهره يبدو غريبًا عن مجتمع شركة أنفاس، لكنني فكرت أنني قد لا أختلف عنه كثيرًا.

سألني الرجل: ألا تحبين رائحة تبغ الغليون؟

- لا، أعني نعم، أنا أحبها. إنها تذكرني بمكان اعتدت العيش فيه.

انتظر الرجل، وهو يميل رأسه نحوي حتى قلت: لقد كانت الرائحة عالقة بالجدران. شعرت بالحرج وأنا أتذكر المقال وكلماتي الساذجة الغبية: *إن العطور حية، وهي تفصح لي عن الكثير من الأشياء.*

لكن الرجل ابتسم فحسب حتى شعت الابتسامة من عينيه ثم مد يده مصافحًا: أنا رينيه.

صافحته بدوري: إيميلين.

- هل تعرفين ما الذي أعمل عليه هنا يا إيميلين؟

أدرت رأسي.

قال رينيه: أنا أعيد ابتكار روائح في طور الاختفاء. دخان الغليون، وشرائط الآلة الكاتبة، وتلك الفراولة الصغيرة التي تنمو في الغابات. إنه مشروع خاص بي أحب أن أعمل عليه في المساء. أنا لا أحتمل فكرة أن تصبح هذه الروائح في طي النسيان فحسب، أتفهمين ما أقصد؟

أومأت برأسي، فأنا أفهم بالضبط ما يقصد.

مد رينيه يده وأمسك بإحدى الزجاجات من الحلقة أمامه ثم قال وهو يرفع عنها الغطاء: هذه رائحتي المفضلة.

- ما هي؟

مد رينيه الزجاجة كما لو كان يعطيني هدية وقال: شميها بنفسكِ.

شممت الرائحة، لا بالطريقة الجامدة الآلية التي علمتني إياها كلوديا، وإنما بالطريقة التي علمها لي أبي. أغمضت عيني وجعلت الصورة تتشكل في ذهني، فشممت رائحة الأرض الجافة تتوق إلى مطر الربيع، وتغلبت عليَّ بكل سهولة.

كان ياما كان، يا إيميلين.

قال رينيه: *البتريكور*. الكلمة مشتقة من كلمة *البترا* والتي تعني الحجر، وكلمة *إيكور* التي تعني الدم الإلهي الذي يسري في عروق الآلهة اليونانية. إن النباتات تنضح زيوتًا توقف إنبات بذورها عندما يصعب عليها الصراع للبقاء، ومن ثم فإن تلك الزيوت تتغلغل في مسام الأحجار ثم تنتشر في الجو عند سقوط الأمطار. يقال إن هذه الرائحة تمثل ثواب الصبر.

مسحت عيني بإبهامي لإخفاء ردة فعلي، لكن رينيه أضاف قائلًا: أتعلمين، إنكِ تذكرينني بشخص ما.

رفعت رأسي ثم قلت له: ربما تقصد أمي، فيكتوريا وينجت. يقول الناس إنني أشبهها.

- نعم. إنكِ تشبهينها، لكنني لم أقصدها هي.

- من إذن؟

قال رينيه بعاطفة بالغة: والدكِ، جون.

شعرت بغصة في حلقي ثم قلت: هل كنت تعرفه؟

أومأ رينيه ثم قال: لقد كنا نعمل معًا، منذ وقت بعيد. لقد كان والدكِ يؤمن بأن الروائح حية، مثلكِ تمامًا. وهذا ما جعله بارعًا فيما كان يفعله. لقد كانت هذه موهبته.

تذكرت الحسرة التي كست وجه أبي عندما كان يشم رائحة احتراق أوراق العبير، وكيف مد يده ليمسك بالزجاجة المختومة بالشمع الأزرق وهو يسقط في الهواء.

قلت لرينيه: ليس على الدوام.

- دوام الحال من المحال. هذا أول ما تعلمه لنا الروائح.

نظر إليَّ رينيه بتمعن ثم قال: هل أخبركِ من قبل كيف بدأت علاقته بالروائح؟

- لا.

بالطبع كان هذا سرًّا آخر.

- لقد كانت والدته السبب في ذلك. لقد تُوفيت عندما كان صغيرًا، في الثانية عشرة على ما أعتقد.

سألته وأنا أحبس أنفاسي: ماذا حدث؟ وأنا أدعو رجاءً، *لا تقل لي أنها غرقت*.

- لقد ماتت إثر إصابتها بالسرطان. من الواضح أنها انتظرت وقتًا أطول من اللازم لزيارة الطبيب، ولم ترغب في الإفصاح عن أي شيء. لكن رغم ذلك، اضطرت لقضاء عدة أسابيع في المستشفى قبل وفاتها. لقد كان جون يقول إنها كانت تكره الرائحة هناك، لذلك، فقد اعتاد إحضار روائح جديدة لها خلسة.

ابتسم إليَّ رينيه ابتسامة حزينة ثم قال: لقد قال إنه قد أحضر لها قرابة نصف زجاجات التوابل من المطبخ. وإنه كان يجلس على سريرها بينما تنسج له حكايات عن كل واحدة منها، وعن جاك الشجاع الذي كان يصيد لها العبير.

كان ياما كان يا إيميلين، كان هناك ملكة جميلة حبيسة في قلعة بيضاء كبيرة، ولم يستطع أي من الفرسان الشجعان إنقاذها...

قلت في هدوء: أوه.

وتذكرت والدي وهو يقول لي *أطلقي لخيالكِ العنان، واستمعي إلى القصة.*

لقد أدركت أن الحقيقة كانت أمام عيني طوال هذا الوقت، تطل من ستار قصص أبي الخيالية كأوراق العبير القابعة داخل الزجاجات.

كانت الأفكار تعصف بذهني، فقد احتجت وقتًا لاستيعاب معنى الكلام. نهضت على قدمي وقلت له: يجب عليَّ الذهاب.

أومأ رينيه ثم قال: تعالي لزيارتي مجددًا في وقت ما.

سرت نحو الباب ثم التفت قائلة: شكرًا لك.

تلاقت نظراتنا ثم قال لي: لقد كان رجلًا صالحًا يا إيميلين. لا تسمحي لأحد أن يخبركِ بعكس ذلك.

***

استقللت الحافلة إلى شقة فيكتوريا، لأتجاهل سلوك الطريق الموازي لرصيف المرفأ. كانت مقاعد الحافلة الجامدة كما هي مكتظة بوجوه الناس المتعبة تمامًا مثل الحافلة التي ركبتها أول يوم للذهاب إلى شركة أنفاس، ولم يبدُ أي شيء مختلفًا عداي. جلست في الحافلة، في ختام يوم كل من كان هناك، وأنا أتذكر إيميلين التي كانت ترتدي تلك الكنزة القديمة، والتي أتت للبحث عن حبيبها وعن ماضيها.

عندما قابلت فيكتوريا، كنت قد فقدت فيشر بالفعل، لكنني ظننت أنني عثرت على مستقبلي، وعلى حياة جديدة، وعلى صورة أفضل من ذاتي. ومن بعدها، انغمست في عالم فيكتوريا، وأسدلت الستار على ما سواه كما فعلت

بملابسي القديمة. لكن حديثي مع رينيه، ورائحة دخان الغليون والبتريكور، كانت بمنزلة طرقات على باب قد أغلقته.

افتحي لي الباب.

كانت نصف ساعة فقط هي عمر علاقتي برينيه، لكنني وثقت به، فقد بدا كلامه منطقيًا على نحو حقيقي لا مراء فيه، وكأنما قد أعاد إليَّ شيئًا قد ظننت أنني فقدته أو ربما لم أملكه من الأساس.

لم أتصور أبي قط بخلاف ما عرفته، ولم أتصوره طفلًا على الإطلاق، أما الآن، ولأول مرة فقد تصورته كذلك، صغيرًا وخائفًا ووحيدًا. لقد كنت أعرف معنى أن تفقد أحد والديك، وأن تسقط في هوة سحيقة لا تقوى على الخروج منها.

حدثت نفسي، *آه يا أبي. ترى ما الذي لا أعرفه أيضًا؟*

***

وصلت إلى البيت في وقت متأخر، وسمعت من الصالة صوت الماء يجري في حمام فيكتوريا. مشيت إلى المطبخ، فرأيت ضوء الهاتف يومض بكثرة الرسائل عندما مررت بغرفة المعيشة، وشعرت بالحنين الجارف إلى المنزل. فكرت أن كوليت وهنري لم يكونا ليطلعا على المجلة بعد، فهما لا يشتركان في خدمة المجلة، وسيمضي بعض الوقت حتى يعطيهما أحد نسخة - إن حدث ذلك على الإطلاق. رفعت الهاتف وتصفحت البريد الصوتي جوعًا إلى سماع الطمأنينة التي تشع من صوتيهما، حتى وإن كان مسجلًا.

كانت الرسائل الأولى تشبه كثيرًا آخر الرسائل التي استمعت إليها وكوليت تنقل قطوفًا من أحداث الحياة، وتحكي عن طرائف أحد نزلاء موسم الصيف، وتحفظ الود مهما بعدت عنها. لكنني لاحظت تغيير الرسائل وأنا أستمع إلى الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة.

اتصلي بنا يا عزيزتي.

علينا التحدث معكِ.

ثم جاء صوت هنري. *إنه دودج يا إيميلين. أنا آسف...*

الحديقة

أسقطت سماعة الهاتف ووقفت عاجزة عن الحراك والتنفس.

لقد عاهدت دودج قائلة *سأعود مجددًا*- لكنني لم أفعل، وهو لم يعد موجودًا بعد الآن. تذكرت كيف وقف منتظرًا على الشرفة الأمامية حتى زال الخوف من قلبي، وكيف ساعدني على فهم العالم الجديد من حولي، وكيف اطلع وحده ولا أحد سواه على قصصي، حتى أسوأها، وكيف همست له بها بين شعره حتى لا يسمعها أحد غيره، وكيف ما زلت أشعر بيدي تمسك برأسه.

لقد وجدت حياتي الجديدة البرَّاقة هنا وغضضت الطرف تقريبًا عما مضى. لقد جثم على صدري ألم تخليَّ عنه، تمامًا كما تخليت عن كليو وتركتها وحدها في الليلة التي جاءت فيها الدبة.

من آخر الصالة، سمعت صوت جريان الماء يتوقف في حمام فيكتوريا. أدركت أنني لا أطيق فكرة التحدث إليها أو إلى أحد، فجريت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي. طرقت فيكتوريا الباب بعد لحظات قليلة، لكنني فتحت ماء الاستحمام حتى لا أضطر للإجابة عليها. وقفت أنتحب تحت الماء ويدي على وجهي حتى كدت أختنق بدموعي، حتى أخذ الماء في البرودة، ثم التجمد، ثم بدأت لدغاته تنهش في حرارة جلدي وأفكاري.

خرجت أخيرًا أرتجف وتكومت على السرير. وأخذ جسمي يهتز ليستعيد حرارته لكنني لم أستطع النوم. بدأت أشاهد علامات الوقت الملونة باللون

الأحمر في الساعة، تنقضي واحدة تلو الأخرى حتى نفضت اللحاف عني وألقيته على الأرض بجانب السرير وتكومت داخله.

***

سألتني فيكتوريا في الصباح، عندما كانت توليني ظهرها وهي تقف خلف طاولة المطبخ ورائحة اللبن الساخن والقرفة تعبق في الهواء: هل أنتِ بخير؟

قلت لها: بالطبع، ولم أستطع إخبارها، فقد انقلبت حياتي رأسًا على عقب خلال الأربع والعشرين الساعة الماضية، وأصبحت مجددًا لا أعرف من أكون. لم أشعر بأنني فقدت كلبي فحسب، لكنني فقدت الفتاة التي اعتدت أن أكون، بل ووقفت على حطام الصورة المثالية التي أصبحت عليها خلال الشهور القليلة الماضية.

ناولتني أمي كوب لاتيه فأمسكته، ونظرت إلى وجهي الذي لم ينجح أي مقدار من الماء البارد أو مساحيق التجميل في إخفاء شحوبه.

تابعت فيكتوريا الحديث قائلة: لقد عدت متأخرة مساء أمس.

جلت بنظري في شقتها الفاخرة وأنا أتخيل غرابة وجود دودج فيها وهو ينبش بأظافره في الأرضية الخشبية اللامعة وشعره متناثر على السجاجيد وآنية طعامه وشرابه مبعثرة في المطبخ. كنت قد ذقت لذة وجودي في هذا المكان الأنيق واستمتعت بشعور التنظيم والسيطرة العفوي، لكنني لم أرد الآن سوى الشعور بأنفاس دودج الساخنة على قدميَّ الحافيتين والفوضى التي زين بها حياتي.

نظرت إلى فيكتوريا، ولم أستطع حتى الشرح لها.

قلت لها: إنني بخير. كل ما في الأمر أنني ظللت أعمل حتى وقت متأخر.

***

ذهبت إلى الشركة، فاعتذاري عن الذهاب سيثير الكثير من الأسئلة، علاوة على أنني ظننت أن العمل قد يجعلني أفضل، فقد أحسست بالسيطرة عندما أكون بين العطور، وهو الإحساس الذي كنت بحاجة إليه في ذلك الوقت. لكنني لم ألاحظ أكان الناس يتحدثون عن المقال وأنا أسير خلال ردهات الشركة أم

لا فكل ما أردته هو الشعور المألوف الذي أحس به حول هذه الزجاجات وتوارد خواطرها في ذهني.

ذهبت إلى مكتبي وجلست على الكرسي محاولة التركيز على آخر مشاريعي الخاص بأحد مُصنِّعي السيارات. لقد أصبحت رائحة الجلد التي تفوح من هذه السيارات الجديدة لعدة سنوات زائفة، ترش أسفل المقاعد قبل التسليم. وأراد المُصنِّع الحصول على عطر جديد يصبح علامة تجارية عطرية تتفوق على الرائحة الموجودة وتنشر وعود اقتناء منتج ثمين حديث ومثير.

سرحت بخيالي مبتعدة عن رائحة الجلد، وركزت حول السيارات وبريقها وهيكلها وزجاجها، وعن الأزواج الذين يدور أولادهم حولهم. ترى هل أردت العثور على رائحة المنزل؟ أم الهروب؟ أنصت للاستماع إلى القصة، إلى شيء يدفع العملاء لإنفاق مدخراتهم، والشراء، لكن بلا جدوى.

لم أسمع سوى طنين فاتر، مكسو بالضباب. نظرت إلى الزجاجات أرجوها الحديث لكنها لم تنبس بكلمة واحدة. أدرت رأسي حتى يصبح ذهني أصفى وبت أحضر الزجاجات من على الرفوف وأفتحها. كنت ما أزال قادرة على *استنشاق* عبير كل منها، ومعرفة خواصها وتصنيفها في مكانها المناسب في أي من قوائم كلوديا، لكن سحرها وصوتها كان غائبًا.

تساءلت، أهذا ما يحس به الأشخاص العاديون. كيف يطيقون ذلك.

ربما إن بدأت العمل فستنزل الروائح على رأيي. بدأت مزج المقادير المناسبة للطبقات العليا والوسطى وطبقة القاعدة لكن الأمر كان أشبه بوضع لبِنات في مكانها الصحيح بالجدار، لا أكثر ولا أفضل من ذلك، وبت أمزج عطرًا تلو الآخر، بحركات مسرعة محمومة. لكنها كانت جميعًا بليدة وكاذبة، ككتاب خالٍ من الكلمات.

واصلت العمل لساعات، لكن الأمر لم يتحسن، ربما استطعت ابتكار عطور لا بأس بها، إلا أن أنفي كان قادرًا على معرفة الفرق على أي حال.

في نهاية المطاف، نهضت وشعرت بضرورة الخروج من المكان، والارتماء في أحضان الطبيعة والأشجار.

***

لم أكن قد عدت إلى الحديقة منذ أن قابلت فيكتوريا، ولم أدرك انقضاء الشهور وأنا أعمل بذلك المكتب الأبيض الصغير. كان سيري على رصيف المرفأ هو أقصى حد أقترب فيه من الطبيعة، لكنني توقفت حتى عن فعل ذلك منذ أن لمحت فيشر في شرفة الجزيرة.

استغرقت قرابة نصف الساعة وأنا أبحث وأقتفي الأثر قبل أن أنعطف في إحدى الزوايا وأرى المرج الأخضر مترامي الأطراف قبالتي. شعرت بالهواء يهم بالارتفاع والسباحة في ذلك الفضاء الواسع، إلا أنني أحسست باختلاف الوضع هذه المرة. لم أرَ سوى المساحة الفاصلة بدقة بين الأشجار، ولم ألحظ الطين، بل لاحظت الطرق الأسمنتية المنحنية بإتقان، واللافتات التي تشير إلى أين يجدر بك الذهاب وكيف تسير، واسم كل شجرة وخميلة[1].

غمرتني السعادة من قبل عند مجيئي إلى الحديقة لأنها كانت أشبه بلمحة عن المنزل، لكنها ذكرتني هذه المرة ببقالة فيكتوريا المفضلة، التي كانت الطماطم فيها تزرع في بيوت زجاجية عليها ملصقات تقول كمية محدودة، والتي يتم بيع كوب واحد من الشوفان العضوي فيها في جرار تعليب مزينة بشرائط حمراء مربعة كأنها تذكار أو قربان. كانت الطبيعة الحقة يكسوها الطين الذي ينمو أسفل الأشجار المتشعبة ويعلق في دعة بأقدام سروالك عندما تسير خلالها، ويرمح بها كلاب يغوصون في ماء البحر ويحملون الروائح معهم إلى المنزل نزولًا على رغبتك أو دونها.

تساءلت عما كنت أفعله بالمدينة وأنا أجري من مكان إلى آخر، أطارد فيشر وألحق بأمي وأملأ فراغ وحدتي بتأكيدها على كوني فتاة مميزة. نعم كنت كذلك، فقد ابتكرت عطورًا لا مثيل لها، لكنني فعلت ذلك لنيل استحسانها، بل وتلاعبت بأناس آخرين في خضم ذلك. وفي نهاية المطاف، اتضح لي أنني لم أظل مخلصة للروائح التي أحببتها ولكلبي بالمقدار نفسه، وأنني فقدتها جميعًا الآن.

كان العالم الذي نسجته الكتب الخيالية التي قرأها لي أبي في صغري بسيطًا، وكانت الحكايات بين طياته منطقية، ينتصر فيها الأطفال على زوجات الآباء والملكات والرجال الأقزام على الأشرار، وتكون فيها النهاية واضحة لا مراء فيها.

(1) الخميلة: الشجر المجتمع الكثير الملتف الذي لا يُرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه.

لكن ما العمل يا ترى عندما تصبح أنت من تخليت عن الآخرين وتركتهم في الغابة؟ وعندما تبتكر أنت الجرعات؟ ترى هل ترجح كفة ميزانك لأنك لم تقصد حقًّا فعل ذلك؟ وأنك قد وقعت فريسة للندم؟

***

كانت الأفكار تعبث بذهني وأنا أسير على الطريق الخرساني حتى وجدت نفسي بجوار كشك قديم، باقٍ من الزمن الغابر الذي كانت فيه حديقة بها حظيرة صغيرة للحيوانات، بعضها للركوب وأخرى للمشاهدة من خلف السياج. بسطت البجعتان اللتان بقيتا سيطرتهما على البركة بعد أن أصبح ثمن الإبقاء على المهور والدجاج والدب الصغير أغلى مما ينبغي.

امتدت يد الطبيعة إلى نصف الكشك الجميل الحزين. رأيت سلسلة من الملصقات الترويجية الباهتة تعرض في أطر زجاجية حول شباك التذاكر فاقتربت لرؤيتها بشكل أفضل. كانت التصميمات الخرافية واللطيفة من زمن آخر، تتوج فيها المهور المبتهجة بتيجان من الريش، ويتفاخر فيها الدب بالوقوف على كرة مخططة، إلا أنني أشك حقًّا بحدوث خدعة كهذه.

عندما هممت بالانصراف، رأيت خيالًا يتحرك منعكسًا في نافذة شباك التذاكر. ظننتها أمي ببشرتها ناصعة البياض وخصلاتها المموجة الداكنة وهي تلتفت رافعة ذقنها لتهم بالانصراف، كما رأيتها تفعل في العديد من المرات عندما لا ينال عطر ما أو موظف ما أو رأس من الخس استحسانها. لكنني لم أرَ ذقن أمي هذه المرة. بل ذقني أنا.

بعد أن أمضيت العديد من الشهور أتمنى أن أصبح صورة عنها، وها أنا قد فعلت، لم ترق لي الفكرة.

جعلني ذلك أفكر في الليلة التي نفرت فيها من فيشر ومن الحالة التي ظننته عليها. عندما رأيته واقفًا في شرفة الجزيرة حاملًا السيجارة إلى يده وهو يحدِّق إلى الماء، كما لو كان صورة لوالده، ولم أمنحه فرصة للتفسير.

لكنني تساءلت الآن، ترى في أي شيء اختلفت عنه؟ وما معنى ألا أتعرف حتى على انعكاس صورتي؟

***

احتجت إلى رؤية فيشر، فخرجت من الحديقة واتجهت إلى رصيف المرفأ وأنا أعلم أنني أخاطر بنكئ جراحي لكنني لم أبالِ، فقد خسرت دودج بالفعل، وكنت على شفا خسارة نفسي كذلك. لذلك، قررت ألا ألدغ من الجحر ذاته ثلاث مرات.

كانت الساعة قرابة الخامسة عندما تركت المرج الأخضر الفسيح واتجهت إلى ضوضاء المدينة. مشيت عبر المباني الشاهقة والسيارات التي تسير على الطريق بسرعة جنونية وعندما وصلت إلى رصيف المرفأ، تنفست الصعداء حينما أحسست بالممر الطيني أسفل قدمي، حتى وإن لم يقارن بشعور المنزل.

لم أكن متأكدة مما سأفعله عند ذهابي إلى المشرب، وما إن كان فيشر ما يزال يعمل هناك بعد مرور هذه الشهور كلها، وما سأقوله له إن ظهر فجأة أمام عيني بشحمه ولحمه؟ أمضيت وقتًا كثيرًا أحضر الحجج وأفكر في مآلات الأمور.

لم تكن لدي أدنى فكرة إن كنت أستطيع التناغم مع هذا كله. لذلك، عندما وصلت إلى المشرب، تسللت عبر الباب الخشبي الثقيل وتواريت عن الأنظار. كان فيشر يقف خلف طاولة المشرب. مجددًا.

لقد كان كما رأيته آخر مرة، يعمل بالطاقة والحيوية نفسها، إلا أنني لاحظت أن شعره قد قُص من قريب. وعندما انحنى فيشر لإحضار شيء ما، تمكنت بهدوء من الرجوع إلى آخر الغرفة وجلست على كرسي في زاوية مظلمة أراقبه بتركيز شديد، رافضة التفكير فيمن كانت أصابعها تمسد خصلات شعره الأصهب. أحضرت لي نادلة قوية البنية، ينتشر الوشم على ذراعها، وتتحدث باللهجة الأمريكية العادية كوبًا من الماء. نظرت إليَّ ثم تركتني ومضت.

كان المكان مزدحمًا كما كان من قبل، لكنني أمضيت الآن وقتًا أكثر في النظر حولي. رأيت الزبائن – مزيج غريب من بنَّائي القوارب وعمال البناء ومهندسي البرمجيات الشبان المعاصرين الذين يُدفعون كما يدفع الماء الحطام ويقفون على حافة أماكنهم ليثبتوا أحقيتهم بالمكان – يصطفون أمام طاولة المشرب المصنوعة من خشب الماهوجني. شعرت بالضيق مما رأيت،

لكن فيشر لم يبالِ على أي حال، وتحركت يداه بسرعة وقوة بين الزجاجات، وعندما بت أفكر بصحة قرار عودتي، رأيته يتوقف لوهلة فقط ليتأمل الضوء الساطع على السائل الفوار الرقراق الذي يصب في الكأس. عرفت أن فيشر الذي عرفته لم يطوه الزمان في طي النسيان، لذلك قررت الانتظار.

بعد عدة دقائق، دخل رجل قوي البنية، لكنه نحيل، من الباب الأمامي وبصحبته كلب أسود كبير. بدا الكلب هادئ الطباع بخلاف صاحبه. تعجبت، لا لأن الكلب وصاحبه كانا ذوَي طباع مغايرة، كما هي الحال غالبًا بين الكلاب ومُقتنيها، ولكن لأنني لم أظن أن الحيوانات مسموح لها بدخول المشارب. لكن على أي حال، لم يبدِ أحد اعتراضه وتجول الكلب عبر الطاولات على نحو مألوف. كان الكلب في حجم دودج تقريبًا. بلون مختلف، لكنني كنت أتوق للشعور بملمس شعره على أصابعي، وتمالكت نفسي لئلا أفعل ذلك.

رفع الكلب أنفه ليشم الهواء ثم سار وجلس بالقرب مني.

أطلقت لكفي العنان لأمسد ظهر الكلب قائلة: ما اسمك؟ رفع الكلب رأسه ونظر بعينيه البنيتين الحانيتين ووضع ذقنه على ركبتي، وبت أشعر بالدموع تتجمع في مقلتي.

قال صاحب الكلب مستمتعًا بصوت مرتفع جدًّا، أكثر من قدرتي وقدرة المكان على التحمل: هل يعجبكِ؟ رفعت وجهي فرأيت وجهه عن قرب شديد. لاحظت الكدمات الزرقاء الداكنة حول عينيه والابتسامة على وجهه. ومن خلفه، لاحظت حركة ما ورأيت عين فيشر تتسع عندما رآني.

قلت للرجل وأنا أعتدل في جلستي: إنه كلب لطيف.

قال الرجل وابتسامته تزداد اتساعًا: أنا مروض جيد. ويمكنني ترويضكِ. علت ضحكة الرجل، جاذبة انتباه الجميع، لكن فيشر ظهر هذه المرة بالقرب منه.

نظر فيشر إليَّ نظرة خاطفة ثم قال للرجل: توقف عن هذا يا فرانك.

توجه فيشر إليَّ قائلًا: إيميلين. فشعرت لوهلة بالحنين المختنق في صوته، وودت أن أمسكه فلا أفلته، وأن أمسك بفيشر وأهرب بعيدًا. لكنني لم ألحظ نبرة صوته وحدي.

رفع فرانك أحد حاجبيه ثم قال مقتربًا مني أكثر: بربك يا فيشر، إنني أتحدث فقط إلى الفتاة. إنها معجبة بكلبي... كان فرانك يبتسم ابتسامة خبيثة هذه المرة.

رفع فيشر قبضة يده بسرعة لكن فرانك أمسك بها، ووقفا هناك متشابكي الأيدي بسببي وهما يحدِّقان إلى بعضهما. ضرب الهدوء الغرفة، وشعرت بأنفاس الكلب الساخنة على رجلي.

هرعت امرأة أكبر سنًّا لها شعر برتقالي للتدخل وضربت يديهما وأنزلتها بصدمة مفاجئة أكثر من كونها قوية.

قالت المرأة: ماذا قلت لك بشأن هذا يا فيشر؟

قلت لها وأنا أحاول الوقوف رغم ضيق المكان: مهلًا.

نظرت المرأة إليَّ وقالت: ومن تكونين...؟

قال فيشر ملتفتًا إلى المرأة: دعيها وشأنها يا إيزي.

أدارت المرأة رأسها باشمئزاز وقالت: حقًّا يا فيشر؟ هل تحاول الزج بي في هذا الهراء؟ حسنًا، إلى الخارج أنت وعشيقتك. سأتولى أنا أمر المشرب الليلة.

ابتسم صاحب الكلب ابتسامة تنم عن الانتصار، فأطل أحد عمال الرصيف من عند المشرب قائلًا: بربكِ يا إيزي، لا تقسي على الفتى.

تجاهلت إيزي الرجل، ثم نفضت إحدى المناشف باتجاه المشرب من دون أن ترفع عينيها عن فيشر، وقالت: لا يهمني كم تعمل بجد، هذا آخر تحذير لك. ولا تعد حتى تستطيع السيطرة على نفسك.

أمسك فيشر بيدي ثم انطلق نحو الباب، لكنني التفت فرأيت عين الكلب الداكنة الواسعة تراقبني.

القارب

نفضت يدي عن فيشر بمجرد خروجنا وجريت نزولًا على درجات السلم الخشبية نحو المياه.

قال فيشر وهو يحاول اللحاق بي عندما وصلت إلى رصيف المرفأ: انتظري. التفت إليه.

قلت وأنا أتنفس بصعوبة: لقد قلت إنك لا ترغب أن تكون مثل والدك. وقد انتظرتك، وبحثت عنك، وفي النهاية، أجدك هنا، تعمل في مشرب؟ وتشتبك في عراك؟

احمر وجه فيشر، ثم قال: لقد كنت أحاول حمايتكِ.

قلت لنفسي، *والآن تتحدث كوالدتك.*

قلت لفيشر وأنا لا أحاول تجميل المرارة في نبرة صوتي: وقد نجحت في ذلك بالطبع.

حدق فيشر إلى وجهي، وعيناه تتأملانه وتحاولان استيعاب غضبي ومساحيق التجميل التي أضعها ثم قال: لقد تغيرتِ.

- لم يكن لدي خيار.

انطلقت الكلمات من فمي كانطلاق السهم، فتراجع فيشر للخلف كما لو كانت قد أصابته. كنت أعرف أن لا حقَّ لي في الحديث بهذه القسوة، فأنا لم أكن منزهة عن الخطأ، فقد كنت السبب في حدوث قدر كبير من هذا.

أرخى فيشر منكبيه ثم قال: أنا آسف.

سقطت الكلمات من فمه على الرصيف أمامي وتكسرت بوقع متهدج حزين، وبت بتلك البساطة، أرى نفسي مجددًا، فتاة في الثانية عشرة، تطل من قصر الفضيلة العاجي وتنصب لأبيها ميزان الحساب.

لقد كذبت يا أبي. لا وجود لحوريات البحر.

تذكرت كيف خر القصر على رؤوسنا جميعًا، على أبي، وعلى كليو، وعليَّ، لأنني لم أنتبه سوى لكبريائي وغضضت الطرف عما سواه. وها قد كنت، أعيد الكرة ذاتها مجددًا.

وقف فيشر قبالتي منتظرًا، ثم قال: ماذا تريدين مني أن أفعل؟

أخذت نفسًا طويلًا مرتعشًا لأهدئ ثورتي، وشعرت بروائح جسدينا تقترب من بعضها، وتبحث، وتندس تحت ستار كلماتنا، غير عابئة إطلاقًا، بالطرق التي يحاول بها البشر إلحاق الألم ببعضهم. انتظرت لحظة، لأسمح للهواء بالطواف حولي، ثم عرفت، واهتديت إلى الأسئلة التي لم أسألها لأبي، والتي كان من شأنها تغيير كل شيء.

- أخبرني عن السبب.

***

أصبح كل شيء ساكنًا، ثم هم فيشر بالحديث، ببطء وعلى مهل، كما لو كان يهبط رويدًا من حافة عالية: حسنًا. لكن، أيمكننا الذهاب إلى مكان آخر؟ أود أن أريكِ شيئًا ما.

أومأت برأسي، فسار بي فيشر في درب على أحد جانبي قناة واسعة تتجه خارج المرفأ بعيدًا عن وسط المدينة. لم نتحدث لأن كل شيء بدا خارجًا عن المألوف، ولأننا كنا بحاجة إلى الوقت ليلملم كل منا شتات نفسه في خضم كل ما حدث بيننا. أنصتُ إلى وقع قدميه المُنتظمتيْن المألوف، وتساءلت عما تبقى من فيشر الذي عرفته في قرارة ذلك الرجل الذي كان يسير إلى جانبي. شعرت بحرارة جلده تقترب مني ثم تبتعد، عندما كانت يداه تتحركان بانتظام مع خطوته، فأردت أن أمسك بيده لكنني بت أفكر فيمن أمسك بها غيري.

عندما كنت على وشك السؤال عن مقدار المسافة التي سنقطعها، انفتح الطريق على شارع واسع يمتد بين صف من البيوت الأنيقة ورقعة خضراء مدهامة تنحدر نحو القناة. أما في الماء، فرأيت مجموعة من القوارب الخربة منها قاطرة مهجورة وبعض سفن الصيد المعطوبة وزوجين من اليخوت البالية ونصف دستة من القوارب الشراعية التي تشرئب سواريها كصف من الأصابع التي تشير بوقاحة إلى البيوت الموجودة أعلى التلة. شعرت بالنفور من المنظر على نحو ما، لكنني تذكرت معنى الشعور بالاختلاف على نحو آخر مغاير تمامًا.

سار بي فيشر بالطبع، باتجاه القوارب.

عندما وصلنا إلى حافة الماء، صفر فيشر، فأطل رجل برأسه من أقرب القوارب الشراعية لنا، الذي كان يتدلى من ساريه علم أسود هزيل، ونُشر على طول سياج القارب غسيل مبتل.

صاح فيشر قائلًا: عبارة؟ هبط الرجل من على سلم إلى زورق، ثم اتجه نحونا والمجاديف تصفع المياه.

سألت فيشر: هل سيتسع ذلك الشيء لنا؟

قال لي فيشر مطمئنًا: لا تقلقي. شق القارب طريقه بصعوبة حتى وصل إلى الشاطئ ثم قال فيشر: هذا جيم. قائد عبارتنا.

قفز جيم ذو الشعر الأشعث والذراع النحيلة من القارب، وذكرني بالرجال الذين كانوا يقفون أحيانًا على ناصية شركة أنفاس، والذين رفضت فيكتوريا إعطاءهم المال وهي تقول لي بينما نمر بهم: يجب *على الناس الكد لكسب لقمة العيش، لا الاعتماد على الآخرين*.

التفت جيم إلى فيشر الآن، وقال له: هل أحضرت الجعة معك؟

- لم أستطع، لقد طردت. سأحضرها في المرة المقبلة.
- إنك تعلم أن الأمور لا تُجرى بهذه الطريقة يا رجل.

نظر جيم إليَّ، فلاحظت وجهه المتغضن مثل لحاء شجرة الأرز من قرب ثم أمال رأسه وقال: ستفلت مني هذه المرة، لأنني معجب بخصلات شعرها المموجة.

تهيبت ردة فعل فيشر لكنه ابتسم فحسب ثم قال: شكرًا لك أيها الرجل العجوز.

نظرت إلى الزورق الذي بدا رثًّا مثل صاحبه فقال لي فيشر: لا بأس به، صدقيني. مد جيم يده نحوي وقال مشيرًا إلى المقعد الخلفي: آنستي.

أمسك فيشر بالمجاديف، فرأيت حين اقتربنا من القوارب أن حالتها كانت أسوأ مما ظننت، فالصدأ كان ضاربًا في جوانبها، والأقمشة الزرقاء تغطي أسقفها إلى أجل مسمى، والنوافذ مغلقة بالكرتون. رأيت زوجين من المراكب الشراعية التي ما تزال بها أشرعة، لكنني أحسست أن كليهما لم يرفعا مراسيهما منذ نحو قريب.

لم يأخذ الأمر من فيشر سوى ما لا يزيد على عشر تجديفات للدخول بنا في عُرض الماء. وعندما وصلنا، ربط جيم الزورق، ثم تسلقنا جميعًا السلم المعدني المهتز إلى قاربه.

قال جيم عندما وصلنا بفخر واستبسال: مرحبًا بكم في الهاوية.

من مكاني هذا، استطعت رؤية القوارب مرتبة حول رصيف عائم مصنوع من ألواح التحميل والخشب الرقيق، ورؤية أربعة كراسي بلاستيكية غير متشابهة تحيط بآلة شواء، وأصيص من الفخار به زهرة إبرة الراعي الوردية، كلها مشتريات مستعملة، تتكرم بها الحياة على أهل هذا المكان.

قال فيشر مبتسمًا: شكرًا يا جيم.

ثم أمسك يدي برقة هذه المرة وقال لي: لقد وصلنا، ثم قادني عبر سطح قارب جيم إلى لوح خشبي عريض وصولًا إلى قارب قطر قديم، بهتت زخرفته التي كانت يومًا بيضاء وبنية، وامتزجت حتى تحولت إلى لون رمادي مبهم. وتخيلت أن لو بقي جسم القارب الطويل ذلك قطعة من الخشب، لنبتت منه أشجار أخرى الآن.

- هل تعيش هنا؟

كرر فيشر عبارتي مبتسمًا من أحد جانبَي فمه: لم يكن لدي خيار.

بدا فيشر مختلفًا في هذا المكان، وأهدأ على نحو أكبر، كما لو كان قد أزال قناع القسوة الذي رأيته في المشرب واليأس الذي رأيته على رصيف المرفأ، وبدا يقف على أرض ثابتة حتى وإن اهتز القارب متأثرًا بالتيار.

فتح فيشر باب قمرة القارب وانحنى إلى الداخل، فلحقت به بحذر ثم لم أدرِ ما أقول من هول ما رأيت. كان القارب من الداخل أشبه بتأمل ساعة متقنة الصنع، كل شيء مرتب في مكانه بحب، والخشب والمعدن يلمعان، والأسطح كلها نظيفة. كانت الكتب تصطف على الرف، وعلقت كل من زجاجات التوابل الخمس، والقِدر والمقلاة في علّاقاتها المخصصة. خلف المطبخ، اتسع المكان لغرفة ضيقة بها سرير مرتب بعناية عليه غطاء له نقشة مربعة.

قلت، وقد ودعتني شكوكي وغضبي، وعدنا نحن الاثنان إلى طبيعتنا التي اعتدنا أن نكون عليها، كطفلين ينسجان عوالم خاصة بهما: يا للروعة.

ابتسم فيشر ابتسامة عريضة ثم قال: لقد فعلت ذلك بنفسي.

قلت لفيشر: المكان جميل. لكن كيف هو الوضع؟ أشرت إلى القوارب وإلى البيوت الفخمة حولنا، وأنا لا أستوعب كيف يتعايشان جنبًا إلى جنب.

- إننا نعيش خارج حدود المدينة. قبل بضع سنوات، بدأ رجال أغنياء بالتخلي عن قواربهم القديمة هنا وشعر بعض الناس بالأسف لتركها تضيع هباءً. إننا نشبه حيوان السلطعون الناسك[1] على نحو ما.

ابتسم فيشر. ثم أضاف: يود الجميع طردنا، لكنهم لا يستطيعون حتى الآن معرفة الدائرة القاضية التي نتبع لها. لذلك نحمد الله على نعمة البيروقراطية.

مال فيشر ناحية إحدى الخزانات ثم قال: أتريدين شرب شيء ما؟ يمكنني أن أُضَيفكِ الماء، والماء أيضًا.

***

(1) على عكس السلطعونات الأخرى التي تتمتع بقشرة خارجية صلبة تكسو أجسادها وتنمو معها، تكسو قشرة صلبة الجزء الأمامي فحسب لجسم السلطعون الناسك أما الجزء الخلفي من جسده فهو أملس ناعم وعرضة للإصابة بالأذى، لذا يضطر لإخفاء بطنه الرخو داخل أصداف هجرها سكانها السابقون، مضطرًا التنقل من صدفة إلى أخرى في أثناء نموه.

ذهبنا إلى الخارج وجلسنا، بهدوء لوقت طويل، على السطح المتداعي ونحن نستند إلى حائط القمرة وننظر إلى القناة. كانت السماء تشع بضوء أواخر الصيف، وبت أسمع هسهسة القوارب حولنا وأصوات الرجال والطهي والعودة إلى القوارب. كما رأيت لمحة عن حياة البيوت المصطفة على القناة من نوافذها المضيئة. رأيت التقويم الذي يحسب الأيام قبل حلول عيد الميلاد، وامرأة تهدهد طفلًا صغيرًا تحمله جيئة وذهابًا، وزوجين يجلسان على طاولة، وفتى يلعب مع كلبه. كان الأمر أشبه بالنظر إلى كل هذه القصص والحيوات عبر عدسة صغيرة، فلم أدرِ أنها تشكل العالم بأسره للشخص الذي يعيشها. وبت أفكر أن الناس ربما قد جُبِلوا على ذلك، أن يظنوا أنهم قد ارتووا من نهر المعرفة، بشربة ماء واحدة.

التفت إلى فيشر وقلت له: حسنًا. أخبرني.

ارتشف فيشر الماء ببطء ثم وضع الزجاجة جانبًا وقال: لا أدري. انتظرته، فهز كتفيه ثم قال: أظن أن الأمور بدأت على نحو جيد. فقد حصلت على عمل في المشتل ووجدت غرفة في سكن مشترك. لم يكن الوضع أفضل ما يكون، لكن هذا ما استطعت تدبيره.

تأملت القوارب حولنا، ومصيرها المحتوم في قاع المحيط، عاجلًا كان أم آجلًا، وماذا كان فيشر يعني بقوله إن الوضع لم يكن *أفضل ما يكون*.

سألت فيشر وأنا أهيئ نفسي للإجابة: لماذا توقفت عن إرسال الخطابات لي؟

زفر فيشر فحسب ثم قال: لقد ظننت أن الأمور ستغدو مختلفة، تعلمين، حالما أبتعد عن أبي. لكن، يبدو أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. نعم، كانت لدي خبرة في زراعة الخضراوات لكن المشتل كان يختص في زراعة نباتات ذات أسماء رنانة و*أعمال الزينة والتنسيق*. تحولت نبرة صوت فيشر إلى ازدراء وهو يقول: كان شعور الوحشة من جراء ذهابي إلى المكان ذاته يوميًا وأنا لا أعرف ماذا أفعل مؤلمًا، فأنا لم أنجح في أي شيء فعلته. كما أن المدير كان يبغضني من البداية وقال لي أن لا وقت لديه لتدليل الأطفال.

قاطعت فيشر بسؤالي قائلة: وماذا عن الفتاة؟

نظر فيشر إليَّ متحيرًا وقال: أي فتاة؟

- الفتاة التي تسببت في طردك.

ضحك فيشر نوعًا ما ثم قال: إذن فأنتِ تكترثين فعلًا. يا إلهي، حقًّا يا إيميلين. لقد كانت إحدى موظفات المشتل، وكان المدير يتحرش بها. وأصبح دفاعي عنها العذر الذي جاء المدير على طبق من فضة لطردي.

لقد كنت مخطئة طوال كل هذه الشهور الماضية، وأمضيت الكثير من الوقت أنسج أحداثًا في خيالي، ونار الغضب والاشتياق تأكلني.

- لماذا لم تخبرني؟

- لقد طردت يا إيميلين. لقد فشلت في الشيء الوحيد الذي ظننت أنني أستطيع فعله. تُرى كيف كان يجدر بي إخباركِ بذلك؟

- كنت سأتفهم.

- بالطبع، ستتفهم الفتاة التي ترتدي سروال جينز بمائتي دولار.

اعترتني موجة من الخزي عندما تذكرت المنزل الذي أعيش به مقارنة بذلك القارب، وعندما تذكرت ما جنته يداي.

أضاف فيشر: برأيي أن لديكِ ما تقصينه عليَّ بدوركِ.

قلت لفيشر: إن سروالي الجينز لن يجعلك تفلت بسهولة، حتى وأنا مدركة أن فيشر كعادته، استطاع معرفة الكثير عني، حتى أكثر مما أرغب بالإفصاح عنه.

أدار فيشر رأسه وقال: حسنًا، لم أُردكِ أن تعرفي، هل هذا كافٍ؟ وبمرور الوقت، أصبح من السهل عليَّ العيش هنا -أن أصبح على طبيعتي- وأنا أتظاهر بعدم وجودكِ.

تذكرت فجأة الضوء الأحمر لهاتف فيكتوريا والرسائل التي تكدست عليه، والشتات الذي عشته بين ذاتي القديمة والصورة الجديدة مني.

- ماذا حدث إذن؟

- لقد طردت من المسكن كذلك لأنني لم أستطع دفع الإيجار. ثم بت أهيم على وجهي في المدينة وأنا أفكر في كل الصفات التي اعتاد أبي أن ينعتني بها ونفسي تحدثني أنه ربما قد يكون محقًّا. لم أستطع العودة إلى المنزل بهذا الوضع.

ضحك فيشر على نحو بدا اختناقًا أكثر منه ضحكًا ثم قال وهو يهز كتفيه: بصراحة، لم أستطع العودة إلى المنزل على أي حال، لكنني رأيت ذلك المشرب حينها ودخلت إليه. بعد ذلك، اتضح أنني موهوب في ذلك المجال، ففي البداية كنت أخدم الطاولات، وبعدها دربتني إيزي لأكون ساقيًا.

نظر فيشر حوله ثم قال: ومن ثم، أخبرني أحدهم عن هذا المكان، وعن وجود قارب شاغر. أعلم كيف يبدو المنظر، لكنكِ ستندهشين. إن جيم على سبيل المثال كان مهندس طيران، لكنه فقد زوجته بعد صراع مع مرض السرطان وانقلبت حياته رأسًا على عقب بعد ذلك. أشار فيشر برأسه نحو سفينة صيد قديمة ثم قال: وأما جيمي فقد هرب من المنزل مثلي تمامًا لأنه يريد أن يصبح موسيقيًّا. إنه يتحدث دائمًا عن عيش حياته بعفوية ويحاول أن يقنعنا جميعًا أن نصبح نباتيين.

- لكنك تأخذ راتبًا الآن، أليس كذلك؟

ندمت على نطق هذه الكلمات فور خروجها من فمي، ورأيت الوجوم على وجه فيشر.

قال فيشر: في الواقع، لقد أعجبني المكوث هنا، فأنا أستطيع توفير لقمة العيش لكثير من هؤلاء الرجال مما أكسبه. ويبدو لي هذا الاستخدام الأمثل لمالي.

عبر القناة أمامنا قارب جديد ناصع البياض، ثم أخذ يبطئ في سرعته حينما بدأ الناس على متنه بالإشارة إلى طوق القوارب المتهالكة. سحبت امرأة ما هاتفها ووجهته نحونا والتقطت صورة تلو الأخرى. شعرت بالضيق يضرب في أوصال فيشر.

قال فيشر: أتعرفين ماذا تعلمت من مهنتي؟ إن الناس لا يطلبون المشروبات التي يرغبون حقًّا بها. أضاف فيشر وهو يشير إلى المرأة التي كانت تلتقط لنا صورة أفقية هذه المرة: هذه المرأة مثلًا، طلبت كأسًا من نبيذ شاردونيه، لكنها ستتجرع كأسًا من الويسكي إن قُدمت لها.

وقف فيشر وصرخ قائلًا: إننا لسنا مزارًا سياحيًّا! وضعت المرأة يدها جانبًا ثم تحرك القارب مسرعًا.

ثنيت ركبتي وأحطتها بذراعي فنظر فيشر نحوي محرجًا ثم عاد للجلوس قائلًا: عذرًا.

جعلتنا قوة اندفاع القارب الذي تحرك بعيدًا نهتز قربًا وبعدًا عن بعضنا.

قلت لفيشر: كان يجدر بك إخباري.

قال فيشر بنوع من المرارة: حقًّا؟ ألا تظنين أن هذا نوع من النفاق؟ انظري، لقد كنت مخطئًا في عدم الكتابة لكِ. لكنني أخبرتكِ كل شيء ترغبين في معرفته لأنني *آسف*، لكنكِ ترمينني بكثير من الحجارة من بيتكِ الزجاجي الكبير يا إيميلين. فقد بدأت أنتِ الأمر.

تراقصت أمام عيني صورة فيشر وعلامات الحيرة والألم بادية على وجهه، وهو يقف على المسار المؤدي إلى الجرف، وكيف التفت راحلًا.

قال لي فيشر: لقد أخبرتكِ كل شيء، مجددًا. لكن هل ستفعلين المثل من أجلي؟

كنت ما أزال غير مستعدة، حتى وإن كان إخباري لفيشر بأسراري هو سبب مجيئي إلى المدينة بالأساس.

ومع ذلك، كنت أعلم أنه محق، كما علمت آخر مرة طلب مني فيها ذلك. ربما لن يقطع فيشر صلته بي تمامًا، لكن الرابطة التي تجمعنا ستختفي. لقد سئمت خسارة كل ما أحببت تقريبًا بسبب الأسرار، خسارتي لكليو ولأبي وللجزيرة وللقصص التي كانت تُسر لي بها الروائح، كما بت على وشك خسارة المزيد.

مد فيشر يده وأمسك بيدي قائلًا: أخبريني يا إم.

قلت لنفسي *لا. لا، لا، لا.*

لكنني أخذت نفسًا عميقًا، وقلت في سكون الماء حولنا: لقد قتلت أبي.

المشروبات

أسدل الظلام ستاره ونامت أعين السماء بينما أخذني الحديث أنا وفيشر. سردت الأمر كله من البداية وأخبرته عن آلة أبي وعن أوراق العبير والدبة وكليو وعن إلقائي بالزجاجات من على الجرف.

- أنتِ من ألقيتِها؟ تلك الزجاجات التي جرفتها الأمواج إلى الشاطئ؟

أومأت برأسي فقال فيشر متعجبًا: إذن فأنت صاحبة الزجاجة التي وجدتها.

- نعم. لقد كنت أظن أنني أفعل الصواب وأن أبي سيوافق على مغادرة الجزيرة إذا لم يعد للزجاجات وجود.

لم أكتفِ بذلك فحسب، لكنني حررت كلماتي التي أوثقت فيها الأغلال منذ زمن بعيد، حتى بت أذوق لذوعة الصدأ على لساني. أخبرته عن الزجاجة المختومة بالشمع الأزرق، وعن سقوط أبي في الماء، وعن انتظاري له على الشاطئ، وعن إحراق أوراق العبير في الكوخ.

عندما توقف سيل كلماتي المتتابعة، خيم علينا الصمت لفترة وبت أتساءل عما سأفعل بعد أن انزاح ذلك الهم من على صدري.

- لماذا تركتني يا فيشر؟

قال فيشر وهو يحدِّق إلى البيوت المصطفة عبر القناة والحياة المثالية التي توحي بها: كيف كان يجدر بي البقاء هناك؟ لم أستطع المجازفة بالبقاء فقد بت أتحول لنسخة منه كلما طال بقائي في المنزل. ولم أقدر على المجازفة بأن يطالكِ الشرر من هذه النار المتأججة.

عند إذن، أخبرت فيشر أخيرًا بما قالته لي والدته وهي تقف قرب نافذة الكوخ الأحمر في الخليج.

عندما انتهيت، ضمني فيشر إليه ووضع خده على شعري وهو يقول: يبدو أننا نكرر أخطاء آبائنا.

- ما رأيك لو توقف كل منا عن ذلك؟

استطعت الشعور بإيماءة رأسه لكنه قال: إن الأمر ليس بهذه السهولة يا إم.

- حسنًا. إذن ما رأيكِ أن نبدأ بخطوات بسيطة.

انحنيت في اتجاهه ثم سحبت علبة السجائر من جيب قميصه وسحقتها بيدي.

ابتعد فيشر عني ثم نظر إليَّ والابتسامة في طريقها إلى وجنتيه ثم قال: هل يعني هذا أننا سنتخلص من سروال الجينز الذي ترتدينه هذا أيضًا؟

***

مر الوقت حتى جاوزت الساعة 3 صباحًا فأخبرت فيشر بوجوب رجوعي إلى المنزل. كسر تجديف فيشر لإعادتنا إلى الشاطئ الصمت الذي أطبق على المكان. ربط فيشر الزورق تحت الرصيف ثم سرنا في الطريق الفسيح نهتدي بضوء النجوم.

عندما وصلنا إلى بناية فيكتوريا البيضاء، ذات النحوتات المنمنمة والأبواب الزجاجية الكبيرة، حدق فيشر إليها في اندهاش.

سألني فيشر: هل تعيشين هنا؟ فتذكرت شعوري أول مرة رأيت فيها هذه البناية وكيف بدت كالقلعة.

قلت لفيشر: هذه قصة أرويها لك في ليلة أخرى.

ضحك فيشر في هدوء قائلًا: لا أظن أنه قد يُسمح لي حتى بالدخول إلى مدخل البناية.

ضممت فيشر ثم قلت له وأنا أخرج المفاتيح من جيبي: سأعرج عليك غدًا. حظًّا سعيدًا مع إيزي.

قال فيشر بابتسامة مقتضبة: ستعيدني إيزي إلى وظيفتي ثانية. إنها تحب الصراخ فحسب بقدر ما أحب أنا الشجار.

- يا إلهي، فيشر...

- سأتوقف أعدكِ.

***

دخلت الشقة بهدوء قدر ما استطعت لكن دون فائدة، فقد كانت فيكتوريا تجلس على الأريكة وبيدها كتاب مطوي.

قالت فيكتوريا وهي تنهض: أين كنتِ؟ لقد كنت قلقة.

نظرت إلى شعرها المتشابك وإلى نظراتها المنهكة، فأردت أن أخبرها بما حدث لكنني كنت أعرف كيف ستكون وجهةُ نظرها في استعداد فيشر للشجار في المشرب، وعن تجديف جيم بنا ليوصلنا إلى تلك القوارب المتهالكة، وكنت غير مستعدة على الخلط بين هذين العالمين بعد.

قلت لها: لقد كنت في العمل. لقد انشغلت ولم أنتبه للوقت.

اقتربت فيكتوريا مني ورأيتها تأخذ نفسًا عميقًا ثم قطبت حاجبيها لكنها اكتفت بقول: حسنًا. احصلي على قسط من النوم.

***

في اليوم التالي، لم أحاول حتى إحراز تقدم في ابتكار عطر السيارة، وبت أجلس في مكتبي أسترجع كيف أنصتَ فيشر إليَّ وأنا أبوح له بأسراري في الليلة الماضية، وكيف استقبل كلماتي ووعاها حتى عندما أخبرته بأسوأ ما فيَّ.

كنت قد أخبرته في أثناء الكلام «*لا أدري كيف أتصرف بشأن كوليت وهنري. أنا لم أتصل بهما بعد حتى. كيف سأتجرأ على التحدث معهما بعد كل ما فعلت؟*»

قال لي فيشر «*كيف استطعت التحدث إليَّ إذن؟*»

كان فيشر محقًّا، لذا، رفعت سماعة الهاتف في مكتبي وطلبت الرقم. أجاب هنري فسمعت صوت كوليت في الخليفة وصوت رنة صينية الكعك المعدنية على سطح الفرن.

- هنري.

- إيميلين. ها أنتِ ذي.

كان صوت هنري كعادته أشبه باحتضان المد الهادئ للمتاريس البحرية.

- أنا آسفة. إن ذنبي لا يُغتفر.

- إن تلقي الاعتذار لم يكن من شيم دودج مثلنا تمامًا.

- دودج، كيف...؟

- في نومه، لقد دفناه في التلة خلف حديقة الخضراوات.

سمعت كوليت تهرع وتشد السماعة قائلة: كيف حالكِ؟ متى ستعودين إلى المنزل؟

- لا أعرف بعد. لكنني عثرت على فيشر هل يمكنكِ إخبار والدته.

- هذا أمر مطمْئن. سنخبرها بذلك بالطبع.

- كيف حالها؟

- إننا نحاول أن نجعلها تقضي الوقت هنا قدر المستطاع -ثم أشارت كوليت كما لو كانت تشير إلى أمر عادي- فقد حان الوقت لنعثر أنا وهنري على بعض الأشخاص الذين يتولون أمر هذا المكان.

- إنكما ستظلان هناك إلى الأبد.

- أنا أقول ذلك وحسب.

اعتاد المراهقون الذين جاءوا في موسم الصيف ترديد هذه العبارة واعتدت المزاح مع كوليت عندما كانت ترددها مثلهم. لكن عبارتها تلك

جعلتني مسرورة حد البكاء، وأنا أستمع إلى الطريقة التي عَرَفَتْ بها دائمًا كيف تشعرني بالألفة.

***

في الساعة الثالثة، تسللت من مكتبي وغادرت الشركة متجهة إلى المشرب. لم يكن المكان مزدحمًا بعد، فلم يكن فيه سوى رجلين يحتسيان الجعة في آخر طاولة المشرب وكان فيشر يلمع الكؤوس خلف الطاولة.

- لقد أعادتني إلى العمل مجددًا. لكن عاقبتني بتنظيف خمسين كأسًا من هذه بعد. هل تودين المساعدة؟

رمى لي فيشر منشفة فجلست على أحد الكراسي وبدأت العمل. سارت إيزي نحونا فرفعتُ المنشفة ردًّا على استفهامها غير المباشر.

رأيتها تحدق إلى فيشر في امتعاض قائلة: لعلمك، أنا لن أعطيها راتبًا. فضحك فيشر.

في غضون الساعات القليلة التالية، ازدحم المكان حتى تراصت ثلاثة صفوف أمام طاولة المشرب. حضرت إيزي لمساعدة فيشر، وباتوا يقدمون الزجاجات ويرفعون حنفيات الجعة ويغلقونها. في وقت ما، شقت سائحة في منتصف العمر طريقها في كومة الزبائن المتراصين حتى استطاعت الوقوف بجانب الكرسي الذي أجلس عليه. كانت ترتدي كنزة عليها قرصان وحذاء تنس أبيض، إلا أنني لم أفهم كيف حضرت إلى هذا المكان.

قالت المرأة في استياء: متى سأحصل على مشروب؟ كان صوتها حادًّا كصوت منشار آلي، فلاحظت منكبي فيشر يتصلبان ثم قال وهو يرفع زجاجة ويسكي ثم يصبها من ارتفاع قرابة ثلاثين سنتيمترًا: حسنًا، سأستغرق دقيقة فقط.

قالت المرأة بصوت عالٍ يكفي للتغطية على ضجيج المشرب بأكمله: لقد أتيت إلى هنا منذ عشرين دقيقة ولم يتسنَّ لي حتى طلب ما أريد. هذا هراء. ساد الصمت في الغرفة.

احمر وجه فيشر وبت أشعر بالغضب يسري في عروقه. حدقت إيزي باتجاهنا من الطرف الآخر من الغرفة وهي تضع الثلج في كأس مشروب مرجريتا.

التفت فيشر مواجهًا المرأة الغاضبة وهو يترجم كعادته تلقائيًّا تعبير وجهها وطريقة وقوفها كما كان يفعل مع الناس أجمع والأشياء كلها، كما يقرأ أمهر الصيادين الماء في أثناء الإبحار.

تذكرت حينها كيف علمنا آباؤنا منذ نعومة أظفارنا، سواء عمدًا أو سهوًا، أن نراقب أدق التفاصيل في العالم من حولنا، وبتنا نعرف بفطرة الأطفال أن مصيرنا مرهون بذلك، وأصبح كلانا يتمتع بمهارات لا مثيل لها.

ومع ذلك، استخدم كلانا هذه المهارات بطريقة مختلفة منذ أتينا إلى المدينة، لاستشراف مواطن الضعف ولاقتناص فرص النجاح، كما أنها أظهرت أسوأ ما فينا وفيمن حولنا. لذلك، حان الوقت لإعادة الأمور لنصابها.

قلت للسائحة التي كانت ترتدي الكنزة: أتعلمين أنه يستطيع تخمين طلبكِ؟ تحول التوتر الذي كان يضرب المكان إلى فضول.

قالت المرأة: ماذا؟

قلت لها: إن لم يعجبكِ فلن تضطري إلى دفع ثمنه.

حدق فيشر إليَّ فهززت كتفي معتذرة لكن المرأة مالت على الطاولة مقتربة منه وقالت بصوت مرتفع جدًّا: حسنًا. أرني ما لديك، وخمن طلبي.

أخذ الناس في التدافع وباتوا يشرئبون للرؤية بشكل أفضل. ناول فيشر كأس ويسكي إلى رجل ملتحٍ ثم توقف قليلًا ليتأمل المرأة مجددًا. استغرق فيشر وقتًا أكثر من اللازم، فقد عرفت من خلال حركة سبابة يده اليمنى أنه قد اتخذ قراره منذ اللحظة التي رآها فيها، لكنه أومأ برأسه أخيرًا ثم بدأ يحضر الزجاجات مخفيًا ما كُتب عليها. أحضر فيشر كأس كوكتيل مجوف ومسطح الجانبين، وبدأت يده تتحرك من زجاجة إلى أخرى لتتحول المكونات من اللون الأصفر الصافي، إلى الباهت، ثم الدافئ، نهاية باللون الأصفر الكهرماني الداكن. بعد ذلك، ألقى فيشر بحركة بارعة، قطعة صغيرة من قشر البرتقال في الكأس ثم حركه في اتجاه المرأة.

ضحكت المرأة باستهزاء ثم قالت: أنا أشرب الجعة.

قال لها فيشر: أعلم، ومن نوع ميلر لايت على الوجه الخصوص على ما أظن. بُهتت المرأة من هول المفاجأة وقالت: نعم.

قال لها فيشر: جربي هذا المشروب بدلًا من ذلك.

بت أستطيع شم رائحة المشروب القوية الناعمة، التي تعد مزيجًا من الحمضيات والأعشاب وشيء آخر شبه معدني. استنشقت المرأة رائحة المشروب ثم أخذت رشفة منه ثم رفعت رأسها نحو فيشر قائلة: ما هذا الطعم؟

- هذا طعم الموت والضرائب.

أخذت المرأة رشفة أكبر ثم ارتسمت الابتسامة على شفتيها وهي تقول: تبًّا، عليَّ إذن دفع ثمن هذا الشراب.

***

أصبحت تلك الخدعة بعد ذلك عرضًا رئيسيًّا، وبات الناس يتهافتون ليخمن فيشر مشروباتهم، ولم يعبئوا بالانتظار ما داموا يضمنون التسلية. أصبح عمال البناء يتجاذبون أطراف الحديث مع الفتيات اللاتي يرتدين بناطيل اليوجا، وأصبح زوار المكان المنتظمون يتعرفون على الناس الذين يجلسون إلى جوارهم منذ سنين. كان فيشر يقدم أحيانًا للناس مشروبات مختلفة نوعًا ما عن تلك التي اعتادوا عليها، كأن يقدم للطالب شراب الجاودار بدلًا من البوربون، أو أن يزين كأس أحدهم بمزيد من الورود لإضفاء نعومة على مظهره المتجهم، كما كان في أحيان أخرى يقدم للناس مشروبات مختلفة تمام الاختلاف عما اعتادوا عليه، كأن يقدم مشروب الجين النباتي لزبون اعتاد شرب الكوكتيل.

قالت إيزي لفيشر مرة في آخر إحدى الأمسيات: أنا لا أدري كيف تفعل هذا، لكن استمر.

واصل فيشر فعل خدعته ليلة تلو الأخرى، كما واصلت الانصراف من العمل حالما أستطيع للذهاب إلى المشرب، فقد أحببت رؤية فيشر يتحكم في المزاج العام من حوله. كان الجميع يظنون أن الأمر أشبه بالسحر، لكنني كنت أعرف السر حقًّا، ففي النهاية لم تكن النكهات المختلفة أو الكحول هي

سبب تغيير مزاج الناس، وإنما خوض تجربة تُشعرهم بأنهم ليسوا مجرد شخصيات عابرة على الهامش وأن أحدهم يفهم كيف يفكرون. بدت طباع فيشر أهدأ كذلك، كما لو كان يلملم شتات نفسه مجددًا وبت مستعدة أن أقضي ليلي بأكمله هناك وأنا أشاهده يفعل ذلك.

كنت أذهب إلى الشركة كل صباح وأنا أحاول التفكير في أسواق بيع السيارات، لكن الوضع بات أصعب بمرور الأيام. كنت قد أخبرت فيشر عن فيكتوريا وعن عملي، كما أنني أخبرته حتى بمشكلتي مع العطور وأنا آملُ أن البوح بذلك سيدفع الوضع للتحسن، لكن ذلك لم يحدث، كما لو كان صباح ألف ليلة وليلة قد أشرق على الروائح في زجاجات الاختبار وجعلتها تكف عن الكلام المباح. تمكنت من تجاهل التفكير في ذلك الأمر خلال الوقت الذي قضيته مع فيشر، إلا أن الروائح كانت تحاصرني عندما أكون في المعمل. وباتت الروائح أشبه بالضوضاء الخافتة التي تأتي من طريق سريع بعيد أو من المبرد، ولم تعد تحمل معها المفاجآت أو تحكي الأسرار.

قلت لها: *أنا آسفة. أنا آسفة. ماذا تريدون مني أن أفعل؟* ومع ذلك، فأنا أظن أنني كنت أعرف الإجابة بالفعل.

كانت فيكتوريا تواصل العروج إلى مكتبي بضع مرات خلال اليوم، إلا أنني جهلت عدد المرات التي جاءت فيها وأنا غير موجودة في المكتب. شعرت بالسوء لعدم إخباري لها بما يجري، ومع ذلك لم أستطع البوح بذلك لعدة أسباب، منها أنني كنت ما أزال أحاول التعرف على الطريقة التي يمكن لشخصيتي الجديدة التي أصبحت عليها مع فيشر التأقلم مع حياتي التي أعيشها معها. كما أنني كنت خائفة مما ستظن بي، وماذا سيظن الجميع بي، إن عرفوا أن موهبتي قد ذهبت أدراج الرياح.

سألتني فيكتوريا في ظهر أحد الأيام عندما أطلت برأسها من باب مكتبي: كيف يجري الأمر؟ إنني لا أتوقف عن تلقي الاتصالات من مُصنِّعي السيارات. إنهم يودون معرفة متى سيصبح العطر جاهزًا.

- إنني أعمل على ذلك.

تأملت فيكتوريا الرفوف المكدسة بالزجاجات التي لم تُفتح ثم تأملت وجهي الخالي من مساحيق التجميل ثم قالت قبل أن تذهب: أنا أثق بكِ.

أمضيت الساعة التالية وأنا أمزج الروائح مزجًا لكن العطور التي نتجت عن ذلك كانت أشبه بلوحة إعلانات فارغة تجذب الانتباه.

بت أتذكر كلمات قصة أبي *أحضر لي رائحة تزلزل الجدار* إلا أن محاولاتي باءت بالفشل، ما جعلني أستسلم في النهاية وأذهب إلى المشرب.

***

في مساء إحدى ليالي الجمعة، أكثر ليالي الأسبوع ازدحامًا، تشكلت نصف دائرة من خمسة صفوف في آخر المشرب عندما ذاع الخبر عن موهبة فيشر. وانتشرت الضحكات في المكان، بل وتشجع فيشر عندما نال من زبون تلو الآخر وجعله يغير طلبه.

قال أحد الصيادين وهو يرفع كأس مارتيني مملوءة بسائل أصفر صافٍ: من كان يدري؟

همس لي فيشر قائلًا: إن قطرة من الليمون تقضي على رائحة السمك. كما أن حياة الرجل المريرة تحتاج قليلًا من الحلاوة.

شق رجل طريقه إلى طاولة المشرب وهو يطوق فتاة شقراء ترتدي قميصًا قصيرًا مكشوفًا. أدركت أنه ذلك الرجل الذي كان يصطحب كلبًا معه في أول ليلة جئت فيها، إلا أنه لم يحضر بعد تلك الليلة، على حد علمي، كما أن الكلب لم يكن بصحبته هذه المرة ولم يصطحب معه غير تلك الشقراء التي كانت تتكئ عليه لا بدافع المحبة وإنما بسبب حذاء الكعب العالي الذي كانت تنتعله.

قال فيشر بنبرة تحمل في طياتها الاستفهام والتحية في آن واحد: فرانك. قال فرانك وهو يشير إلى الفتاة الشقراء: خمن طلبها.

دارت نظرات فيشر بين فرانك والفتاة ثم أحضر كوبًا زجاجيًا منقرشًا ووقف بزاوية لا تُمكِن أحدًا من رؤية ما يصب. حينما استدار كان الكوب مملوءًا بسائل نقي. ناول فيشر الكوب للمرأة بأناقة وتباهٍ قائلًا: تفضلي.

قال فرانك مخاطبًا الحشد: أوه، شراب صرف. يبدو أنني سأقضي ليلة ممتعة يا رجال.

أخذت الفتاة رشفة ثم نظرت إلى فيشر في اندهاش، ثم مالت إلى الأمام وسمعتها تهمس له: ولكن هذا ليس سوى...

قال فيشر بصوت جهور ليُسمِعَ الحشد: هل حصلتِ على ما أردتِ؟ بدأت الأمور تتضح للفتاة وقالت له: إنك عبقري.

صرخ فيشر قائلًا: إن السيدة الحسناء ستحصل على إعادة ملء كأسها مجانًا الليلة بأكملها. فهب التشجيع الحاد.

قال فرانك لفيشر وهو يبتسم ابتسامة عريضة: شكرًا لك يا فيشر ثم أمسك بمرفق الفتاة وسحبها في الحشد نحو إحدى الطاولات.

قلت لفيشر بصوت خفيض: إنه سيمتلئ غيظًا عندما يكتشف الأمر.

قال فيشر وهو يهز منكبيه: إنه لن يخبر أحدًا أبدًا أنه لم يقدر على نيل مراده من فتاة غير مخمورة.

في نهاية الغرفة، فُتح الباب الأمامي ودخلت معه هبة من الهواء المنعش. رفع فيشر رأسه ثم نظر إليَّ وأشار بحركة من ذقنه نحو الزائر الجديد قائلًا: شراب مارتيني للزائر النرجسي.

كان عليَّ الاتكاء على الكرسي الذي أجلس عليه والارتفاع لرؤية عمن كان يتحدث فوجدت امرأة ترتدي بذلة بيضاء أنيقة، وبدت أشبه بزهرة من الزنبق في حقل مزروع بالبقول.

فيكتوريا.

العشاء

كالعادة، تفرق الحشد أمام أمي، فعبرته حتى وقفت بجواري. قام الرجل الذي كان يجلس على الكرسي المجاور لي وعرض عليها الجلوس. جلست أمي على الكرسي وبت أشم رائحة عطر العسل والعنبر الذي كانت تضعه أول مرة التقينا فيها، فشعرت بالذنب يعتصرني. تذكرت كيف استقبلتني أمي من دون أن تطرح أسئلة كثيرة وفتحت لي منزلها.

قالت فيكتوريا بعد ذلك: إذن هذا المكان الذي تترددين عليه. جالت فيكتوريا ببصرها في المكان ثم اقتربت مني قائلة: يجب عليَّ الاعتراف أنني أشعر بالفضول لمعرفة السبب.

- أنا آسفة. توجب عليَّ إخبارِك.

أومأت برأسي ناحية فيشر الذي كان يراقبنا باهتمام ملحوظ: هذا فيشر، صديقي من الخليج.

دارت فيكتوريا ببصرها بيني وبين فيشر، فذكرتني بعادتها عندما تختبر عطرًا جديدًا، وتشم النسخ لتفاضل بينها.

قالت فيكتوريا: هل تعرفان بعضكما منذ وقت طويل؟

قلت لها: منذ بدأت الذهاب إلى المدرسة. لم أكن سأستطيع النجاح لولاه. أردتُ فجأة بعدما أصبح وجودها في ذلك المكان أمرًا واقعًا أن تعجب به

وأن تدرك منزلته عندي فقلت: إنه السبب في قدومي إلى المدينة في المقام الأول...

وجمت فيكتوريا ثم قالت: حقًّا؟ تناهى إلى سمعي صوت تصدع خفيض، يُسمع بالكاد، مستترًا خلف استفهامها.

قلت لها: ما أقصده أنني قدمت للعثور عليكِ أيضًا. بدأت بالتلعثم وزيادة الطين بلة، وساد السكون بيننا في غمار الحشد المحيط بنا. تغير تعبير وجه فيكتوريا إلى النعومة والتصنع.

قالت فيكتوريا: حسنًا، أنا سعيدة أنه أحضركِ إلى هنا على أي حال. مالت فيكتوريا عبر الطاولة ومدت يدها: أنا فيكتوريا وينجت، والدة إيميلين.

نظر فيشر إليَّ نظرة سريعة وبت أشعر بنظرات فيكتوريا تحاصرنا.

قال فيشر وهو يمسح يده المبللة في المئزر الذي يلفه على وسطه: تشرفت بلقائكِ.

صافحها فيشر ثم قال: أنا آسف، إنها ليلة حافلة.

قالت فيكتوريا: لا داعيَ للاعتذار ثم سحبت منديلًا من الحزمة الموضوعة بجواري ومسحت برقة البلل عن أصابعها الطويلة الجميلة. شعرت بالمشرب بأكمله يراقبها في وله.

نادى أحد الزبائن المنتظمين: ألن تخمن *طلبها*؟ أومأت المجموعة المتحلقة حوله في حماس، وأمالت فيكتوريا رأسها في استفهام.

قلت لها بصوت خفيض: إنه يستطيع تخمين المشروبات التي يود الناس طلبها فعلًا، فهو مذهل في فهم الناس. كان صوتي ما يزال يستجديها لاستحسانه.

قالت فيكتوريا بنبرة مستفهمة على نحو ما: فعلًا؟ ثم فردت ظهرها بأقل حركة ممكنة.

قال فيشر دون تفكير وهو يراقبها من كثب هذه المرة: إنها خدعة للتسلية فحسب.

بدأ الحشد في الهتاف: هيًّا! هيًّا!

قالت فيكتوريا وهي توزع ابتسامة دمثة حولها: حسنًا إذن. لنرَ ما يمكنك فعله يا فيشر.

هتف الحشد مشجعًا فحياهم فيشر بانحناءة مصطنعة ثم بدا متحيرًا للحظة أخرى وهو يجول ببصره بيني وبين فيكتوريا. اعتاد فيشر التمهل في هذه المرحلة ليُلهب حماس الجمهور لكن الأمر بدا مختلفًا هذه المرة كما لو كان حقًّا يفكر فيما سيفعله.

قالت فيكتوريا بنبرة لاستفزازه على نحو ما: ماذا إذن؟

اعتدل فيشر ثم بدأ العمل ووضع ثلجًا في إناء الرج المعدني ثم صب شراب جين بليموث ليتدفق صافيًا بلا انقطاع. وبعد ذلك أحكم الغطاء ثم رج الإناء الأسطواني عشر مرات بسرعة، بارتفاع ذراع. أحضر فيشر بعد ذلك بحركة منمقة بسيطة كأس كوكتيل بارد، ثم فتح غطاء إناء الرج ليتدفق السائل عبر المصفاة نزولًا على حافتي الكأس. كان الأمر أشبه بقصيدة –أو ربما معزوفة– تسطر على ألحان الشراب.

قال فيشر مناولًا الشراب لفيكتوريا: تفضلي.

أخذت فيكتوريا رشفة لتختبر المذاق وعيناها مغمضتان، ووجهها مزيج مدهش من الجمال والتركيز. ساد الصمت في المكان في ترقب إلا أن فيكتوريا أدارت رأسها قائلة: لقد أعددت مشروبًا رائعًا يا فيشر، إلا أنه يؤسفني قول إنه لم يرق لي. رفعت فيكتوريا رأسها لتقابل نظراته ثم قالت: أود الحصول على كأس من نبيذ العنب من فضلك، إن كان متوفرًا لديك.

ارتفع صياح الحشد في المكان ونادى أحد بنائي القوارب: لقد نلتِ منه. هذه سابقة فريدة من نوعها.

احمر وجه فيشر إلا أنه استدار مواجهًا الجمهور وأحنى رأسه معترفًا بالهزيمة قائلًا: ما باليد حيلة. إن السيدة تعرف ما تريد.

***

مر الوقت الذي قضيناه في المشرب بعد ذلك خاليًا من الأحداث، فقد كان فيشر مشغولًا بطلبات الزبائن الآخرين. ردت فيكتوريا عرض ملء كأسها عندما شربته، فلم يبقَ أمامنا سببٌ وجيه للبقاء أكثر. كما أنني أدركت أنه لا مهرب أمامي من تفسير بعض الأمور.

ركبت أنا وفيكتوريا المصعد، الذي يعبق برائحة الحمضيات والصنوبر، حتى الطابق الأخير. قلت لها مجددًا: أنا آسفة. كان يجدر بي إخبارك أين أذهب.

قالت فيكتوريا: كل النساء مسموح لهن بإخفاء بعض الأسرار. تنفست الصعداء، فقد كان جليًا أن أمي هي من تبقت لي بعد وفاة أبي، حتى وإن كنت أشعر بالارتباك نحو كثير من الأمور في ذلك الوقت.

سرنا عبر الممر حتى وضعت فيكتوريا مفتاحها في القفل ثم سألتني: هل أكلتِ؟ ومن ثم أخذت معطفي وعلقته في الخزانة مضيفة: لقد اشتريت جبنة ماعز لذيذة من سوق المزارعين.

سألتها كنوع من الاعتذار المغلف في صورة استحضار ذكرى تجمعنا معًا: لن نتناول السلطة إذن؟

ابتسمت فيكتوريا ثم قالت: كانت الجبنة أشهى من أن أرفضها.

ذهبت فيكتوريا إلى المطبخ وسمعت صوت الدواليب تُفتح وقرقعة البلاستيك وهي تخرج المقرمشات من أحد الصناديق. عادت فيكتوريا إلى غرفة المعيشة ووضعت عن يدها صينية بها طبق تقديم مستدير وكأسين من النبيذ فناولتني كأسًا وهي تبتسم.

قالت وهي تجلس وثنت رجليها تحتها: أخبريني كل شيء عنه.

- لقد تقابلنا في المدرسة.

أومأت فيكتوريا ثم قالت: لكن كيف هو حقًا؟ أعني ما الذي يجعلكِ تلحقين بفتى مثله كل هذه المسافة حتى المدينة؟ كانت عين فيكتوريا تلمع بنفس الفضول الذي رأيته أول مرة ذهبنا فيها إلى المتجر الذي تفوح منه رائحة شروق الشمس الوردي، وسألتني عن رأيي به. أدركت أن الرغبة في إخبار أحد بشأن فيشر كانت تتملكني، وأنني بت لأول مرة أود أن أبوح بسر جميل للعالم من حولي.

قلت لها: لقد رأيته. إنه يلاحظ كل شيء. لقد كان والده شخصًا غليظًا -أعني والده شخص غليظ لذلك حضر فيشر إلى هنا- لكنه أفضل مما يبدو. إنه هو شخص مميز.

- هل أنتِ واثقة من ذلك؟

قلت لها: نعم. بكل ما أوتيت من قوة.

نظرت فيكتوريا إليَّ ثم أومأت قائلة: لقد شعرتُ بالمثل نحو أبيكِ. عدلت فيكتوريا جلستها على الأريكة ثم ابتسمت نحوي ابتسامة ذات مغزى وقالت: إذن، هل لي أن أفترض أن فيشر هو السبب في تأخركِ الشديد عن ابتكار عطر لمُصنِّعي السيارات؟

باغتني سؤال فيكتوريا على حين غرة فقلت: لا، ليس هو السبب. إنني فحسب... أدرت رأسي من فرط عدم قدرتي على التعبير بينما كانت فيكتوريا تفرد قطعة من الجبن على قطعة من مقرمشات الماء[1] لتمنحني الوقت اللازم.

قالت فيكتوريا عندما لم أستطع مواصلة الحديث: إننا جميعًا نشعر أننا أمام طريق مسدود من حين لآخر، ثم ناولتني قطعة المقرمشات مضيفة: إن الأمر مفهوم، فقد كنت تعملين باجتهاد شديد.

لماذا كانت فيكتوريا تعاملني بهذا القدر من اللطف؟ لقد كذبت عليها، ووضعتها في موقف حرج مع مصنعي السيارات. كما أنني رأيتها تعاقب الموظفين حين يرتكبون حماقات أقل من ذلك بكثير. ربما لأنني كنت ابنتها، ولأنها كانت تحبني حقًّا.

قلت لها وأنا ممتنة لتفهمها: نعم.

***

بعد مرور ساعة، أصبح طبق المقرمشات والجبنة فارغًا، وكذلك كأس النبيذ الذي كنت أشربه. كنا قد تحدثنا في نهاية المطاف عن أمر مصنعي السيارات وأخبرتها بالأفكار التي كنت قد بدأت العمل عليها قبل أن ينهار كل شيء.

قالت فيكتوريا: ألا ترين؟ إنكِ تبخسين نفسكِ قدرها.

لم أخبرها أن الأفكار التي كنت أخبرها بها كانت قديمة جدًّا حتى إنني بت أنفض الغبار عنها، وربما كانت هي تشكُّ في ذلك بالفعل، فقد كانت فيكتوريا

---

(1) مقرمشات الماء أو بسكوت الماء نوع من المقرمشات المملحة الرقيقة المعدة من الماء والطحين والتي تقدم عادة مع الجبن والنبيذ.

عادة تبدو وكأنها تدون الملاحظات في ذهنها عندما تستمع لأفكاري، إلا أنها كانت هذه المرة تستمع فقط لما أقول، حتى لم يعد لدي شيء أقوله.

قالت لي فيكتوريا: أتعلمين، إنني أرغب حقًّا بالتعرف إلى فيشر على نحو أفضل. وأرغب في دعوتكما لتناول العشاء.

- لست متأكدة، فهو يعمل أغلب الليالي.

نظرت حولي، ودرت ببصري بين النوافذ الرائعة الطويلة والأرضية الخشبية البرَّاقة، التي تمتلكها فيكتوريا، ثم فكرت في البون الشاسع بينها وبين قارب فيشر وطلائه الباهت وعلب طعامه.

قالت فيكتوريا: هيًا وافقي. أنا أعرف المكان المناسب.

فكرت أنني أستطيع تقريب المسافات بين فيشر وأمي، وخلق التوازن بين رائحتين مختلفتين ومزجهما في عطر واحد، إن أنا حاولت بما فيه الكفاية، فهذا ما أفعله بالأساس، أو ما اعتدت فعله.

- حسنًا. لكن دعيني أتحدث إلى فيشر أولًا.

***

سألني فيشر في اليوم التالي، عندما كنا في المشرب: لماذا قد ترغب في ذلك؟ إنها غير معجبة بي.

- فيشر. إنها تود التعرف إليك فحسب.

قال فيشر وهو يصف الزجاجات على الرفوف مخفيًا أسماءها استعدادًا لحشد المساء: لعلمك، لقد كنت محقًّا بشأن مشروبها.

تجاهلت تعليقه وقلت: لقد كانت ردة فعلها بخصوص الأمر برمته رائعة.

- بالطبع، فهي أمكِ.

لم تبدُ الكلمة لطيفة عندما نطق بها لكنني قلت له: رجاءً.

أمسك فيشر كأسًا وفتش عن وجود علامات ماء عليها ثم قال أخيرًا وهو يدير رأسه: حسنًا، لكن ها أنا أخبركِ أنها ليست فكرة سديدة.

***

كان المطعم الذي اختارته فيكتوريا عصريًا وجديدًا، فيه كراسي معدنية وأرضيات مصنوعة من الصُلب، وعلى طاولاته مفارش بيضاء من الكتان، وتزينه زهرية زجاجية رفيعة بداخلها نبتة عود الصليب. كانت قوائم الطعام طويلة ومصنوعة من الورق المقوى، والكلمات مخطوطة كموجات البحر. عندما حضر النادل، طلبت فيكتوريا سلطة السلطعون، وطلبت أنا السلمون مع صلصة البرنيز.

قال فيشر وهو يناول قائمة الطعام للنادل الذي حاول أن يداري ابتسامته: سأتناول البرجر.

قالت فيكتوريا وهي تجول بنظرها في المكان: لم أحضر إلى هذا المكان منذ وقت طويل جدًا. لقد سمعت أنهم عينوا طاهيًا جديدًا. يقولون إنه رائع.

تحدثت فيكتوريا قليلًا عن مطاعم المدينة الأخرى، والتحديات التي تواجهها في ابتكار عطور لأماكن تفوح منها روائحها الخاصة بلا توقف. بدأت أشعر بفيشر الجالس بجواري يراقب المشروبات التي تقدم على صينيات دائرية صغيرة، كما لو كان يحاول تخمين الزبائن الذين قد طلبوها بينما كانت فيكتوريا تنظر إليه من حين إلى آخر.

دخل رجل وامرأة إلى المكان. كانت المرأة شديدة النحافة ترتدي سروال جينز ممزقًا على نحو جميل. بدأت أشم عطرها المر القوي الذي لا يناسب صخبه مكانًا صغيرًا هكذا.

قالت لي فيكتوريا بعدما ابتسمت لي ابتسامة ذات مغزى: بويزون.

قال فيشر ملتفتًا: ماذا؟

قالت فيكتوريا مفسرة: إنه عطر ابتُكر تقريبًا قرابة عام 1985. لقد قلَّت قيمته تمامًا بعد ذلك، لكن الأشياء الكلاسيكية ما زالت تلقى رواجًا كبيرًا. توقفت فيكتوريا ثم استنشقت نفحة بسيطة وقالت وهي تعد المكونات على أصابعها: البرقوق، والكزبرة، والجاوشير.

- ماذا؟

- إنه نبات المُر.

أدار فيشر رأسه قائلًا: يؤسفني قول إنني لا أفهم ما تقولين.

أومأت فيكتوريا وهي تلعب برقة بخصلة طويلة من شعرها المموج وهي تتأمله: إنك تعلم مهنة إيميلين أليس كذلك؟ إنها عبقرية، سيكون أمامها مستقبل باهر إذا كانت في المُناخ المناسب.

رأيت الكدر على وجه فيشر على نحو بسيط بعد سماعه لتلك الكلمات الأخيرة ثم قال: لقد كانت إيميلين دائمًا عبقرية.

حدثت نفسي قائلة *ليس بعد الآن*، فقد بت أشعر بالانزعاج وأنا محاطة بزجاجات الروائح مقدار انزعاج فيشر في أثناء جلوسه في المطعم.

راقبت كل منهما، فيشر الذي كان يرتدي قميصه الأبيض طويل الأكمام، النظيف الوحيد، وفيكتوريا التي كانت ترتدي فستانًا حريرًا أخضر يُفصل قوامها. استمرت محادثتهما في الظاهر كمباراة ودية بين فريقين، لكنني أحسست بشيء يجري خلف الستار. بدأت قدماي تهتزان فأمسكت كوبي وأخذت رشفة من الماء والثلج يحك في أسناني. تمنيت لو كان كوبي مملوءًا بالنبيذ لكنني كنت ما أزال صغيرة جدًّا على أن يقدم لي النبيذ في المطاعم. ومع ذلك تذكرت الجانب الملآن من الكأس، وهو أنني سأستطيع قانونًا الشرب هنا قبل خمسة أشهر من موعد ميلادي الحقيقي في نوفمبر.

عاد النادل ومعه طلباتنا ووضع الأطباق بهدوء أمامنا. كانت سلطة فيكتوريا أشبه بلوحة فنية مرسومة باللونين الأخضر والأبيض، وكانت قطعة السلمون التي قدمت لي في مثل حجم صدفة المحار، مزينة بصلصة كريمية ذهبية، تحيطها خمس قطرات من الخضار المهروس كجمهور ينظر بإعجاب جم، وكانت شطيرة البرجر التي قُدمت لفيشر تحتل مساحة طبقه بأكملها تقريبًا.

سأل فيشر النادل قائلًا: الكاتشب؟ أومأ النادل ثم عاد ومعه زبدية زجاجية صغيرة وملعقة أصغر حجمًا. كان فيشر وهو يزيح الطبقة العليا من شطيرته ثم يضع ملعقة من الكاتشب تلو الأخرى، أشبه بجلفر[1] الذي يحاول استخدام الأدوات الصغيرة لمدينة ليليبوت. انتظرت فيكتوريا في صبر وهي ترفع

(1) جلفر بطل رواية رحلات جلفر للكاتب جوناثان سويفت، وتحكي الرواية عن جلفر الذي يصل إلى أرض تسمى ليليبوت يعيش بها أقزام متوسط طول الواحد منهم 15سم.

شوكتها، وما إن انتهى فيشر حتى أمسك بالشطيرة بكلتا يديه وقضمها ثم قال معلقًا: إنه فعلًا طاهٍ جيد.

ردت فيكتوريا: نعم.

أخذنا نأكل في صمت للحظة ما حتى سألت فيكتوريا: أين تسكن حاليًا يا فيشر؟

تجمدت في مكاني، على نحو بسيط جدًّا، لكن كل منهما لاحظ ذلك.

قال فيشر وهو ما يزال ممسكًا بالشطيرة: في قارب. رأيت الكاتشب يظهر من مؤخرة الشطيرة، حين سألت فيكتوريا: أتعني عوامة؟

سقطت قطرة من الكاتشب على إطار طبق فيشر الدائري.

تدخلت قائلة: نوعًا ما.

تجاهلت عينا فيكتوريا ببراعة شطيرة البرجر المرفوعة قبالتها ثم قالت: توجد بعض العوامات المذهلة في غرب الخليج، إلا أنني أسمع أن الأسعار تواصل الارتفاع. هل لديك رفقاء في السكن؟ انتقت فيكتوريا قطعة من السلطعون من سلطتها، وقالت: من المؤكد أن دفع الإيجار من راتب عملك كساقٍ صعب.

توقف فيشر عن المضغ.

تدخلت قائلة: إنه يسكن مع شخص اسمه جيم. إنه أكبر منه سنًّا.

وضع فيشر شطيرة البرجر من يده ثم لعق الشحم الذي تسلل إلى الانحناء بين سبابة يده اليمنى وإبهامها قائلًا من قبيل سرد الحقائق والتحدي: أنا أسكن في الهاوية.

- الهاوية؟

- هذا هو الاسم الذي يطلقه الناس عليها. هل تعرفينها، تلك القوارب الموجودة خارج حدود المدينة؟

قالت فيكتوريا وهي تضع شوكتها: أتعني حيث يعيش المشردون؟ هل اصطحبت إيميلين إلى هناك؟

قال فيشر: إنهم أناس عاديون فحسب.

- أناس عاديون يعيشون في أماكن ليست ملكًا لهم.

كلما كانت حدة صوت فيشر تتزايد، كانت حدة صوت فيكتوريا تتراجع بمقدار الضعف.

- أماكن لا يعبأ بها الأغنياء إلى الحد الذي يجعلهم يلقون فيها قواربهم. لكنكِ محقة، من الصعب طبعًا تدبير كلفة الإيجار في هذه الأنحاء عندما يتوقف عملك بأكمله على خدمة الآخرين.

توجهت نظرات فيشر إلى النادل الذي كان يحاول شق طريقه إلى كأس فيكتوريا لإعادة ملئها بالنبيذ. رفعت فيكتوريا كأسها ناحية النادل وقالت: أنا أعرف معنى أن تكون خادمًا للآخرين. لقد كانت أمي تعمل في متجر تسوق.

- كم هذا رائع.

نظرت فيكتوريا إليه ثم قالت: ليس حقًّا. أنا أعلم بالضبط كم هو باهظ ثمن النجاح. لقد حصلت على كل شيء أملكه بعرقي. ربما يجب عليك محاولة فعل ذلك.

قبل عدة سنوات، عندما كنا طلابًا في المدرسة، أخبرنا المدرسون عن الفرسان الذين يلقون قفازتهم على الأرض كردة فعل. كنت أظن أن تلك القفازات ناعمة، كالتي نستعملها اليوم، لكن تلك القفازات الأصلية كانت مصنوعة من المعدن، قاسية كقسوة الكلمات.

غلبت ردة فعل فيشر إرادته، فهب واقفًا، وأصدر كرسيه صريرًا على الأرضية المصنوعة من الصلب. اقترب النادل، الذي كان يحوم على مقربة، مسترقًا السمع تقريبًا، بسرعة ثم قال: هل كل شيء على ما يرام؟

التفت النادل إلى فيشر قائلًا: هل أجلب لك شيئًا يا سيدي؟ صندوقًا؟ مشيرًا إلى طعامه.

وقف فيشر شامخًا ثم نظر إلى فيكتوريا وقال: بالطبع. فأنا أعرف شخصًا يقدر بقايا الطعام فرفع النادل الطبق.

قال لي فيشر: إلى اللقاء قريبًا. ثم مال وقبلني على مرأى ومسمع من الجميع، ثم لحق بالنادل حتى آخر المطعم فجلست متسمرة في مكاني والأنظار كلها مثبتة علي.

***

عاد النادل إلى غرفة الطعام مرة أخرى، فأشارت له فيكتوريا، فأحضر كأسًا من النبيذ دون نقاش. تجرعت النبيذ بشهية بحار ثم شعرت به يجري إلى عقلي، بينما فيكتوريا تراقبني من دون أن تنبس بكلمة.

سألتها بعد برهة: لماذا فعلتِ ذلك؟ وهي تعلم أنني لا أقصد النبيذ.

مسحت فيكتوريا طرف فمها بمنديلها ثم قالت: إنكِ لا تعرفين مكنون عطرٍ ما حتى تصلي إلى قاعدته. خذي مني هذه النصيحة، لقد شهدت مواضع تحدٍ كثيرة في حياتي، إلا أنني لم أبرح مكاني في الطاولة إطلاقًا على العكس من حبيبكِ.

- إنه ليس كما تظنين.

كانت أمي، التي تفهم عملاءها بامتياز، مخطئة بشأنه، فقد كانت القُبلة التي منحني إياها فيشر وعدًا لا تحديًا، وقد حفظ وعده لي بألا يكون طرفًا في شجار.

- هل أنتِ واثقة من ذلك؟ أظن أنكِ قد قلتِ إنكِ أتيتِ إلى المدينة للعثور عليه. لقد مر على قدومك قرابة -ماذا- ثمانية أشهر تقريبًا؟ ترى لماذا يحدث ذلك الآن فحسب؟

أردت الدفاع عن فيشر وإخبارها أن الحياة لم تترفق به، لكن ذلك كان يعني أنني سأخبرها بأنه قد فشل، لذلك آثرت الصمت، وأنا أحاول استيعاب ما ستؤول إليه الأمور الليلة.

قالت فيكتوريا وهي تدير رأسها: إن الرجال خائنون بطبعهم يا إيميلين.

- إنهم ليسوا جميعًا على شاكلة واحدة.

قالت فيكتوريا: أتعتقدين ذلك؟ لأنني أتحدث عن تجربة، ولا شك، ثم أزاحت طبقها جانبًا، فرفعه النادل.

سألتها وأنا أميل نحوها: وماذا عن أبي؟ لقد قلتِ إنكما كنتما تحبان بعضكما.

- بالضبط. وانظري ماذا فعل بي هذا الحب. عندما ساءت الأمور، تخلى عني وتركني وحدي لأعاقب على جريرته. الرجال أنانيون، سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوا، هذه حقيقتهم.

حاولت الموازنة بين ما كانت تقول وبين حياتي مع أبي. كان عليَّ الاعتراف أنها كانت محقة في بعض الوجوه، فقد تخلى عني أبي أيضًا، قبل أن يغرق، ولم يعبأ سوى بأوراق العبير تلك التي أحبها أكثر مما أحبني. كما أنه كذب عليَّ كثيرًا، كذب بشأن اسمي، وتاريخ ميلادي، وحرمني من أي فرصة لعيش حياة طبيعية، ورباني بطريقة تلائمه هو.

لكن رغم تلك الأشياء كلها، فإنني رأيت صورته، يدخل أول أيام الربيع إلى الكوخ، ممسكًا بحبل كليو، ومحضرًا لي صديقًا جديدًا، حتى وإن لم يكن لديه سواي.

احتدم في عقلي الصراع بين ما قاله لي رينيه: *لقد كان رجلًا صالحًا يا إيميلين. لا تسمحي لأحد أن يخبركِ بعكس ذلك.* وما قالته لي فيكتوريا: *لقد تخلى عني وتركني وحدي.*

ومع ذلك، أرقني شيء ما في كلام أمي، وهو أنها لم تذكرني على الإطلاق، مرة أخرى، كما لو كنت حاشية كتبت على الهامش في قصة حياتها.

وقفتُ، فسألتني فيكتوريا بصوت منخفض: إلى أين؟

رُسمتْ في ذهني صورة مكتب أبيض مملوء بعبق عبير البتريكور، به شخص تحيط به الزجاجات.

- يجب عليَّ العثور على شخص ما.

عندما وصلت إلى الباب، نظرت خلفي، فوجدت فيكتوريا تقضم بعضًا من طبق سلطتها، ولا تعبأ إطلاقًا بالنظرات التي تحدق إليها.

القصة

حل على الجو ضباب كثيف عندما كنا في المطعم، واختبأت المباني خلف ردائه، وأصبح الرصيف معتمًا وأملس. سقط الندى على وجهي وشعري، لكنني تجاهلت البرد القارس وسرت إلى وجهتي، عازمة العثور على الإجابات.

شيء ما أوعز لي أن رينيه ما يزال في مكتبه، فقد كانت ملابسه المجعدة وأكواب القهوة القديمة المكدسة على مكتبه توحي بأنه كان يقضي لياليه وحياته الاجتماعية بين العطور أكثر مما يقضيها بين الناس. عندما دفعت باب مكتبه، وجدت أنني كنت على حق. رفع رينيه رأسه، وبدا مرتبكًا كأنما أفاق من عالم الأحلام ليجد نفسه على أرض الواقع. كانت الغرفة عابقة برائحة الشوكولاتة الساخنة، لا من النوع المُسال سريع التحضير الذي كان يباع في مقصف المدرسة، وإنما الأصلية، تلك التي كانت تصنعها كوليت ببشر لوح من الشوكولاتة وإذابته في اللبن الطازج. بحثت عن القدر الساخن والمقلاة، إلا أنني لم أجد سوى زجاجات صغيرة.

أمال رينيه رأسه متعجبًا من الحالة المزرية لشعري المبلل، ثم نظر حوله وأمسك بمنديل ورقي بني اللون وناوله لي. كان المنديل جامدًا وخشنًا، وبلا فائدة تقريبًا، لكنني ابتسمت ردًّا على تلك البادرة الطيبة على أي حال.

وبينما أنا أحاول مسح البلل بالمنديل قدر استطاعتي، كانت يد رينيه تواصل اللعب بزجاجات الروائح الخاصة به، وتحركها كما لو كانت قطع شطرنج، بلمسة ناعمة كلمسات الأصدقاء. تساءلت عما تخبره يا ترى... وأنا على استعداد تام للمقايضة بأي شيء في تلك اللحظة لأسمع حكاياتها.

وضعت المنديل جانبًا وقلت له: هل لك أن تخبرني عن أبويَّ أنا أود معرفة الحقيقة.

جال رينيه ببصره في المكان كما لو كان يبحث عن الكلمات المناسبة لقولها لي. قال رينيه بعد فترة: أتعلمين، أظن أن أحد أروع الأشياء التي تميز العطور، هي قدرتها على التغيير طبقًا لكيمياء جلد كل شخص بعينه. لذلك، أحب دائمًا التفكير في العطور باعتبارها أفعالًا لا أسماء. وقد تعلمت أن الحقيقة لا تختلف كثيرًا عنها.

قلت بإصرار: أنا أود أن أعرف.

أومأ رينيه ثم أمسك إحدى الزجاجات وأمعن النظر فيها ثم قال، كما لو كان يتحدث إلى الرائحة بداخلها: لقد تعرفت على والدكِ بعد حصولي على الشهادة العليا. كان أبوكِ عالمًا، وكان يستطيع التحدث مع الروائح بسهولة أكثر من قدرته على التحدث مع البشر. كما أنني أظن أنه أحب الروائح أكثر منهم كذلك. صارت علاقتنا وثيقة.

ابتسم رينيه، ابتسامة حنين إلى الماضي، لكنني أحسست بما يشعر به.

أضاف رينيه وهو ينظر إليَّ: كانت أمكِ تعمل في الشركة ذاتها. وقد كُلفتْ بابتكار عطور لمنعمات الملابس وصابون اليد، وهو إهدار تام لموهبتها في نظري. أرادت أمكِ تجربة شيء جديد، لإثبات نفسها، فأخبرتها عن رائحة قد اكتشفها جون للتو في إحدى سفراته. لذلك عرفتهما ببعضهما، لغرض العمل لا لغرض تكوين علاقة غرامية. فقد كانا مختلفين عن بعضهما.

أومأت موافقة، فأضاف بأسى: لكن كان يجدر بي استشراف ذلك. ففي النهاية، أظن أنني لم أقابل يومًا شخصين قد أعياهما التفكير وأكلهما الخوف من الهجران أكثر منهما. ومن ثم أصبحا ثنائيًّا استثنائيًّا، وإن كانا ثنائيًّا مضطربًا. أظن أنهما قد أحبا بعضهما قدر ما استطاعا.

- وماذا عن العندليب؟

- لقد كانت فكرة أمكِ. لقد أخذت أمكِ في الحديث عن كاميرات بولاريود، وتساءلت عن السبب الذي يعوق تطبيق الفكرة نفسها مع الروائح، أي أن نلتقط الروائح ونعيد ابتكارها داخل الآلة. كان صنع الآلة التحدي الأمثل لجون، السهل الممتنع. عمل جون على صنع الآلة لسنوات، وكان باستطاعته قضاء وقته في اللعب بها إلى الأبد.

تذكرت أبي وهو جالس على الطاولة في الكوخ، وهو يفكك الآلة، ليلة تلو الأخرى. وابتلعت الكلمات من على طرف لساني قبل أن أنطق بها.

لقد فعل.

تابع رينيه قائلًا: لكن، انظري محل اختلاف أبويكِ. أنا أتذكر كيف حذَّر جون فيكتوريا، وكيف أخبرها أن الصور كانت تبهت عند بداية اختراعها، وكيف أنه كان قلقًا من تكرار الأمر نفسه مع الآلة. لذلك، أراد جون إجراء مزيد من الاختبارات، إلا أن فيكتوريا لم تستطع الانتظار، بل استمرت في نشر تلميحات عن الأمر في الأوساط المناسبة، وترامى على أعتابها المستثمرون في وقت قليل. أصبح جون مستاءً عندما علم بالأمر، كما لو كانت قد باعت هي وده بدلًا من بيع الآلة.

تذكرت النظرة المرسومة على وجه أبي عندما اكتشف أنني قد خنت وعدي له وذهبت إلى البحيرة، وحطمت ثقته. أدركت الآن أنها كانت المرة الثانية التي يشعر فيها بذلك، فقد بدأت زوجته الأمر، ثم أعادت ابنته تكراره.

واصل رينيه الحديث: هدد أبوكِ فيكتوريا بإخبار المستثمرين بأن الآلة لم تتجاوز مرحلة الاختبار بأكملها بعد، إلا أن فيكتوريا قالت إن ذلك سيؤدي إلى القضاء عليهما معًا. وعليه، أخذ جون أحد نماذج الآلة الأولية، بعد أن قال إنه سيجري عليها اختباراته الخاصة، بعد أن يبتعد عن فيكتوريا قدر المستطاع. وكان ثمن سكوته هو أن يطلق على الآلة اسم العندليب.

تذكرت القصة الخيالية وآلتها المعطوبة وقلت لنفسي: *لقد كان يعرف بالأمر*. وبالتالي، فإن كل تلك المقالات التي تحدثت عن أبي، والقصة التي روتها لي فيكتوريا نفسها، غير حقيقية، إن رينيه محق فيما يقول. ومعنى ذلك أن غرور أبي لم يكن هو ما هدم المعبد على من فيه، وإنما غرور أمي.

- وماذا عني؟

أدار رينيه رأسه قائلًا: اكتشفت فيكتوريا حملها بعد أنا غادر أبوكِ، الذي لم يُعلِم أحدًا بمكانه. في النهاية، اقتفيت أثره حتى «سريلانكا»، ومن ثم عاد أبوكِ قبل ميلادكِ مباشرة. كانت فيكتوريا عازمة على عدم السماح له برؤيتكِ، قائلة إنكِ ابنتها هي لا ابنته.

لماذا لم تواصل فيكتوريا البحث عني إذن؟ كنت منغمسة في أفكاري لدرجة أنني كدت أغفل عن كلمات رينيه التالية.

- علمتُ في أول مرة رأيته يحملكِ فيها، أنكِ أنتِ الطبقة التي كانت تنقصه.

- ماذا؟

- أي الشيء الذي يشعره بالاكتمال، لم تكن فيكتوريا الشخص المناسب، بل أنتِ.

تذكرت المرارة في صوت فيكتوريا ثانية: *إن الرجال خائنون بطبعهم*. وعلمت أن أيًّا ما كان التغيير الذي لاحظه رينيه على أبي، فقد لاحظته فيكتوريا أيضًا، وشعرت بالألم لاستبدالها بشخص آخر. كنت على دراية بماهية ذلك الشعور، إلا أنني لم أكن لأفعل بفيشر ما فعلته هي بأبي.

كما أنني كنت طفلة، بلا ذنب، لكنني حصدت ما زرعه أبواي على أي حال.

بقيت أنا ورينيه صامتين، وعادت يده تتحرك ثانية بين الزجاجات، ترتبها وتعيد تنظيمها، وتتصنع عطورها الخاصة دون أن تزيل الغطاء عنها.

قلت لرينيه: لن تكون فيكتوريا سعيدة بإخباركَ لي.

قال رينيه وهو يتصنع الابتسام: لن تكون على الأرجح. إلا أنني لست متأكدًا من انتمائي لهذه الشركة في الوقت الحالي بأي حال. منذ وقت قريب، تواصل معي عالم من أصدقائي، الذي يعمل على بحث عن تأثير الروائح على مرضى ألزهايمر، وأنا أظن أن ذلك يبدو أكثر إثارة بكثير.

أدرت رأسي محاولة تصفية ذهني ثم قلت: إن كنت تعلم بشأن هذا الأمر كله، فلماذا واصلت العمل لديها؟

قال رينيه وهو يهز منكبيه: أنا أحب الروائح. وأمكِ تمثل إحدى العقليات الفذة في هذا المجال.

- ولكن هذا كافٍ للعمل لديها؟

- إن العمل مع مدير عبقري لا يكون سهلًا عادة.

بدأ رينيه بإعادة الزجاجات إلى مكانها وترتيب المكونات التي كان يعمل بها في مجموعات.

قال رينيه بعد فترة: أتعلمين، لقد كانت آلة أبيكِ مدهشة. لقد التقطت أوراق العبير تلك كل شيء تستطيعين شمه في مكان ما في لحظة معينة. لكنها لم تكن لتبقى كما هي بعد مرور ساعة أو حتى دقيقة، ولم يكن لأحدهم اليد العليا في اختيار ما سيطرأ عليها، أو ما لن يطرأ عليها. إلا أنها وهبتك حياة، ولحظة كاملة، بين راحة يديكِ.

- سوى أنها لم تدم.

- لكنها كانت رائعة.

جلست هناك، منغمسة في تلك الذكرى التي فتح فيها والدي زجاجة مختومة بالشمع الأحمر، وسمح للعالم بالدخول إليها.

قال رينيه: لعلمكِ، لقد صنع أبوكِ ورقة عبير عنكِ. عن أول مرة رآكِ فيها. وكان حريصًا على وضعها في الزجاجة فورًا. كما أنه ختمها بلون شمع مميز حتى لا يفتحها عن طريق الخطأ. لا تحسبي أبدًا يا إيميلين أنكِ لم تُمنحي الحب.

- ماذا كان لونه؟

- ماذا؟

- الشمع؟

هز رينيه منكبيه ثم قال: لا أستطيع التذكر، لكن أظن أنه كان أزرقَ، ربما؟

رأيت الزجاجة. تتطاير في الهواء، في طريقها للسقوط نحو الماء، وبت أسمع صوت فؤادي يتحطم في اللحظة التي تشق فيها صفحات الماء في سكون تقريبًا.

***

وجدت فيشر واقفًا خلف طاولة المشرب عندما ذهبت إليه. توجهت نحوه مباشرة وطوقت وسطه بذراعي، ودسست أنفي بين عنقه، لتحملني رائحته بعيدًا. لم يتحرك أي منا لدقيقة كاملة.

جاءت إيزي من خلفنا ثم قالت: بقدر ما يبدو ذلك لطيفًا، إلا أن لدينا عملًا نقوم به هنا. رفعت رأسي، فرأيت وجهها يلين، ثم قالت وهي تنكز فيشر بإبهامها: هل لكِ أن تُسدي إليَّ معروفًا وتخرجي هذا الفتى من هنا؟ إن الليلة ليست إحدى مناوباته من الأساس.

***

عدنا إلى القارب وتكورنا على سرير فيشر الضيق الصغير. غطانا فيشر بالغطاء ذي النقشة المربعة، فأخبرته في جنح الظلام بما سمعته.

سألني فيشر: إذن لقد تركَت أباكِ يحمل اللوم على فشل آلة العندليب؟

- بل فَعَلَتْ أكثر من ذلك على ما أظن. فقد كان على أحدهم توجيه التهم له.

- يا إلهي، كم هذا قاسٍ.

شعرت بفيشر يحبس أنفاسه عندما أخبرته بأمر الزجاجة المختومة بالشمع الأزرق، وبدا الصمت الذي أعقب ذلك طويلًا كأنما استمر لأيام.

سألني فيشر أخيرًا: إذن، علام تنوين؟

- لست أدري. لكنني لا أستطيع العيش معها بعد الآن. كما أنني أود العودة إلى البيت على الأرجح.

- إلى الأبد؟

- لست متأكدة. لكن لفترة، ربما؟

- سأذهب معكِ إذن.

- لا، لا يمكنك فعل ذلك. ماذا عن أبيك؟

- لا تقلقي، أنا لن أعود إلى ذلك المنزل. إنه لا يستطيع إجباري الآن.

ظل فيشر واضعًا يده المفتوحة على بشرتي، فاختبأتُ بين سكونها المُطَمئِن. أضاف فيشر: علاوة على ذلك، لقد حان الوقت لأرى أمي.

ظللنا مستلقيين لساعات في ذلك الفراش الوثير، نرسم خططًا. اتفقنا أن أعود إلى منزل فيكتوريا، لأُحضر متعلقاتي، وأن أظل مقيمة بالقارب مع فيشر حتى نستطيع استقلال حافلة تعيدنا إلى الخليج. لم نرتب ما سيحدث بعد ذلك. أرادت إيزي ترقية فيشر لمنصب ذي مسؤوليات أكبر، كما أن حديثي مع رينيه عن ذلك البحث الخاص بمرض ألزهايمر قد فتح عقلي على احتمالات أخرى.

كما تبقى كذلك احتمال البقاء في الخليج أو المنتجع أو الجزيرة، وبت أشعر بها تناديني بقوة أكبر، مع كل اهتزازة للقارب.

غلبنا النعاس في وسط الحديث، وأفقنا في الصباح وذراع كل منا ما تزال تطوق الآخر.

***

لم أكن على استعداد للقاء فيكتوريا، ولم أدرِ حقًّا متى سأصبح مستعدة لذلك. ومن ثم انتظرت حتى بت متأكدة أنها قد غادرت للذهاب إلى مكتبها. عرض فيشر القدوم معي، إلا أنني أخبرته بضرورة فعل ذلك وحدي.

عندما دخلت إلى بهو البناية، وجدت بيكي حارسة العقار جالسة خلف مكتبها. حاولتُ التسلل من دون أن تراني، إلا أنها لوحت لي سريعًا وهي تنحني إلى الأمام لتمسك بسماعة الهاتف.

وصلت إلى الشقة، من دون وقوع مزيد من الأحداث، ودخلتها وأنا أشعر كما لو كنت لصة لا أحد السكان. بدت الشقة جميلة بقدر ما رأيتها أول مرة، بغض النظر عما عرفته منذ ذلك الحين. فتشت أرجاء الشقة بحثًا عن دليل على خيانة أمي، إلا أنني لم أرَ سوى المطبخ الذي وقفنا نطهو طعامنا فيه معًا، والأريكة التي جلسنا نتحدث عليها في آخر المساء.

هل تصورت الروائح مثل ألوان من قبل؟

بالتأكيد.

لقد استطاعت فيكتوريا رؤية جزء من شخصيتي لم يره أحد، ولا حتى فيشر، منذ وفاة أبي. وقد وسعت مداركي، وعلمتني.

لكنني قلت لنفسي *لقد آذت أباكِ.*

ومع ذلك، فقد فعلت أنا الشيء نفسه. رأيت، ثانية، الزجاجة المختومة بالشمع الأزرق تطير في الهواء، وكيف هرع أبي غريزيًّا للإمساك بذكرى تلك الطفلة - التي لم تخنه بعد.

امضي في طريقكِ فحسب يا إيميلين. مشيت في اتجاه الصالة، إلا أنني رأيت في نهايتها باب غرفة نوم فيكتوريا الموارب. كانت فيكتوريا دائمًا ما تبقي باب غرفتها مقفلًا، لتحافظ على نظافة الغرفة وتحميها من الأتربة على حد قولها. ولم أدخل غرفتها بعد اليوم الأول إلا نادرًا.

أما الآن، فقد ذهبت نحو الباب وأطللت برأسي منه. كانت حالة الفراش توحي بأن من نام عليه، قد نام فوق الأغطية كما كانت أدراج الخزانة شبه مفتوحة. ربما تبدو أمور كهذه كلها بلا أهمية، لولا معرفتي بولع فيكتوريا بالنظام.

ومع ذلك، فقد كان الجدار المصنوع على شكل مربعات، والذي ترتص عليه زجاجات العطور، مرتبًا بدقة كعادته. كانت فيكتوريا قد نسيت إغلاق الستائر، فلمعت السوائل الموجودة في الزجاجات لافتة انتباهي. تذكرت فيكتوريا وهي تتحدث عن متحف عطور آندي وارهول، وكيف استعان بالعطور ليستعيد أوقاتًا قضاها في حياته، وكيف مثلت كل منها ذكريات ونسيمًا من عبير الأيام التي مضت.

تذكرت أبي الذي كان يقول: *الناس يكذبون يا إيميلين لكن الروائح لا تكذب أبدًا*، فمشيت عبر الغرفة حتى وقفت قبالة الجدار.

قلت له: قص علي قصة. رجاءً.

الجدار

شمس القصة دائمًا تشرق في أعلى الصفحة.

جررت كرسيًّا مجنحًا عالي الظهر ووقفت عليه لأصل إلى المربع العلوي الأيسر، ثم أنزلت زجاجة شفافة شبه مملوءة بسائل ذهبي غامق. جمع شكل الزجاجة بين البساطة والأناقة، وكان غطاؤها المستطيل ثقيلًا. أُلصق على وجه الزجاجة، الذي كان يواجه الجدار، وسم أصفر مُؤطَّر من الحواف. بدت الكلمات المكتوبة بخطوط سوداء مستقيمة على لون أبيض دون زخرفة أو تنميق في غير محلها.

شانيل رقم 5.

هبطتُ على الأرض ورفعتُ الغطاء، فشممت الطبقة-العليا العابقة برائحة الليمون العطري، ورائحة الطبقة الوسطى المثيرة التي تحمل عبق الياسمين وساق السوسن، بينما اندست رائحة العنبر والفانيليا في طبقة القاعدة. كان العطر باهرًا وسخيًّا، مزيجًا من روائح مركبة وحالمة، تُشع كأضواء الكشاف الموضعي، متقنًا مثل أظفار مطلية باحتراف تنقر على طاولة.

سألت العطر من *أنت؟* لكنه لم يعرني جوابًا. كان العطر يتوق لأن يمتزج ببشرة أحدهم، لا بشرتي.

وضعت الزجاجة على خزانة الملابس وعدت مجددًا إلى الجدار أفتش عن مزيد من الوسوم المخبأة، لكنني لم أعثر على شيء. كان لا بد من العثور على طريقة أخرى لأكشف هذا السر.

كان جدار أدراج أبي كجدول زمني مقسم إلى زجاجات مختومة بالشمع الأحمر ترتص في الأعلى وزجاجات مختومة بالشمع الأخضر ترتص في الأسفل، كمشرط جراح يفصل بين العالم الداخلي والعالم الخارجي، بين الحياة ما قبل الجزيرة وما بعدها، بين أسفاره وبين حياتنا معًا. كانت الزجاجات المختومة بالشمع الأخضر تبدأ من منتصف الجدار تقريبًا، فظننت أن الأمر ذاته قد ينطبق هنا.

ذهبت إلى منتصف مجموعة أمي واخترت زجاجة بها سائل وردي فاتح. كان العطر داخل الزجاجة، خصبًا ومعقدًا بروعة، لكنه لم يخبرني شيئًا هو الآخر. أزلت الغطاء عن أربع أو خمس زجاجات متجاورة بحثًا عن إشارة أو علامة، عن أي أثر لي، بأي صورة كان، في ذكريات أمي.

كنت على مشارف رفع راية الاستسلام عندما فتحت قنينة صغيرة بها سائل بني اللون وأحسست بإحدى ذكرياتي تتهادى بخطى متثاقلة للقائها. كنت في الكوخ، وآلة أبي مسجاة على الأرض، والوشاح الأزرق يحترق في موقد الخشب. رأيت ألسنة اللهب تأكل الوشاح وتلوكه بين أسنانها، ورائحته الغادرة تقطع أوصال ما تبقى من رائحة أبي.

ها قد كانت الرائحة مجددًا، بليدة ولاذعة تئن من الشوق. غطيتها مجددًا، لكن الرائحة كانت قد تسللت بالفعل، وباتت تتجول بأرجاء الغرفة وتطوف بتثاقل حول الزجاجات العادية الموضوعة على الخزانة وتعبث بالفراش، ولسان حالها يقول بصوت خفيض وشائك كصوت احتكاك فروع الأشجار بالسقف، وشاعري كصوت إفراز الأشجار للصمغ: *هذا شعور جيد، أنا أريد المزيد.*

حدثت نفسي: ركزي. *لدينا الآن خيط زمني، لا بد وأن أباكِ قد أخذ الوشاح عندما ترك فيكتوريا. اتبعي هذا الخيط.*

فتحت الزجاجة التي سبقتها، المرصوصة على نفس الصف ثم التي تسبقها وأنا أرتجف. وجدت أربعة عطور مبتكرة من المادة العطرية نفسها،

لكل منها ميزة دقيقة، فأدركت أنها مجموعة من الخيوط تلتف على شبكة بديعة تتوارى عن الأنظار. رتبتها معًا ثم بدأت أشمها من الأقدم إلى الأحدث لألاحظ الاختلافات. كانت الأولى تحتوي نفحة من المسك، تلك الغريزة الحيوانية التي تؤجج العواطف. وأما الثانية، فقد حملت اندفاع زنابق الماء المنعش، فتشابكت حولي تهمس بالوعود، ولسان حالها يقول *أنا أحبكِ*.

وأما الثالثة، فقد كانت شديدة المراوغة حتى إنني كدت ألا ألاحظها، لكنني استحضرت تلك الطبقة العطرية من العطر الذي شممته في بهو شركة أنفاس. *المال*. خلت الزجاجة الرابعة من رائحة المال، واستُبدلت بتلك الغريزة الحيوانية مجددًا، لكن بقوة أكبر وإصرار أشد هذه المرة، ومثلت غريزة *الإنجاب*.

كانت تلك الزجاجات المدروسة والمرتبة، واحدة تلو الأخرى، تحكي تاريخ أبويَّ، وفق تخطيط فيكتوريا.

كان ياما كان يا إيميلين، كان هناك ساحرة جميلة تعيش في قصر كبير مصنوع من العبير...

لقد أخبرني أبي بتلك القصة أيضًا، وكانت الحقيقة تختبئ خلف ستار الخيال.

أمسكت بالزجاجة التالية وأنا أترقب نوعًا جديدًا من التغيير، وسطرًا جديدًا من الرواية، لكن الرائحة كانت مختلفة تمامًا. كان العطر ناعمًا وورديًّا، تفوح منه رائحة البرتقال الحلو وشروق الشمس، مع نفحة من أوراق زهرة البنفسج، فشعرت بالألم ينهش في جسدي، والخوف، والرغبة الماسة في النجاة تعتصرني. ومن ثم شعرت بالطمأنينة. لهثت وطردت تلك الرائحة التي تمزج البشاعة والروعة في آن واحد بعيدًا. كانت تلك أكثر رائحة مألوفة من بين العطور كلها.

فقد كانت تحملني بداخلها.

قربتُ الزجاجة أكثر وبدأت أشمها على مضض، فبت أرى الغرفة الباردة المعقمة ذات الجدران البيضاء، يقف بها طبيب، وأبي يقف في زاويتها. فتشت تلك الذكرى، أبحث عن رائحة غريزية حانية، عن رائحة جسد أمي، لكنني لم أعثر على شيء، فقد حالت فيكتوريا بيني وبينها بعطر، حتى في

يوم مولدي، وفي أكثر التجارب حميمية بين الأم ووليدها، وقفت على الحياد تمسك بالخيوط وترسم اللحظة ببراعة.

كان جسمي بأكمله يرتجف، فأعدت الزجاجة إلى مربعها وتحققت مما تبقى من الزجاجات بحماس متقد. وجدت العطر الذي يفوح في بهو شركة أنفاس، ورائحة الحمضيات والصنوبر الموجودة في المصعد، ورائحة شروق الشمس الوردي، ومن ثم بكل ثقة وجدت العطر الذي ابتكرتُه للمتجر ذاته، موضوعًا في قنينة مضلعة زاهية. بعد ذلك، وجدت مجموعة من زجاجات المزج الخالصة، كتلك التي نستخدمها في المعمل.

كانت كل واحدة من تلك الزجاجات الصغيرة الأخيرة، ملأى بالسوائل إلى نصفها. أظن أنني عرفت، حتى قبل أن أشمها، ما كانت تحتوي.

فتحت أول زجاجة، فشممت رائحة احتراق تنبعث من الماضي- شجر التفاح. واصلت ما أفعله فوجدت التنوب، والأرز، والقرفة، وملح البحر. كل منها على حدة بداخل زجاجة مختلفة. وجدت جميع الروائح التي اختبأت بين لحاف ما، وفي الطعام الذي أكلته، والملابس التي ارتديتها، والتي منحتني شعور الأمان ومثلت طفولتي، تلك التي أخبرت فيكتوريا عنها، مستقرة بشكل غامض بين حدود تلك المساحة النظيفة البيضاء. حاولت إقناع نفسي، في كل مرة شممتها فيها، بتفسير منطقي لوجودها هنا. أما الآن، فقد جلست على الأرض محاطة بالأكاذيب.

فكرت أنها استغلتني أنا أيضًا، كما فعلتْ بأبي، واستخدمت عطورها كما لو كانت تدير عصا سحرية للحصول على ما تريد، سواء كان ذلك آلة أبي، أو العطور التي ابتكرتُها من أجل شركتها. كان يجدر بي معرفة ذلك، فقد أخبرتني القصص التي حكاها لي أبي، كما حذرتني كلوديا. حتى إن فيكتوريا نفسها أخبرتني بذلك.

لا بد ألا تترك المرأة أي شيء للظروف في هذا العالم.

لكنني لم أنصت جيدًا.

قالت فيكتوريا التي كانت تقف بباب الغرفة: ماذا تفعلين؟ جالت فيكتوريا ببصرها في الغرفة، ولاحظت الزجاجات المتفرقة حولي، وزجاجة عطر شانيل رقم 5 الموضوعة على الخزانة.

نهضت وأنا أحمل إحدى الزجاجات الصغيرة الخالصة وسألتها: كيف سمحت لنفسكِ بفعل ذلك؟

امتقع وجه فيكتوريا ناصع البياض ثم قالت: لقد أردت أن أشعركِ بأنكِ في منزلكِ.

كان صوتها حذرًا ولطيفًا، لكنها لم تكترث حتى بمحاولة التظاهر بجهلها بالموضوع الذي أتحدث عنه.

إن المنزل ليس مكانًا مثاليًّا.

أوه، لكنه قد يصبح كذلك.

قلت لها: أنا لست واحدة من عملائكِ.

اتسعت عينا فيكتوريا وقالت: نعم، إنكِ ابنتي ثم خطت خطوة إلى الأمام مضيفة: أنا أمكِ.

عندما قابلت فيكتوريا لأول مرة، لم أتجرأ حتى أن أجعل الأمل يداعب أحلامي بأن تعترف تلك المرأة التي لا مثيل لها بأنني ابنتها. أما الآن فقد كنت أصب جام غضبي عليها.

- هل تعرفين حتى معنى الأمومة؟ كل شيء هنا زائف، وقد نسجت الشباك بنفسكِ.

كاد الدم ينفر من وجه فيكتوريا، كما لو كنت قد صفعتها، لكنها ضحكت ضحكة جافة.

قالت لي: حسنًا يا *إيميلين*.

فبت أرى التهكم باسمي الآخر مستترًا خلف ندائها، كأنما يقول *أنتِ أيضًا لكِ* وجوه عديدة. أمسكت فيكتوريا بعطر شانيل باستهزاء ثم قالت: أتودين حقًّا سماع قصة *أُم* حقيقية؟ ما رأيكِ بهذه القصة؟ إن المرة الوحيدة التي ثأرت فيها أمي لكرامتها كانت عندما طردتني من المنزل.

أخذني كلام فيكتوريا على حين غرة، فتوقفت ثم قلت: ماذا؟

أمسكت فيكتوريا الزجاجة بكل قوتها ثم رفعتها قائلة: لقد كان هذا العطر هو العطر المرتقب *لنيل الرجل*، لكنها كررت الخطأ. مجددًا. لقد كانت دائمًا تصب تركيزها على الطبقات العليا للعطر، وتغفل عما كان يسكن أسفل منها.

حدقت فيكتوريا إلى السائل الكهرماني الذهبي، ثم قالت: إن كوكو شانيل، كانت تضع في كل عطر ابتكرته وكل فستان أسود قصير أو بذلة صممتها، الفولاذ في طبقة القاعدة. *هذا* ما كان الرجل يرغب به حقًّا – القوة لا الورد. لقد فهمت ما فعلته شانيل، وكان الرجل على دراية بذلك. لكن علم أمي كان قاصرًا على أي حال، ولم ترد المنافسة، لذلك طردتني، عندما كنت في الثامنة عشرة.

نظرت فيكتوريا الجميلة إلي بتحدٍّ ثم قالت: أما أنا، فقد أخذت زجاجة العطر، والرجل معها، وأخذني هو بدوره إلى باريس، حيث حصلت على تدريبي.

وضعت فيكتوريا الزجاجة على الخزانة بحدة ثم قالت: والآن، أخبريني، أليس هذا رائعًا؟ لا يرغب أحد حقًّا في سماع القصة الحقيقية يا إيميلين، على الإطلاق. إن كل ما فعلته كان من أجلكِ.

قلت لنفسي والغضب يعتريني ويغسل ما تبقى من آثار التعاطف الذي شعرت به: *ها نحن أولاء. عدنا مجددًا إلى الكذب.* قلت لها: إن كنتُ حقًّا بذلك القدر من الأهمية، فلماذا لم تبحثي عني؟

حدقت فيكتوريا بي وقالت: لقد فعلتُ.

- ولكن لكم من الوقت؟

دست فيكتوريا يدها في شعرها ثم قالت: بربكِ يا إيميلين. لقد لفظت شركتي آخر أنفاسها بسبب أبيكِ. هل لديكِ أدنى فكرة عن ماهية ذلك؟ عن القضايا؟ والديون؟ لم أتمتع برفاهية الجلوس والنواح على الابنة التي لم أستطع العثور عليها لما تبقى من حياتي.

حاولت تجاهل كلماتها الحادة كنصل السيف لكنني عرفت أنها تقول الحقيقة.

- لماذا لم تخبريني بأي من ذلك؟

زفرت فيكتوريا بغيظ وقالت: لأن الناس يرغبون أن يفوح من أجسامهم عبير محيطات لن يحظوا أبدًا بالوقت لزيارتها. وأن يضعوا عطورًا تُشعل شهوة الأجساد، في حين أن كل ما يرغبون به هو العثور على شخص يرتمون بحضنه على أريكة وهم يرتدون ملابس نوم فضفاضة. إننا جميعًا سنقايض دائمًا برواية قصة لطيفة بدلًا من الاعتراف بالحقيقة.

- لكنني لست كذلك. كنت أشعر بالسأم من سماع قصص زائفة، ومن اقتفاء الآثار بدلًا من الحصول على الإجابات، ومن استجداء مشاعر حب، تختبئ عميقًا مثل طبقة القاعدة، مشاعر لن تمهلني الحياة الوقت لأن أشم عبيرها.

- انتظري فقط حتى تصبحي أمًّا يا إيميلين. ماذا ستخبرين *ابنتكِ*؟

ابنتكِ. انقلب عالمي رأسًا على عقب بعد سماع تلك الكلمة الأخيرة، وتباطأ الزمان، وغير مساره، وبات يمشي عكس عقارب الساعة، ولم يعد شيء أحدق إليه برعب. *ابنتي*.

قلت لفيكتوريا: سأخبرها بكل شيء.

- وماذا ستفعلين عندما لن يكون في قلبها مكان لحبكِ؟

عاهدت فيكتوريا وقلت: لن أتوقف أنا عن حبها.

بادلت التحديق إلى عينَي فيكتوريا ورأيت في عينيها شيئًا لم أتوقع رؤيته قط – اليأس. أدركت حينها أنها لم تخف من الهجران، لكنها كانت تخاف من خسارتها لي.

خلال الشهور التي عشت فيها بمنزل أمي، لم نحظَ يومًا بزيارة ضيف واحد. ولم أرها يومًا تذهب إلى موعد غداء أو عشاء سوى مع عملائها، ولم أسمعها ترفع صوتها عبر الهاتف فرحًا بمحادثة صديق، ولم أرَ صورة شخصية واحدة معلقة على الجدران. كنت أظن أن والدتها متوفاة، لكن على حد علمي، قد يكون هذا غير صحيح. لقد كانت فيكتوريا حبيسة في جزيرتها الخاصة أكثر مما كنت أنا يومًا، لكنها سمحت لي أنا بالدخول. ربما كانت ذلك حسب شروطها الخاصة، وفق نوع الحب الوحيد الذي بدا منطقيًّا لها، لكنني كنت هنا معها على أي حال.

وأخيرًا، ابتعدت فيكتوريا، وفردت منكبيها ومدت يدها إلى شعرها لتعيد ترتيب هندامها وتصبح فيكتوريا وينجت من جديد. وقفت أراقبها، ثم أدركت أنها لا تفهم حقًّا إلا لغة واحدة، وأن لا طريقة أصل بها إليها سوى بالتحدث بتلك اللغة، فقد أردت حقيقة لا مراء فيها. أردت لحظة صافية وإن كانت معقدة من لحظات حياتي، وذكرى لم يعبث بها أحد.

وقد كانت آخر ما تبقى بحوزتي.

الزجاجة

وجدت آخر زجاجات أبي في مؤخرة خزانتي، فسحبتها وأمسكت بها بين راحة يدي. تحركت ورقة العبير داخل الزجاجة، وبدا ختم الشمع الأخضر على وشك التشقق بفعل الزمن. كانت هذه الزجاجة آخر ما تبقى منا.

سمعتها تهمس، *تعالي إليَّ*.

تُرى كم حملتُ تلك الزجاجة خلال الأعوام الستة الماضية، في شوق إلى أن أعود إلى حياتنا معًا مجددًا؟ وكم مرة حملت نفسي على ألا أقدم على إزالة الختم؟

تذكرت كيف أشعل أبي النار، في أول أوراق العبير التي أخذت رائحتها في الاختفاء، وكيف تطايرت رائحتها في السماء، وكيف حمل الاحتراق معه رائحة العبير الذي كان يلفظ آخر أنفاسه كهدية لم نأملها حتى. تأملت كم كانت تلك اللحظة نفيسة، وكم أنصتنا، في تلك اللحظة فحسب، إلى ما كان العبير يقوله حقًا. ربما كانت هذه هي العبرة من البداية، والرسالة التي كانت أوراق العبير تهمس بها طوال الوقت الذي كانت تقبع به في هذه الأدراج على الجدار. بت أتساءل عما كان سيحدث إن كنا قد أصغينا لها حقًّا في الوقت المناسب، إن أطلقنا سراحها، وتركناها تنبض بالحياة.

ومع ذلك، فقد كنت الآن في حيرة من أمري، فإن فتحت الزجاجة التي أحملها، فسيختلط عبيرها بالمكان، وسيأخذان من بعضهما بقدر ما يمنحان.

لكنني أيقنت أن هذا أيضًا ما أريد.

***

كسرت الختم بعناية، وأنا أنصت لاحتكاك الزجاج ببعضه وحفيف الورقة، وأنا أزيل الغطاء وأبسط ورقة العبير في يدي.

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت الزبدية الخزفية البيضاء التي كنت أستخدمها أنا وفيكتوريا لتقديم السلطة، ثم وضعت ورقة العبير فيها وأشعلت عود ثقاب، ليلامس إحدى أطراف الورقة. بدأت الورقة تلمع، ومن ثم تحترق.

جاءت فيكتوريا إلى المطبخ.

قالت فيكتوريا: أنا أشم رائحة دخان فأشرت إلى الزبدية. انتبهت فيكتوريا إلى ورقة العبير، ثم أطلقت ضحكة ساخرة جافة.

قالت فيكتوريا: هذا كل ما يعود بالنفع منها الآن.

- انتظري فحسب.

رفعت فيكتوريا حاجبًا وظلت واقفة في مكانها.

اشتعلت النار في الورقة داخل الزبدية البيضاء، وباتت تحترق كزهرة في يأس، وهي تنشد لحنها الجميل الأخير. شعت الروائح من لهب احتراقها، وباتت تطوقني وهي تقول:

لقد اشتقنا لكِ.

استنشقتها، فاختفى مطبخ فيكتوريا من حولي. بت أشم الكوخ في الشتاء، في الصباح الباكر، ورائحة الموقد الخشبي الذي يعمل بلا كلل ليُلزم الصقيع حدوده. كان أبي قد خمَّرَ العجينة، فأخذت رائحتها النفاذة تمتزج برائحة حبوب القهوة اللطيفة. استطعت أن أشم دفء جسدي يسبح في الهواء وأنا أرفع عني الأغطية وأدفعها جانبًا.

تذكرت ذلك الصباح، الذي رأيت فيه آلة أبي أول مرة. لا بد وأنني كنت في الثالثة أو ربما الرابعة، عندما استيقظت ورأيت أبي يقف وسط الغرفة، حاملًا

صندوقًا لامعًا براقًا وساحرًا بين يديه. تذكرت كيف جريت على الأرض، والبرد يلسع قدميَّ الحافيتين.

ما هذه يا أبي؟ إنها رائعة. أخبرني.

تذكرت كيف وضع أبي الصندوق البراق جانبًا وحملني عاليًا قائلًا *إنكِ أروع شيء في هذا العالم يا عصفورتي الصغيرة.*

***

تحول آخر ما تبقى من الورقة إلى كومة رماد، وبقيت أقف هناك، أحاول تذكر ماذا حدث تاليًا، لكنني لم أستطع. تُرى هل أراني أبي الآلة أم أننا ذهبنا إلى الخارج لقطع الحطب؟

برأيك أنني استطعت التذكر، لكنني لم أفعل، فكل ما تذكرته كان الإحساس به يحملني بين يديه، ويمنحني حبه بتلك الصورة، من قبل أن يحدث أي شيء آخر.

وغمرني في تلك اللحظة الرضا.

سمعت فيكتوريا تقول: أوه، وعندما نظرت إليها رأيت عينيها تغرغر بالدموع.

شكر وتقدير

بدأت قصة *حاملة العبير* في خيالي صورة لفتاة صغيرة تعيش في كوخ مصنوع من الأدراج، لكن أناسًا وأماكن حقيقية هم من منحوها قبلة الحياة. لذا أهديهم كلمات الشكر حتى وإن كانت لا تكفي كل ما أود قوله.

لقد كنت محظوظة بالتمتع بفريق دعم لا مثيل له في أثناء كتابتي لهذا الكتاب، فقد بثت مؤسسة «كُتاب سياتل السبعة» (Seattle7Writers) روح الصداقة الحقيقية في مهنة يقع عبؤها على عاتق شخص واحد. ولذلك أوجه الشكر لأعضاء مجموعتي الذين كانوا بمنزلة طوق نجاتي طوال هذه العملية –مارجوري اوسترهوت، ثيا كوبر، جيني شورتريدج، راندي سو كوبيرن، تارا أوستن ويفر– فملاحظاتكم وإبداعاتكم اللغوية لا تقدر بثمن.

يُعتبر القراء الأُول حصن المؤلف المنيع، لذلك أشكر ديدي ريشتين، نينا مايردينج، هولي سميث، كايتلن فينسينت، بين باورمايستر، بول باورمايستر، مايكل باورمايستر، جلوريا باورمايستر، لمساعدة إيميلين في العثور على صوتها. كما أشكر ساشا كاي مرجعي بخصوص ما يتعلق بكندا. وأشكر الفريق الرائع في وكالة «بيت الكُتاب» (Writers House) –إيمي بيركور، جينيفيف جاني هاوز، أليس مارتن– الذين دعموني طوال نسخ الكتاب الخمسة. وأشكر ليزلي جيلبمان في «دار نشر سانت مارتن» (St. Martin's Press) التي آمنت بهذا الكتاب وأصبحت منزله الحقيقي. ومن ثم أشكر

ملهمي رايلان باورمايستر الذي خاض معي مغامرة تحريرية في غمارة أجمة كثيفة، أنا أدين لك بحلاوة أيامي كلها.

لقد كنت محظوظة للغاية في أثناء تأليفي لهذا الكتاب، بالإقامة في «هيدج بروك» (Hedge- brook) في جزيرة «ويدبي» (Whidbey)، فقد خاضت إيميلين هناك أصعب معاركها وخرجت منها منتصرة. وأوجه الشكر إلى إيمي، فيتو كاثي، دينيس، جوليا لكل جهودهن لإيصال صوت النساء إلى العالم.

لقد استوحيت الجزر الموجودة في رواية *حاملة العبير* من «أرخبيل بروتون» (Broughton Archipelago) النائية في كولومبيا البريطانية. لذلك أوجه جزيل الشكر لبروس ماكموران، جوزيه ماكموران من «نزل المجدفين» (Paddler's Inn) لتعريفي على هذا المكان الرائع، كما أشكر نيكي فون شيندل، السبب في فتح عيني وتعليمي طريقة جمع الطعام، وأقول إن الدلافين مهداة لكِ. رغم كون هنري وكوليت شخصيات خيالية، إلا أن الكوخ السري مستوحى من الأكواخ باهرة الألوان في «منتج خليج تليجراف لمالكيه جوردي وماريلين جراهام» (Gordie and Marilyn Graham's Telegraph Cove Resort).

أنا أومن أن الكتب، لا سيما هذا الكتاب، تُدين بالفضل لخيال الآخرين، فقصة العندليب مقتبسة من أعمال هانس كريستيان أندرسن، كما غيرت سيسيل تولاس مفهومي عن الروائح، وألهمني عمل رومان كايزر خلق شخصية جون هارتفل. كذلك جاء ابتكار آيمي رادكليف لجهاز «ماديلين» (Madeleine)، وهي كاميرا روائح تناظرية في الوقت الذي كنت أتساءل فيه إذا ما كان أحد سيصدق وجود آلة مثل العندليب على الإطلاق. وأيضًا أنا مدينة بالعرفان لـ«أنجاني ميليت» التي عرفتني لعبة الروائح التي لعبتها مع والديها في إحدى المرات، «كايتلن فينسينت» التي كانت بمنزلة مرجع قيِّم للإجابة عن أسئلتي المتعلقة بالصدمة والعقول الشابة، ولعطور «أيالا موريل» التي أخذتني بعيدًا نحو عبير شمال غربي المحيط الهادئ، ريتشارد وينينج، فيكي ليزلي، كريستوف لوداميل في شركة «بروليتيك» (Prolitec) الذين يعدون براهنًا على قدرة تكنولوجيا العطور على صنع المعجزات عندما تمنح للأشخاص المناسبين.

لقد أمضيت وقتًا لا حصر له بين صفحات الكتب لأعرف كل شيء عن العلامات التجارية العطرية، والقصص الخيالية، وتعبيرات الوجه الدقيقة، ومهارات البقاء على قيد الحياة، لذا أدين بالشكر للكُتاب الذين علمتني أعمالهم الكثير: ماندي أفتيل، دياني أكيرمان، باتريك زوسكيند، جان كلود إيلينا، لوكا تورين، تانيا سانشيز، شاندلير بور، باربرة هرمان، بيت فرون، سي راسيل برومفيلد، مارتن ليندستروم، أنيك لي غيرر، مولي بيرنبوم، أليسا هاراد، دينيس بوليو، لورانس جي روزنبلوم، راشيل هرز، أفيري غيلبرت، كونستانس كلاسن، لورنس غونزاليس، بيل بروكتر، بول إيكمان، هيلين كيلر، إم. جي. روز، برونو بيتلهايم.

كما أشكر زوجي وأولادي الذين لحقوا بركب كل كتاب وعاشوا مع أصدقائي الخياليين كما لو كانوا شخصيات حقيقية وجعلوا حياتي بأكملها حافلة، كلماتي هذه أهديها لكم.

وأخيرًا أدين بعميق الثناء لجريج كريتسر، الذي أرشدتني مؤلفاته وصداقته إلى مفهوم الكتابة الحقيقي. نحن نشتاق إليك كثيرًا يا عزيزي.